الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن

الجزء الثالث و العشرون

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 7

الجزء الثالث و العشرون‏

سورة العنكبوت‏

[سورة العنكبوت (29): الآيات 1 الى 13]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

الم (1) أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ (2) وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (3) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (4)

مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5) وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (6) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (7) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (9)

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَ وَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ (10) وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ (11) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (12) وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ (13)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 8

سورة متماسكة الآيات بدء ختم، قهرمانتها المسماة هي باسمها «العنكبوت» و هي أضعف حشرة نعرفها و لا سيما في بيتها التي هي أوهن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 9

البيوت، تدليلا على أن بيت الإشراك باللّه و الإلحاد في اللّه هو أهون من بيت العنكبوت‏ «لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ».

ملامح السورة و مصارحها بمسارحها تشهد انها مدنية كلها، و الجهاد لا تختص بالقتال حتى تتخذ آياته فيها دليل أنها مدنية- فإن المؤمن حياته الجهاد كما تقتضيه ظروفه- فإنما الدلالة الجامعة من جو السورة أنها نزلت في غضون الهجرة و هي أحرج الحالات للنبي و الذين آمنوا معه.

تتخلل السورة من مطلعها إلى ختامها إيقاعات عميقة المدى، قوية الصدى حول حق الإيمان، و باطل الكفر، مما تهزّ الإنسان هزا و تفزه فزا ابتلاء صارما أمام تكاليف الايمان و قضاياه و رزاياه و عقباته الكئودة الملتوية من المتربصين دوائر السوء ضده و ضد كتلة الإيمان.

فقد ابتدأت بإيقاعه ما أقواها: «أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا ..»

و اختتمت بما يقضي على كل العراقيل في سبيل اللّه: «وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» و بينهما عرض لمصارع المجاهدين و الجاحدين- و اين مصارع من مصارع-؟ و عرض لما يتوجب على كتلة الإيمان أمام كتلة الكفر و النكران.

لقد سبق في أخريات القصص وعد ردّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إلى معادة، و أمره (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بالصمود في الدعوة سلبيا و إيجابيا، مما قد يبهّج سواذج المؤمنين، فهنا العنكبوت تحمّلهم شاقة التكاليف في هذه السبيل الشاقة الطويلة، بينهم و بين فتح مكة، في عشرة كاملة، و من ثم إلى يوم الرجعة و إلى يوم القيامة الكبرى أن نعيش حياة الجهاد في سبيل اللّه صامدين غير خامدين.

الم (1) و هذه مكرورة مرات خمس، مرة يتيمة في مدنية: البقرة، و أربعا في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 10

مكيات اربع، قد تكون هذه أخراها، و الباقية هي الروم و لقمان و السجدة.

و قد تربط «الم» العنكبوت و هي المكية الأخيرة، ب «الم» البقرة و هي المدنية الأولى، تترابطان هما بمشترك الحروف الرمزية هذه، بتقارب الجوين، على تغارب البلدين: مكة و المدينة، و إلى م ترمز «الم» هنا و هناك و في الثلاثة الأخرى؟ ما ندري إلّا ما يدرينا اللّه، و من هم المرموز إليهم فيها و سواها من مفاتيح كنوز القرآن.

أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ‏ 2.

إنه لحسبان جاهل قاحل، ان القول «آمنا» يؤمّنهم عن كل العقبات و العقوبات، بل هم- بمراتبهم- يفتنون، فتنة الذهب بالنار، و إنها فتنة للمؤمنين على طول الخط، في الزمن الرسولي و الرسالي على مختلف الظروف، و هي‏

«الفتنة في الدين، يفتنون كما يفتن الذهب، يخلصون كما يخلص الذهب» «1»

من فتن عقائدية و ثقافية و سياسية و أخلاقية و اقتصادية اماهيه من فتن هي كلها داخلة في نطاق الدين، المحلق على كل الحقول الحيوية، فلقد فتن المؤمنون في العهد المكي بأحرج الفتن، و عذّبوا بأشد العذاب، «وَ ما نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 148 في اصول الكافي عدة من أصحابنا عن احمد بن محمد عن معمر بن خلاد قال: سمعت أبا الحسن (عليه السلام) يقول‏ «الم أَ حَسِبَ النَّاسُ ..» ثم قال لي: ما الفتنة؟ قلت: جعلت فداك الفتنة في الدين، فقال: يفتنون ..

(2) الدر المنثور 5: 141- اخرج ابن سعد و ابن جرير و ابن أبي حاتم و ابن عساكر عن عبد اللّه بن عبيد بن عمير قال: نزلت في عمار بن ياسر يعذب في اللّه‏ «أَ حَسِبَ النَّاسُ.» و فيه اخرج ابن المنذر عن ابن جريح قال سمعت ابن عمير و غيره يقولون: كان ابو جهل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 11

و كما فتنوا في العهد المدني بغزوات و بكتلة النفاق، ثم فتنوا برحلة الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في قصة الخلافة الخلاعة، و لقد

«جاء العباس إلى امير المؤمنين (عليه السلام) فقال انطلق بنا نبايع لك الناس، فقال (عليه السلام) أو تراهم فاعلون؟ قال: نعم- قال: فأين قوله عز و جل: «الم أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا ... وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ»

«1» و من أشد الفتنة ما حصلت و تحصل بعد رسول اللّه (صلى اللّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

لعنه اللّه يعذب عمار بن ياسر و امه و يجعل على عمار درعا من حديد في اليوم الصائف و طعن في حيا أمه برمح ففي ذلك نزلت هذه الآية، و فيه اخرج ابن ماجة و ابن مردويه عن ابن مسعود قال: اوّل من اظهر إسلامه سبعه رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و ابو بكر و سمية ام عمار و عمار و صهيب و بلال و المقداد فاما رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلّم) فمنعه اللّه بعمه أبي طالب و اما ابو بكر فمنعه اللّه بقومه و اما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم درع الحديد و صهروهم في الشمس فما منهم احد إلّا و قد أتاهم على ما أرادوا إلا بلالا فانه هانت عليه نفسه في اللّه و هان على قومه فأخذوه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة و هو يقول أحد أحد».

أقول: تركهم هنا عليا (عليه السلام) و هو اوّل من اسلم خيانة تاريخية، ثم «أتاهم على ما أرادوا» تعني التقية حتى لا يقتلوا و كان الفوز بينهم لبلال!.

(1). نور الثقلين 4: 147 في تفسير القمي حدثني أبي عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: ... و

في مجمع البيان‏ عند قوله تعالى‏ «أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً» و في تفسير الكلبي انه لما نزلت هذه الآية قام النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فتوضأ و أسبغ ثم قام و صلى فأحسن صلاته ثم سأل اللّه سبحانه ان لا يبعث عذابا من فوقهم أو من تحت أرجلهم أو يلبسهم شيعا و لا يذيق بعضهم بأس بعض فنزل جبرئيل (عليه السلام) و لم يجرهم من الخصلتين الأخيرتين فقال (عليه السلام): يا جبرئيل ما بقاء امتي مع قتل بعضهم بعضا؟ فقام و عاد إلى الدعاء فنزل: «الم أَ حَسِبَ النَّاسُ ..» الآيتين فقال لا بد من فتنة تبتلى بها الأمة بعد نبيها ليتعين الصادق من الكاذب لأن الوحي انقطع و بقي السيف و افتراق الكلمة الى يوم القيامة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 12

عليه و آله و سلم) حول قيادة الأمة الإسلامية و إمارتها: كما و

«قام اليه (عليه السلام) رجل فقال: أخبرنا عن الفتنة و هل سألت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) عنها؟ فقال: لما انزل اللّه سبحانه قوله‏ «الم أَ حَسِبَ النَّاسُ ...» علمت أن الفتنة لا تنزل بنا و رسول اللّه بين أظهرنا، فقلت:

يا رسول اللّه ما هذه الفتنة التي أخبرك اللّه بها؟ فقال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): يا علي! إن امتي سيفتنون من بعدي، فقلت: يا رسول اللّه أو ليس قد قلت لي يوم أحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين و أحيزت عني الشهادة فشق ذلك عليّ فقلت لي: أبشر فإن الشهادة من ورائك، فقال لي: إن ذلك لكذلك فكيف صبرك إذا؟ فقلت يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) ليس هذا من مواطن الصبر، و لكن من مواطن البشرى و الشكر، و قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): يا علي! سيفتنون بعدي بأموالهم و يمنّون بدينهم على ربهم، و يتمنون رحمته و يأمنون سطوته و يستحلّون حرامه بالشبهات الكاذبة و الأهواء الساهية، فيستحلون الخمر بالنبيذ و السحت بالهدية و الربا بالبيع، قلت: يا رسول اللّه فبأي المنازل أنزلهم عند ذلك، أ بمنزلة ردّة ام بمنزلة فتنة؟ قال: بمنزلة فتنة» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

في ارشاد المفيد و قد جاءت الرواية انه لما تم لأبي بكر ما تم و بايعه من بايعه جاء رجل الى امير المؤمنين (عليه السلام) و هو يسوي قبر رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بمسحاة في يده و قال له: ان القوم قد بايعوا أبا بكر و وقعت الخذلة في الأنصار لاختلافهم و بدر الطلقاء للعقد للرجل خوفا من ادراككم الأمر؟ فوضع طرف المسحاة على الأرض و يده عليها ثم قال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ «الم أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ. وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ. أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ».

(1). نور الثقلين 4: 148 في نهج البلاغة و قام اليه ... و

في ملحقات احقاق الحق: قال‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 13

و في التوقيع الشريف عن صاحب الأمر عجل اللّه تعالى فرجه «..

و أنا أعوذ باللّه من العمى بعد الجلاء و من الضلالة بعد الهدى و من موبقات الأعمال و مرديات الفتن، و إنه عز و جل يقول: «الم. أَ حَسِبَ النَّاسُ ...» كيف يتساقطون في الفتنة، و يترددون في الحيرة، و يأخذون يمينا و شمالا، فارقوا دينهم أم ارتابوا أم عاندوا الحق أم جهلوا ما جاءت به الروايات الصادقة و الأخبار الصحيحة و علموا فتناسوا ...» «1»!

ليس القول «آمنا» سياجا مطمئنا عما تطرء من فتن، حتى و لا حقّ الايمان، فقد يفتن المؤمن ليبرز صدقه في دعواه أو كذبه، و أخرى ليتكامل في حظيرة الايمان، و ثالثة هي طبيعة الحال لكتلة الايمان حيث العقبات من الكتلة الأخرى ضدهم دائبة، فهم إذا في مثلث الفتنة.

فليس الايمان كلمة تقال، فانما هي تعبيرة عنه صادقة ام كاذبة، بل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

علي (عليه السلام) يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ما هذه الفتنة؟ قال يا علي بك و أنت مخاصم فاعتد للخصومة» ذكره الحافظ ابن مردويه في المناقب كما في كشف الغمة 93، و ذكره المير محمد صالح الكشفي في مناقب مرتضوي 61 قال روي عن علي (عليه السلام) في الآية قال‏ سألت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بم يفتنون؟

قال: بتصديق ولايتك.

(1). المصدر في كتاب كمال الدين و تمام النقمة توقيع من صاحب الزمان (عج) كان خرج إلى العمري و ابنه رضي اللّه عنهما رواه سعد بن عبد اللّه قال الشيخ ابو جعفر وجدت ثبتا بخط سعد بن عبد اللّه رحمه اللّه: «وفقكما اللّه و ثبتكما على دينه و أسعدكما مرضاته، انتهى إلينا بما ذكرتما ان المسمى أخبركما عن المختار و مناظرته من لقى و احتجاجه بانه لا خلف غير جعفر بن علي و تصديقه و فهمت جميع ما كتبتما به مما قال أصحابكم عنه و انا أعوذ باللّه ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 14

هو حقيقة ذات تكاليف و ذات أعباء و مشاق لا يتحملها إلا قليل‏ «1» حين يتمحّلها كثير، و يا ويلاها من فتن لا تقوم لها قائمة كفتنة الأحباء و الأهلين إذ يهتفون به ليسالم أو ليستسلم أمام الباطل حفاظا عليهم، هتافا باسم اللّه في الرحم، و من أبرزها الفتنة مع الوالدين كما أتت في هذه السورة.

و فتنة إقبال الدنيا على المبطلين، تهتف لهم الدنيا و تصفق لهم أهلوها و هو المؤمن مهمل منكر لا يحس به من احد، ثاويا في غربته و وحدته بوهدته، يرى الذين حوله غارقين في تيه الضلالة و تيار الجهالة.

و أعظم من كل الفتن و افتن هي فتنة الإمرة على الأمة و العلو في الأرض، أعاذنا اللّه من شرها، و رزقنا خيرها تحقيقا للحق و ابطالا للباطل.

فهذه الآية ضابطة عامة للذين قالوا آمنا، أنهم يفتنون فيما قالوا على أية حال، فمنهم ساقطون فيها و منهم ثابتون و منهم عوان، و ليست الفتنة فقط، بعدم المال و الحال و المنال، بل هم في وجدها أشد فتنة و بلاء، يفتنون بمختلف الأحوال في كل حل و ترحال، بل الحياة الدنيا كلهما فتنة و بلاء بخيرها و شرها، بإقبالها و ادبارها، و الإمرة من أشرّ الفتن و أمرّها!:

«وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (7: 168) «وَ نَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ» (21: 35) فمن الحسنات الخير ما يوافق الطبع و يوافره، كما من السيآت الشر ما يخالف الطبع و ينافره، و في كلّ سقوط و نجاح، فالأول من السيآت الشر بوجه آخر مهما وافق الطبع، و الثاني كذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 150 عن ارشاد المفيد عن الفضل بن شاذان عن احمد بن محمد بن أبي نصر عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال: لا يكون ما تمدون اليه أعناقكم حتى تميزوا و تمحصوا و لا يبقى منكم إلا القليل ثم قرء الآية ثم قال: ان من علامات الفرج حدث يكون بين المسجدين و يقتل فلان من ولد فلان خمسة عشر كبشا من العرب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 15

من الحسنات الخير مهما خالف الطبع، و أبلى البلاء هو في الموافق للطبع، و الكل ابتلاء: «فَأَمَّا الْإِنْسانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَ نَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَ أَمَّا إِذا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ. كَلَّا ..»

(89: 15)

«و لو أراد الله جل ثناءه بأنبيائه حيث بعثهم ان يفتح لهم كنوز الذهبان و معادن البلدان و مغارس الجنان، و ان يحشر طير السماء و وحش الأرض معهم لفعل، و لو فعل لسقط البلاء، و بطل الجزاء، و اضمحل الابتلاء، و لما وجب للقائلين اجر المبتلين، و لا لحق المؤمنين ثواب المحسنين، و لا لزمت الأسماء أهاليها على معنى مبين، و لذلك لو أنزل الله من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين، و لو فعل لسقط البلوى عن الناس أجمعين، و لكن الله جل ثناءه جعل رسله اولي قوة في عزائم نياتهم، و ضعفه فيما ترى الأعين من حالاتهم من قناعة تملأ القلوب و العيون غناءه و خصائصه يملأ الأسماع و الأبصار أداءه، و لو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام و عزة لا تضام و ملك يمد نحوه أعناق الرجال و يشد إليه عقد الرحال لكان أهون على الخلق في الاختبار و أبعد لهم في الاستكبار، و لآمنوا عن رغبة قاهرة لهم، أو رهبة مائلة بهم، فكانت النيات مشتركة و الحسنات مقتسمة، و لكن الله أراد أن يكون الإتباع لرسله و التصديق بكتبه و الخشوع لوجهه و الاستكانة لأمره و الاستسلام اليه أمورا خاصة لا يشويها من غيرها شائبة، و كلما كانت البلوى و الاختبار أعظم كانت المثوبة و الجزاء أجزل» «7».

وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (3).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(7) نور الثقلين 4: 150 في الكافي و روى ان امير المؤمنين (عليه السلام) قال في خطبة له: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 16

ليست الفتنة لتختص بكم، بل هي تحلق على كافة المكلفين منذ البداية و إلى يوم الدين: «وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» طول التاريخ الرسالي دونما استثناء مهما اختلفت صور الفتنة «فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ ..» أ تراه علما هو بالطبع بعد جهل؟ تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا! أم ظهورا لمعلومه لمن لا يعلم؟ و صيغته الصالحة «فليعلم الذين صدقوا ..»! و لا يناسب الفصاحة القمة لكتاب البيان ان يعبر عن ذلك بغير تعبيره الفاصح! ام هي علمه الفعلي دون الفاعلي، و هو نفس الأمر الخارجي، فانه من مراتب علمه تعالى؟ و تعبيره الصحيح- إن صح انه من مراتب علمه- فليحققن اللّه صدق الصادقين و كذب الكاذبين! ام هي «فليعلمن» بضم الياء و كسر اللام فيهما من الإعلام‏ «1» حيث الفتنة تعلم المجاهيل بواقع الأمر؟ و هو في نفسه صحيح و لكنه خلاف متواتر القراءة! انها كما هيه بنفس الصيغة المتواترة، و لكنها من العلم فتحا:

العلامة، دون العلم‏ «2» و من آياته انفراد المفعول، و ليس مفعول العلم إلّا جملة تامة، و «الذين صدقوا- كما- الكاذبين» ليست تامة، فقد تعني التأكيد الأكيد للعلامة صدقا في الصادقين و كذبا في الكاذبين، ف «ل» تأكيد اوّل، و نون التأكيد ثان، بهما تتأكد الغاية المقصودة من الفتنة أنها العلامة على الفريقين، خروجا عن المساوات في‏ «أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا» مواصلة بين القول و العمل للصادقين، و مفاصلة للكاذبين، علما لهم و لسائر المجاهيل الذين لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في مجمع البيان‏ قرء علي (عليه السلام) «فليعلمن» بضم الياء و كسر اللام فيهما و هو المروي عن جعفر بن محمد و محمد بن عبد اللّه بن الحسن.

(2) و هكذا نرى في عشر أخرى من الآيات انها تعني العلم و مفاعيلها مفردات كقوله تعالى: و ما جعلنا القبلة التي كنت عليها لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 17

يعلمون صدق القول في دعوى الايمان و كذبه ف «عند تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال»!.

و لأن اللّام هنا هي لام القسم فقد تعني «ليعلمن» تأكيد علمه الصادقين و الكاذبين، إضافة إلى علمه، فذلك تأكيد أكيد لعلمه و علمه مهما دلت وحدة المفعول على أصالة العلم، فانما عناية العلم ضمن العلم تسمح لوحدة المفعول.

و هذه بخلاف الآيات التي تجعل العلم غاية الابتلاء ك‏ «وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ رُسُلَهُ ...» فانه العلم دون العلم ..

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ‏ 4.

هنا لك مهلة ماحلة للذين يعملون السيآت، يحسبونهم بها سابقين على اللّه و على أهل اللّه، غافلين أو متغافلين أنها إمهال من اللّه و إملال بكيد متين: «وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» (7: 183) «وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» (3: 178) و في ان الإملاء هو من الشيطان، يمضيه اللّه بحق الظالمين فيذرهم في طغيانهم يعمهون، حيث‏ «الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلى‏ لَهُمْ» (47: 25) ف‏ «لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ» (8: 59)، كما و ذلك الحسبان الغاوي الخاوي من الشيطان‏ «ساءَ ما يَحْكُمُونَ» «ان يسبقونا» إذ لا فارق لنا في ذلك الميدان حتى يكون سباق فيسبقونا أو نسبقهم، و إنما يصبغهم الشيطان بما سول لهم بهذه العقلية القاحلة، فحسبوا ان يسبقونا، و عامل السيئة لا مفلت و لا سابق، و من يحسب هذا أو ذاك فقد ساء حكمه و فسد تقديره و اختل تصويره، و حلّ تكويره و تكديره. و لأن «أم» منقطعة تعطف إلى محذوف معروف من الحسبانات السيئة، فقد يكون هو نكران اللّه، او

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 18

الإشراك باللّه، ام حسبان جهله عما يعملون، أم هتك حرمته على حضوره، ام الأمن من عقابه بعفو او شفاعة أمّا هيه من حسبانات خاوية، هي التي تسمح لهم ان يعملوا السيآت‏ «أَمْ‏ ... أَنْ يَسْبِقُونا».

فهي- إذا- تشمل كل هؤلاء «الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ» دون اختصاص، مهما اختلفت دركاتها، فاختلفت التهديدات بهم و التنديدات.

و عمل السيآت- ككل- ناتج عن البعد عن اللّه، في أية دركة من دركاته، كما أن لقاء اللّه درجات:

مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ‏ 5.

«لِقاءَ اللَّهِ» و ما أدراك ما «لِقاءَ اللَّهِ»؟ هل هو الاتصال باللّه دون أي حجاب حتى حجاب الذات؟ و لا يتيسر لأحد ممن سوى اللّه حتى أوّل العابدين و أفضل العارفين و كما قال: ما عبدناك حق عبادتك و لا عرفناك حق معرفتك»! أم هو لقاء ثوابه- فقط- و رحمته هنا و في الأخرى‏ «1»؟ و تعبيره الصحيح‏ «ثَوابُ اللَّهِ» ام‏ «لِقاءَ رَبِّهِ» (18: 110) أم‏ «لِقاءِ الْآخِرَةِ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 153 في كتاب التوحيد حديث طويل عن علي (عليه السلام) يقول فيه- و قد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات: و قوله: من كان يرجو لقاء اللّه فإن اجل اللّه لآت، يعني بقوله: من كان يؤمن بانه مبعوث فان وعد اللّه لآت من الثواب و العقاب فاللقاء هاهنا ليس بالرؤية، و اللقاء هو البعث فافهم جميع ما في كتاب اللّه من لقاءه فإنه يعني بذلك البعث».

أقول: انما نفى هنا لقاء الرؤية دون سائر اللقاء، فإثباته لقاء الثواب في الآخرة لا ينافي اثبات سائر اللقاء إلا الرؤية و اضرابها، و انما ذكر لقاء الثواب كمصداق تتقن متيقن مفهوم لكل احد، و الأكثرية الساحقة من آيات لقاء اللّه و لقاء الرب تعني الآخرة بثوابها و عقابها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 19

(7: 147) حتى تعني لقاء ربوبية الجزاء! بل و لقاء الرب ايضا تعمها و سواها من لقاء يرجى لقبيل الايمان: «فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً».

بل و رجاء اللقاء دون يقينه قد يختصه بغير الحياة الآخرة لأنها متيقنة لأهلها حيث: «يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ» (13: 2)، فهو إذا رجاء اللقاء المعرفي و رجاء الثواب في الدارين، و لا سيما في «لقا لله الله»، و ليس في القرآن رجاء اللقاء إلّا للمؤمنين‏ «لِقاءَ اللَّهِ» كما هنا و «لِقاءَ رَبِّهِ» كما في الكهف، ثم‏ «لا يَرْجُونَ لِقاءَنا» (10: 7) للكافرين.

انه‏ «لِقاءَ اللَّهِ» معرفيا بعبودية، و عبوديا بمعرفة، محلقا على كل درجات الزلفي إلى اللّه حسب درجات العبودية و المعرفة.

و «كانَ يَرْجُوا» تضرب إلى أعماق الماضي كما و كيفا، أن أصبح رجاء لقاء اللّه عشيرا له في حياته، و لا يصح رجاء إلّا بتقديم أسباب للحصول على المرجو، و العبودية و المعرفة الإيمانية هما السببان الرئيسيان للقاء اللّه في الآخرة و الأولى، و «أَجَلَ اللَّهِ» هنا هو الوقت المؤجل للقائه عاجلا أم آجلا، كلما ازدادت المعرفة زادت العبودية، و كلما ازدادت العبودية زادت المعرفة، حتى يصبح العبد «أَوَّلُ الْعابِدِينَ» في عبوديته، و متدليا باللّه في معرفته، حيث لا يبقى بينه تعالى و بينه اي حجاب حتى حجاب نفسه إذ يتغافل عنها في تلك الجذبة الربانية، فلا يبقى إلّا حجاب الذات، حينما تفنى حجب الإنيات. فرجاء اللقاء بشروطه الصالحة يخلفه و بقدره و دونما تخلّف‏ «أَجَلَ اللَّهِ» لذلك اللقاء «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» و الراجي المفتاق المشتاق يلقى اجل اللّه أيا كان «و هو» لا سواه «السميع» صوت القال و الحال وصيتهما «العليم» بكل حال و قال و أفعال.

وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ‏ 6

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 20

«وَ مَنْ جاهَدَ» طبعا في سبيل اللّه و في اللّه و إلّا لكانت على نفسه لا لنفسه «فانما» دونما إبقاء «يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ» فانها سعي لصالحه نفسه في الحياتين، و ليسن لصالح ربه ف‏ «إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ» و المجاهدة هي المبالغة في الجهاد فانها مفاعلة بين طرفي النزاع، و ليس جهادا دونما منازع، فهنا نزعات النفس و رغباتها تعرقل المسير، و كما هناك الرغبات و النزعات الإبليسية خارجة النفس، و العقل المتبني الفطرة المتأيد بوحي السماء هو المجاهد الوحيد في ميادين السباق بهؤلاء الرفاق الأقوياء، و حياة المؤمن هي سلسلة معارك الجهاد آفاقيا و انفسيا في سبيل اللّه، دونما فترة و لا فطور، و إلّا لكانت حياة جاهلة قاحلة، مقلوبة في إنسانيتها فضلا عن إسلاميتها.

فقد تجاهد للّه و لا عائدة منها إليك في أمرها إلّا أمرها فتتهاون- إذا- فيها، أو قد يشاركك اللّه في تلك العائدة نصف لك و نصف له فكذلك الأمر و أقوى، و لكن اللّه غني عن العالمين و «مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ» و ما اللّه إلّا دليل الرشاد و موفق العباد في كل جهاد، فلما ذا إذا التهاون في سبيل الجهاد.

و ما سبيل اللّه في جهاد و سواه، إلّا سبيل صالح المجاهد في اللّه، حيث يبلّغه مناه، و يمده إلى مداه، و يهديه هداه، و ما وعد الثواب للمجاهدين إلّا رحمة من اللّه و فضلا دونما استحقاق، فالجهاد بالنفس و النفيس بكل غال و رخيص، يصلح من نفس المجاهد و قلبه، و يرفع من تصوراته و آفاقه، فيستعلي به على الشح، و يستجيش أفضل ما في كيانه و إمكانه من عدّات و عدّات.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ‏ 7.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 21

«وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ» و هم «من جاهد» بصيغته الأخرى السائغة، المفسرة للجهاد و المستفسرة منه، حيث الإيمان جهاد نفسي و عمل الصالحات هو الجهاد الآفاقي، و كيف يحصل أو يتكامل ايمان بلا جهاد، و كيف تتحقق الصالحات دون جهاد.

و هنا اللّه يعد المجاهدين تكفيرا عن سيئاتهم اللّمم و سواها، المتفلتة عنهم في حياة الجهاد، تغافلا أو تساهلا، فيأمنوا بأس السيآت حيث اجتنبوا كبائرها «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً».

و لأن‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» قد تعم هؤلاء و الذين لا يعترفون السيآت حتى اللمم كالمعصومين من السابقين و المقربين، فالتكفير بالنسبة لهم دفع عن السيآت ألّا يرتكبوها، لا رفع لهما بعد ارتكابها، كما الغفر يعم الدفع و الرفع.

ثم للذين آمنوا- ككلّ على قدر ايمانهم- تكفير الدفع كما لهم تكفير الرفع‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

ام ان‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» تعني من سوى المعصومين فإنهم مسلمون للّه، لا فقط انهم مؤمنون، و قد يتأيد ب «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ» (9) فإنهم بطبيعة الحال من فوق المؤمنين من‏ «النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً» فالمؤمنون هنا «مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ‏ ... مِنَ النَّبِيِّينَ ..» و الصالحون هنا دون مقابل هم كل هؤلاء الأربع الذين على صراط مستقيم.

ثم و لا و حسبهم هذا، بل‏ «وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ» جزاء الحسنى بالحسنى، و حتى الحسنات التي ليست بالحسنى، و هي الجزاء بعشرة أمثالها و زيادة «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى‏ وَ زِيادَةٌ» (10: 26) و الحسنى هنا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 22

و الأحسن هناك هما الأحسن و جزاءه لا يتفارقان، ففي اربع- آيتنا منها- الجزاء هو الأحسن نفسه، و في ثنتين الجزاء بالأحسن‏ «1» مما يبين أن الجزاء هو العمل نفسه بما يظهر بملكوته هناك، و انه العمل الأحسن دون السي‏ء إذ كفّر عنهم، و لا الحسن فان أقله عشرة الأمثال، فالجزاء الأحسن جزاء للأحسن و الحسن سواء، فليجاهد المؤمن و يبالغ أن يأتي بالأحسن فالأحسن فانه درجته يوم القيامة، و كلما كان الأحسن اكثر فالجزاء- بطبيعة الحال- احسن، حيث القصد من الأحسن مجموعة الكم و الكيف، فالذي يكون كل اعماله الأحسن دون سي‏ء و لا حسن كأوّل العابدين، فدرجته كذلك أحسن ممن يكون أحسنه اقل في كم أو كيف أو فيهما، و «لا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا». و يا له من فضل عظيم عميم و نعيم مقيم للمجاهدين الذين آمنوا و عملوا الصالحات، تكفيرا عنهم سيئاتهم، و جزاء الحسنى بكل حسناتهم و ليست كلها حسنى، فما أكرمك يا رب، و ما الأمنا يا رب!.

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ‏ 8.

هذه وصية ربانية لصالح الوالدين و الأولاد «حسنا» هنا و «إحسانا» في أخرى، مما يدل انهما واحد، ان تكون حياتك معهما حياة حسنة بإحسان حالا و مالا و مآلا دونما أية إساءة و لا سوء حتى في قلبك فضلا عما يظهر، و لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فمن الأول: لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (9: 121) «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ» (24: 38) «أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا» (46: 16).

و من الثانية: «وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (16: 97) «وَ يَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ» (39: 35).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 23

ترك احسان ألّا تسي‏ء إليهما و لا تحسن حيث الفرض هو الإحسان، و هذه هي الضابطة الشاملة على أية حال، المقتضية لطاعتهما على أية حال، إلّا إذا كانت عصيانا للّه فكلّا، فتركا لطاعتهما فيه مع الحفاظ على المصاحبة الحسنة فيما وراءها، حيث الصلة باللّه و في اللّه هي الصلة القمة الأولى، لا تساويها أو تساميها أية صلة، فلا تناحرها صلة الوالدية فيما تنافرتا، و ليست الصلة الوالدية إلّا بما قرر اللّه في حقلي التكوين و التشريع، فكيف تتقدم على صلة اللّه! فكل صلة تتهاوى بجنب صلة اللّه، إلّا ما تصلك باللّه، و تسرع عجلة سيرك إلى اللّه‏ «1» فانما طاعتهما في المباحات التي لا امر فيها و لا نهي، صارما ام راجحا أم فعل المستحبات و ترك المكروهات، فكما تجب المستحبات و تحرم المكروهات بنذر أو عهد أو قسم، كذلك- و بأحرى- بأمر الوالدين فان طاعتهما فيهما هو من حسن عشرتهما، اللهم إلّا في الموارد الحرجة أو العسرة فلا، فترك المستحبات و فعل المكروهات بأمر الوالدين ليس من واجب الطاعة لهما مهما جازت إلّا إذا حملت تشريعا فمحرمة.

«وَ إِنْ جاهَداكَ» بالغ الجهد في جحد التوحيد الحق بكل حقوله طاعة و عبادة «لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» اشراكا في ايّ من شئون الربوبية، من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). روى الترمذي عند تفسير هذه الآية انها نزلت في سعد بن أبي وقاص و امه حمنة بنت أبي سفيان و كان بارا بامه فقالت له: ما هذا الدين الذي أحدثت، و اللّه لا آكل و لا اشرب حتى ترجع إلى ما كنت عليه أو أموت فتتغير بذلك ابد الدهر يقال: يا قاتل امه، ثم انها مكثت يوما و ليلة لم تأكل و لم تشرب فجاء سعد إليها و قال يا أماه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت ديني، فكلي ان شئت و ان شئت فلا تأكلي فلما أيست منه أكلت و شربت فانزل اللّه هذه الآية .. و في الدر المنثور عن قتادة في الآية قال: أنزلت في سعد بن مالك لما هاجر قالت امه: و اللّه لا يظلني ظل حتى يرجع فانزل اللّه في ذلك ان يحسن إليهما و لا يطيعهما في الشرك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 24

توحيد الذات أو الصفات أو الأفعال، أو الوحي أو العبادة و الطاعة أماهيه من قضايا الربوبية الوحيدة «فَلا تُطِعْهُما» فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، و لما ذا تطيعهما فيها، و منه مبدئكم‏ «إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، «فَلا تُطِعْهُما» في معصيتي و كلها اشراك بي مهما اختلفت دركاتها، ثم و لا تسي‏ء إليهما في عشرتك إياهما إلّا ترك هذه الطاعة و هي في الحق إحسان إليهما ألّا يزرا مع وزرهما وزرا منك، و ليس في طاعتهما بمعصية اللّه أو العمل خلاف حب اللّه حسن، و دائرة الوصية بالوالدين مضيقة ب «حسنا» أ ترى أن اللّه يفرض طاعة أو يسمح ما فيه معصية و يراه حسنا و هو يحمل مثلثا من السوء: سوء بساحة الربوبية، و سوء بنفسه في هذه الطاعة، و سوء بالوالدين حيث تخلف طاعتهما في معصية اللّه مزيدا في وزرهما.

«وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى‏ وَهْنٍ وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ. وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى‏ أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (31: 15).

و لما ذا خصوص‏ «وَ إِنْ جاهَداكَ» في «لا تطعهما»؟ لأنها القمة العالية من الحمل على العصيان، في كل المحاولات الممكنة تحبيبا و تهديدا و ضربا و شتما و أية مجاهدة تحلّق على كافة السلبيات و الإيجابيات في سبيل حملك على‏ «أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» فلتكن مجاهدتك في هذا الميدان ترك طاعتهما كاقل الجهاد، ثم و دعوتهما إلى الحق بالحكمة و الموعظة الحسنة و جدالهما بالتي هي احسن كما هي السنة في الدعوة الصالحة، و أنت أولا و أخيرا عليك كأصل اصيل أن «لا تطعهما» ثم‏ «وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً» و «ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» هي كحجة لترك الطاعة، و هي بصورة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 25

عامة: «لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ»، و هنا بصورة خاصة من المحال ان يحصل علم بشريك للّه تعالى لا فطريا و لا عقليا و لا كونيا و لا نقليا، بل و مربع الأدلة برهان قاطع لا مرد له ان «لا إله إلا هو رب كل شي‏ء» «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» إذا «ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» برهان قاطع على ضلال الإشراك، حيث لا يبرهنه أيّ علم.

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ‏ 9.

«الصالحين» هنا بطبيعة الحال هم الأئمة القمة في الصلاح حتى يلحق بهم كل‏ «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ» فهم‏ «مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً» (4: 69) و «الصالحين» الأولين علّهم كل هؤلاء الأربع، و ذلك حشر في الحياتين لأولئك المؤمنين على درجاتهم مع الصالحين الأولين من السابقين و المقربين‏ «وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً».

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَ وَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ‏ 10.

إن طبيعة الحال لمن يؤمن باللّه شاهرا مجاهرا ان يؤذي في اللّه و في سبيل اللّه حيث الناس في الأكثرية الساحقة هم في الحق نسناس، يعارضون شرعة اللّه في الناس، فالتأذي في اللّه سنة في هذه الأدنى في الأمثل فالأمثل من المؤمنين باللّه، و مما

يروى عن رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سمل): «لقد أوذيت في اللّه و ما يؤذى أحد، و لقد أخفت في اللّه و ما يخاف أحد، و لقد أتت على ثالثة و مالي و لبلال طعام يأكله ذو كبد إلّا ما يوارى إبط بلال‏ «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 142- اخرج احمد و ابن أبي شيبة و عبد بن حميد و الترمذي و صححه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 26

و

«ما أوذي نبي مثل ما أوذيت»

هذا! «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ» و لمّا يؤمن باللّه أو يرتكن الايمان في قلبه أم هو منافق كافر في قلبه باللّه، و إلّا كان حق التعبير «من يؤمن بالله» لا «مَنْ يَقُولُ» حيث القول أعم من الواقع، و لا واقع لهكذا قولة يجعل صاحبها الإيذاء في اللّه كعذاب اللّه، ويكأن اللّه يعذب من آمن به، و فتنة الناس حين لا تزوى عن هؤلاء كما عن المؤمنين حقا، لا يحق ان تنسب إلى اللّه كأنه يعذب من آمن به حيث لا يدفع عنه الأذى، رغم انها في سبيل اللّه من فتن الايمان، و أنحس منه أن يجعل الأذية في اللّه من اللّه ويكأن اللّه هو الذي يدفع هؤلاء النحسين لإيذاء من يقول آمنا باللّه!. فهؤلاء الذين يقولون آمنا باللّه ثم يجعلون فتنة الناس كعذاب اللّه، لم يؤمنوا، أم هم مؤمنون على حرف: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى‏ حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى‏ وَجْهِهِ» (22: 11).

للمؤمن أيا كان، إيذاء في اللّه كما هنا، و إيذاء في سبيل اللّه، فمن اجتاز الإيذاء في اللّه سليما في ايمانه دون قولة جارفة مجازفة كتلك التي يقولها:

«مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ» فقد يجتاز الإيذاء في سبيل اللّه مشكورا محبورا:

«فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أُوذُوا فِي سَبِيلِي وَ قاتَلُوا وَ قُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ» (3: 195).

و التصبر في الإيذاء في اللّه بحاجة ماسة إلى الجهاد في اللّه، حتى يهتدي الى سبل اللّه و الجهاد في سبيل اللّه: «وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و ابن ماجه و ابو يعلى و ابن حبان و ابو نعيم و البيهقي في شعب الايمان و الضياء عن انس قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 27

(29: 69). فما لم يستحكم الإيمان في مرحلته الأولى، لم يهتد المؤمن إلى سبل اللّه، تعرفا إليها و صمودا فيها أمام عراقيلها و التواءاتها و أذياتها.

فمن‏ «أُوذِيَ فِي اللَّهِ» و تصبّر عن حالة مركوسة و قالة منكوسة، و لم يزدد إلّا إيمانا، فهو الذي جاهد في اللّه فيهتدي- إذا- إلى سبل اللّه.

و امّا إذا «جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ» في قال أو حال، فهو المنافق حقا، أو لمّا يدخل الإيمان في قلبه: «قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» (49: 14).

و قد تعني الآية- فقط- المنافقين دون الآخرين، حيث القول‏ «إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ» في النصر قولة فارغة منافقة، و ليست جاهلة من هؤلاء الأعراب، و لمّا يدخل الايمان في قلوبهم، اللّهم إلّا أن يدّعوه بسذاجة زعم أن إسلامهم ايمان، إلّا أنّ جعل فتنة الناس كعذاب اللّه لا يلائم أضعف الإسلام، إلا الاستسلام مصلحيا و هو النفاق!.

فكما عذاب اللّه يتحرز منه، فهؤلاء يتحرزون عن الإيمان حيث يخلّف بزعمهم عذاب اللّه، و هو «فِتْنَةَ النَّاسِ» و حياة التكليف كلها فتنة خيرا أو شرا، و من أصعب الفتن أن يعذب المؤمن في اللّه حيث يتفلت عنه الايمان غير الركين و لا المكين، فضلا عن إسلام النفاق، فالمسلمون هم في حقل الأذية في اللّه درجات، أعلاهم من يزدادون ايمانا، و أدناهم من يرجعون كفارا أو اكفر مما كانوا قبل الإيذاء في اللّه و هو أنزل و دركات الكفر و أنذلها مهما «قالُوا آمَنَّا» و بينهما عوان، و ما انحسها كتلة البتلة و الرياحة و الرعونة، حيث تبغي الجمع بين‏ «قالُوا آمَنَّا» و ألا يؤذى في اللّه، فيعلن كلمة الايمان في الرخاء رجاء الأمن المطلق في ظلها دون نصب و لا تعب في اللّه، يحسبها خفيفة الحمل، هيّنة المؤونة و المسئولية، قد يبقى على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 28

قالته ما أصابه خير، فإن أصابته فتنة انقلب على وجهه، فاختلّت في نفسه القيم و اهتزت العقيدة- إن كانت-! فهؤلاء ليسوا مع المؤمنين إلّا في النصر و الرخاء، دون الحصر و البلاء «وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ» نصر رباني يخصك كأول العابدين و آخر النبيين ليقولن إنا كنا معكم» و هم لم يكونوا معهم في واقع الإيمان، إلّا في قالته القالة الخاوية، و قد تعني المشابهة بين فتنة الناس و عذاب اللّه فيما عنته، أننا تكفينا فتنة الناس عذابا هنا عما في الأخرى، فلا نعذّب- إذا- فيها مهما عصينا، أم قاسوا عذاب اللّه بفتنة الناس، فلا علينا إذ نعصيه إذ لا تصيبا في الأخرى إلا كالذي أصابنا هنا من فتنة الناس!. و اين فتنة الناس من عذاب اللّه في أيّ من هذه الزوايا الخاوية الغاوية! و قد تعني‏ «كَعَذابِ اللَّهِ» كل هذه الثلاث، فهي لدركات ثلاث من النفاق، و لكنما الثالث على هامش الأوّلين لمكان‏ «كَعَذابِ اللَّهِ» دون‏ «عَذابُ اللَّهِ».

«أَ وَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ» و الواو هنا تعطف إلى محذوف معروف ك «ا لم يجعلوا فتنة الناس كعذاب الله، فتركوا الايمان المدعى إلى الكفر، و تركوا ان يكونوا في الله كيلا تصيبهم فتنة الناس التي حسبوها كعذاب الله، أو تركوا طاعة الله إذ حسبوا فتنة الناس هنا كعذاب الله في الأخرى! «أَ وَ لَيْسَ اللَّهُ» إن لم تكن هذه و تلك‏ «بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ» و هذه من الفتن المظهرة لما في الصدور: «فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ»:

وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ‏ 11.

هنا «ليعلمن» كما هناك من العلم العلامة، و الإيذاء في اللّه بفتنة الناس، هو فتنة من اللّه، إذ لا يصده عمن يقول آمنا باللّه، و لا عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 29

المؤمنين باللّه، لتظهر علامة الإيمان صمودا و علامة النفاق خمودا، «ليحق الله الحق بكلماته و يقطع دابر الكافرين» أ ترى الآية مدنية لأن واقع النفاق كان في المدينة، و اما في مكة فايمان صارم حيث الجوّ كان جو الضيق و المحنة دون رجاء فيها لأمن و راحة فلما ذا- إذا- إيمان النفاق فيها؟ و لكن النفاق دركات، منها ألّا يرتكن الايمان في القلب، فيذبل عند الفتنة كما كانت في مكة أشد الفتن للمؤمنين، دون المدينة التي أسست فيها دولة الإسلام.

أو ان الآية تشمل كل دركات النفاق مكية و مدنية أماهيه، إذ لا تختص بمكان أو زمان خاص بل تحلّق على الطول التاريخي و العرض الجغرافي، عرضا شاملا لكل‏ «مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ» سواء الذين قيل لهم: «قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» أو الذين أسلموا كرها و طمعا فلما أوذوا في اللّه جعلوا فتنة الناس كعذاب اللّه بمختلف الوجوه التي أسلفناها، و الدرك الأسفل فيها أن فتنة الناس هي عذاب اللّه، فهو يعذب الذين قالوا آمنا! ثم و لا تقف الفتنة عند حدّ الميز بين الايمان و النفاق، بل و المؤمنون غير المنافقين ايضا يفتنون، لتظهر درجات الايمان و تنبو و تربوا، كما:

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ 12 وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ‏ 13.

حين يئس الذين كفروا من ارتداد فريق من المؤمنين إذ يؤذون في اللّه، احتالوا حيلة أخرى هي دعوى حمل خطاياهم: «اتَّبِعُوا سَبِيلَنا» تركا لسبيل الايمان، و ليس ذلك خطأ، و حتى لو كان خطأ يحمل خطايا عملية يخلفها ترك الايمان‏ «وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ» نفرض على أنفسنا ان نحملها، فأنتم أخفّاء- إذا- عن أثقالكم «و» الحال انهم‏ «ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 30

شَيْ‏ءٍ» حيث لا تزر وازرة وزر اخرى، و حتى إذا صدقوا في وعدهم فلا يؤذن لهم في ذلك الحمل‏ «إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» في وعد الحمل ببعديه: فهم كاذبون في حملهم الموعود ان اسطاعوا، ثم هم كاذبون في امكانية هكذا حمل، فذلك خلاف الواقع في بعدي التصميم حينه و بعد الواقع إذ لن يسمح لهم فيه.

«لنحمل» أمر هم يلزمون به أنفسهم، فهو- إذا- إخبار ضمني أنهم ملتزمون بما لزموا به أنفسهم، و لكنهم كاذبون في التزامهم نفسيا، و من ثم خارجيا حتى لو التزموا، إذ ليس الجزاء بكمه و كيفه يوم الجزاء بأيديهم فكل يحمل خطيئة نفسه، دون زيادة و لا نقيصة، مهما كان للمضلّل ضعف العذاب ثانيه لإضلاله كما الأوّل لضلاله: «وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ» بما ضلوا «وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ» بما أضلوا، و لا ينقص أولئك من أثقالهم شي‏ء.

و ليست الأثقال الثانية هي نفس أثقال المضلّلين، بل هي أثقال تضليلهم إضافة إلى أثقال ضلالهم، و ما اتسع و دام ذلك الضلال بين المضلّلين و الذين يتبعونهم كسنة ضالة، فهناك أثقال ثالثة هي مثل أثقال المضللين بذلك الضلال كلهم‏ «ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ» أبدا، بل‏ «أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ» بما أضلوا: «لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ» (17: 25) ف «من» هنا جنسية و ليست تبعيضية، فهم يحملون مثل أوزارهم جزاء وفاقا، قدر ما كانوا معهم بإضلالهم رفاقا.

و كما

يروى عن رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قوله‏ «أيما داع دعا إلى هدى فاتبع عليه و عمل به فله مثل أجور الذين اتبعوه و لا ينقص أولئك من أجورهم شيئا و أيما داع دعا إلى ضلالة فاتبع عليها و عمل بها فعليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 31

مثل أوزار الذين اتبعوه و لا ينقص ذلك من أوزارهم شي‏ء» «1».

«وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ» من شركاء للّه، و أنه ما أنزل اللّه من شي‏ء، و لا حياة بعد الموت، و إن كانت فلنا أن نحمل خطايا المضللين، كأنّهم خوّل إليهم أمر الجزاء يوم الجزاء.

[سورة العنكبوت (29): الآيات 14 الى 27]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى‏ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ (14) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (15) وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (16) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (17) وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (18)

أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (22) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ لِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (23)

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (24) وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَ مَأْواكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (25) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى‏ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (26) وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (27)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 143- اخرج عبد بن حمد و ابن المنذر عن الحسن ان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ... و

فيه اخرج احمد عن حذيفة قال‏ سأل رجل على عهد رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فامسك القوم، ثم ان رجلا أعطاه فاعطى القوم فقال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) من سن خيرا فاستن به كان له اجره و من أجور من تبعهم غير منتقص من أجورهم شيئا و من سن شرا فاستن به كان عليه وزره و من أوزار من تبعه غير منتقص من أوزارهم شيئا ..

أقول و هذا المعنى متواترا عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و عن عترته المعصومين عليهم السلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 33

هنا عرض لنماذج من الفتن التي اعترضت الدعاة الرساليين من لدن نوح و إلى خاتم النبيين صلوات اللّه عليهم أجمعين، و ليعلم الذين قالوا آمنا ان ليس الايمان رخيصا دونما فتنة في سبيله، و ليتذكر الفريقان مصارع الغابرين و العاقبة الحسنى للمتقين.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى‏ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ‏ 14.

«وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى‏ قَوْمِهِ» و طبعا «قومه» في هذه الرسالة العالمية هم العالمون أجمعون، كما في غيره من اولي العزم الذين دارت عليهم الرحى، فليس قومه- فقط- مواطنوه الخصوص: «فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً» و هو اللبث الرسالي، إذ «فلبث» بعد «أرسلنا» «1» فليس- إذا- لبثه في كل حياته و علها آلاف من السنين خلافا للتوراة القائلة انها سنّي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 154 في الاحتجاج للطبرسي عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) حديث طويل في مكالمة بينه و بين اليهود و فيه قال لهم رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) لقد اقام نوح في قومه و دعاهم الف سنة إلا خمسين عاما ثم وصفهم اللّه تعالى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 34

عمره ككل! و لا نحتمل أن السنة هنا أقل مما نعرفها حيث النص يمانع غيرها، و «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ». تجعل السنة أثني عشر شهرا على طول الخط دونما استثناء حتى يعني من السنة غيرها لوقت ما.

و ليكن ذلك العمر الطائل نبراسا ينير الدرب على هؤلاء الذين يتشككون و يشكّكون في عمر صاحب الأمر عجل اللّه تعالى فرجه الشريف.

و إذا كان ذلك العمر الطويل لذلك الايمان القليل: «وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» فبأحرى لصاحب الأمر عمر أطول ليملأ الله به الأرض قسطا و عدلا بعد ما ملئت ظلما و جورا»: و بيمنه رزق الورى و بوجوده ثبتت الأرض و السماء! و قد يعني عرض سنّي الدعوة لنوح (عليه السلام) تسلية لخاطر الرسول محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ألّا يضيق صدره بتعنّد قومه و تعنّتهم ضد الدعوة، و نموذجا من طول العمر يفتح الطريق لتقبّل طائل العمر لصاحب الأمر، إذ لم يذكر نبي في القرآن بسني رسالته إلا نوح.

و لقد عرضت قصص نوح (عليه السلام) في معارض ثلاث سورة من القرآن، مختصرة كما هنا و في غيرها، و مفصلة كما في أخرى، و لم تأت سنّي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فقللهم فقال: و ما آمن معه إلّا قليل- و لقد تبعني في سنّي القليلة و عمري اليسير ما لم يتبع نوحا في طول عمره و كبر سنه،

و

فيه عن كتاب كمال الدين و تمام النعمة عن الباقر (عليه السلام): فمكث نوح الف سنة الا خمسين عاما لم يشاركه في نبوته احد،

و

فيه عن عيون الأخبار في باب ما جاء عن الرضا (عليه السلام) من خبر الشامي و ما سأل عنه امير المؤمنين (عليه السلام) في جامع الكوفة- حديث طويل و فيه: و سأله عن اسم نوح ما كان؟ فقال: اسمه سكن و انما سمي نوحا لأنه ناح على قومه الف سنة إلا خمسين عاما.

(16) و هي الأعراف- يونس- هود- الأنبياء- المؤمنون- الشعراء- العنكبوت- الصافات- الذاريات- القمر- التحريم- الحاقة- نوح.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 35

رسالته إلّا هنا.

و لماذا «خَمْسِينَ عاماً» استثناء عن «ألف سنة» و هما واحد؟ علّه رعاية لعدم التكرار لفظيا، و التوافق معنويا، قضية الفصاحة القمة القرآنية، كما و في الاستثناء حصر يحدّد سنّي الرسالة دون احتمال نقيصة و لا زيادة، ثم هذه الصيغة أجمل من «تسعمأة و خمسين سنة» لفظيا كما هي أكمل منها معنويا.

و لقد كان عاقبة امر قومه اللّد الكافرين المتعنتين‏ «فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ» بطوفان الظلم، فاخذهم- إذا- طوفان بطوفان جزاء وفاقا.

فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ‏ 15.

«أَصْحابَ السَّفِينَةِ» هم المؤمنون القلة الذين آمنوا معه بين أقارب نسبيا و أغارب، و كيف‏ «جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ»؟

انها بقصتها المقصوصة في كتابات الوحي و هذا القرآن العظيم، آية للعالمين على مدار الزمن الرسالي منذ نوح الى خاتم النبيين و الى يوم الدين، و علّها كذلك ببعض انقاضها الباقية، المرقوم عليها اسماء الخمسة الطاهرة المحمدية كما فصلناها في «الحاقة» آية حسية مبصرة للعالمين‏ «1».

فضمير التأنيث راجع إلى قصة السفينة و إليها نفسها دونما اختصاص بواحدة دون الأخرى، و مما يدلنا على آيتها الحسية «وَ لَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» (54: 15) و «لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ» (69: 12) فلا يصغى إلى قبلة القائل من السفارة السوكيتية- بعد ما نشرت المجلات‏ «2» هذه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ج 29 ص 90- 94 من الفرقان، و في الدر المنثور 6: 360 عن قتادة في الآية قال: عبرة و آية أبقاها اللّه حتى نظرت إليها هذه الأمة و كم من سفينة غير سفينة نوح صارت رمما.

(2) نشرته المجلة الروسية الشهرية الصادرة في موسكو تشرين الثاني 1953، و مجلة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 36

الآية الإلهية- أنها لا أصل لها، إخفاء للحق الصادر عنهم أنفسهم، و ما ذا بعد الحق إلّا الضلال!.

وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ‏ 16.

«إذ قال» تحدّد قومه المخاطبين هنا بقومهم الحالي الحضور عند قوله، و لأن القالة هذه هي قالة الرسالة الابراهيمية، فقومه- إذا- هم قومه الرسالي، فعلى حملة شرعته حملها الى كافة المكلفين عرض المكان و طول الزمان لهذه الرسالة السامية، و كما هي طبيعة الحال في كل رسالة عالمية لمن دارت عليهم الرحى من اولي العزم من الرسل.

و هذه القالة الإبراهيمية هي القالة الرسالية لكافة المرسلين، و هي الأمر بعبادة اللّه وحده و تقواه وحده «ذلكم» اللّه «خير لكم» ممن سواه في عبادته و تقواه‏ «إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» و تعرفون الحق عن الباطل، و «تعلمون» ان اللّه هو الحق المبين، فمن يعلم انه اللّه كيف ينحو الى سواه؟ و اين هنا «وحده» و لا حصر تخص به التقوى و العبودية؟ علّه لأنهم ما كانوا يعبدون اللّه حتى مع شركائهم زعما منهم انه لا يعبد إلّا بشفعاء عنده، فإذا صحت عبادته دون واسطة فقد بطلت عبادة من سواه، معه أولا معه، حيث الفرع ساقط بوجود الأصل!

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

«ويكلي ميرر» الأسبوعية اللندنية العدد الصادر 28 كانون الأول 1953، و مجلة «أستار» اللندنية كانون الثاني 1954 و جريدة «سنن لايت» الصادرة في مانجستر 23 كانون الثاني 1954 و جريدة «ويكلي ميرر» اللندنية في 1 شباط 1954 و جريدة «الهدى» القاهرية في 30 مارس 1953، و من مصادره كتاب إيليا من منشورات دار المعارف الاسلامية بلاهور برقم 42 باللغة الأردية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 37

أم لأنهم ضروب عدة، منهم هؤلاء الذين يوحدون العبادة لما سواه، فيؤمرون بتحويل عبادتهم الى اللّه توحيدا لعبادة اللّه، و منهم من يعبدون مع اللّه سواه، و ليست هذه عبادة لائقة للّه، فليعبدوه كما تحق و ليست إلّا توحيد العبودية له دون سواه! ام ان‏ «اعْبُدُوا اللَّهَ» اثبات لعبادته عقائدية و عملية، ثم «و اتقوه» نفي لعبادة غيره عملية أو عقائدية، فمن يعبد مع اللّه سواه لم يتق اللّه، و تقوى اللّه تحلّق على كل سلبية تقتضيها عبادة اللّه، كما أن‏ «اعْبُدُوا اللَّهَ» محلّقة على كل الإيجابيات في عبادة اللّه، و الايجابية القمة فيها أن يوحّد في عبادته، كما السلبية القمة ألّا يشرك به سواه، إذا فهي صيغة اخرى عن‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» في قالب الأمر و النهي بالترغيب و الترهيب! ثم الآية التالية تتكفل صراحا تلك السلبية الملمحة من «و اتقوه» بصورة مبرهنة بينة:

إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ‏ 17.

«انما» هنا تحصر عبادتهم في «أوثانا» و هي تماثيل خشبية أم حجرية أماهيه من جمادات، مما يبين انهم كانوا- فقط- عبدة الأوثان و هي أنذل العبادات و ارذلها بين كل ما يعبد من دون اللّه، ان يعدلوا بها عن عبادة اللّه.

و ليس فحسب ان تعبدوها بل‏ «وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً» خلقا لما تنحتون، ثم أنتم تعبدون ما تخلقون، و إفكا فيها انها شفعائهم عند اللّه، ما نعبدهم إلّا ليقربونا إلى اللّه زلفى، و أمثالها من مختلفات الزور و الغرور التي يخلقونها فيما يعبدون، و ما ذا يملكون لكم حتى تعبدوهم؟ «إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً» و أصناما أم حيوانا و طواغيت ام أيا كان حتى النبيين و الملائكة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 38

المقربين، و الجامع لهم انهم‏ «مِنْ دُونِ اللَّهِ» و هم كلهم‏ «لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً» بل و لأنفسهم‏ «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ» أيا كان «و اعبدوه» لأنه اللّه الخالق الرازق «و اشكروه» بما يرزق، فانكم «إليه» لا إلى سواه «ترجعون»، و إن الرزق هو مشغلة النفوس في الأكثرية المطلقة، تعبد من تراه رازقا، فكيف أنتم تبغون الرزق من دون اللّه و تتركون الرازق و هو اللّه، فهو المبدء و هو المنتهى و هو الرازق لكم فيهما و بينهما «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ» مما كسبت أيديكم أمّا لم تكسب، و «عند» هنا دون «من» علّها اشارة الى معدنية الرزق ولد نيته عنده، مهما كانت له أسباب منها يرزق المرزوقون، سواء أ كانت اختيارية أم سواها، فليطلب المرتزق الرزق من أي سبب «عند اللّه» لا عند سواه.

أمن العقل أن يترك الرازق و يبغى الوسيط أن يطلبه من اللّه، فتعبدونه حتى يطلب؟ و لا وسيط في طلب الرزق، و لا يملكون هؤلاء طلبا له من اللّه، و لا أن يعبدوا من دون اللّه، و حتى لو ملكوا طلبا من اللّه فعبادتكم إياهم دون اللّه يقطع عنكم رزق اللّه و شفاعتهم- المزعومة- عند اللّه‏ «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»- و هكذا نرى كيف يفنّد أوثانهم في كل زوايا الربوبية، فذاتية أنها «أوثان» لا تعقل، و صفاتية أنها لا تملك لكم من اللّه شيئا إلّا أنكم «تخلقون» لها «إفكا» و أفعالية أن‏ «لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً» أيا كان، و العبادة قد تعني كمال الذات، أم كمال الصفات، أم كمال الأفعال، و هي مسلوبة الكمالات، إذا «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ» كله، فما احمقكم إذ تنحون نحو الفقير اللّاشي‏ء و تتركون رب كل شي‏ء؟! و هنا ندرس ان طلب الرزق عند غير اللّه كعبادة غير اللّه إشراك باللّه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 39

و إنما علينا ان نتوسل بالأسباب المسموحة لنا في طلب الرزق عند اللّه، متّكلين في ذلك على اللّه دون سواه.

وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ‏ 18.

أ ترى‏ «وَ إِنْ تُكَذِّبُوا» هي من تتمة الحجة الإبراهيمية؟ و لم تسبقه أمم إلّا أمة نوح! أم هي الحجة القرآنية دون نقل، تلحيقا للحجة الإبراهيمة للمخاطبين بالقرآن، كما و تؤيدها «أَ وَ لَمْ يَرَوْا ..» بصيغة الغائب؟.

الجمع هو الأرجح، و أمم قبل ابراهيم تشمل أمة نوح و من قبله من المرسلين كإدريس و آدم و شيث، كما و ان امة نوح في قرونه العشرة قرون عشرة قد يعبر عنهم بأمم.

«وَ إِنْ تُكَذِّبُوا» قالتي الحقة عن اللّه و ما عند اللّه فلستم أنتم بدء من المكذبين‏ «فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ» دون سباق و شطارة لكم بينهم‏ «وَ ما عَلَى الرَّسُولِ» تجاهكم «إلا البلاغ» عن اللّه «المبين» لما أرسل اللّه و لقد بلغت و أبنت رسالة صادقة من اللّه و «المبين» في مواصفة «البلاغ» هي مما تبين أن البلاغ الرسالي لا خفاء فيه و لا إجمال يعتريه، و تأخير البيان عن وقت الحاجة بلاغ غير مبين، فلا يصدّق على الوحي الرسالي إطلاقا.

هذه خطوات تربوية يخطو بها الداعية إلى هؤلاء الألداء ضد الدعوة، تدخل إلى قلوبهم من مداخلها، بإيقاعات قوية على أوتارها، و دقّات عميقة في أوطارها، كنماذج خلّابة غلّابة يجب ان يتملاها أصحاب الدعوات الرسالية لينسجوا على منوالها في كل أحوالها في مخاطبة النفوس و إزالة النحوس.

أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ 19

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 40

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ 20.

الواو هنا تعطف الى محذوف معروف من الآيات الأنفسية الدالة على وجود اللّه و توحيده في كل ربوبيته، و انكم اليه ترجعون، فإذا لم يروا أنفسية الآيات حيث الأبصار كليلة و النفوس عليلة «أَ وَ لَمْ يَرَوْا ..» الى آفاقية الآيات: كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» على طول الخط هنا في الأولى، و «كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ» أوّل مرة «ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ» مرة اخرى في الأخرى‏ «إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» بدأ و إعادة «قدير».

و علّ الرؤية الأولى هي- فقط- الرؤية البصرية، ام و البصرية الناتجة عن النظر كما في الثانية: «فانظروا» و هي على أية حال رؤية مستمرة على مدار الحياة العقلية لكل عاقل راء راع في رؤيته تكشّف الحق، و «كيف» لا تعني هنا و في «فانظروا» حق الكيفية فانه خاص بالخالق علما و قدرة في «كيف يبدئ و كيف بدأ»؟ و انما تعني ظاهرا من البدء و الإبداء و الإعادة، الباهر لكلّ راء و ناظر، فقد يبدي اللّه خلق كل شي‏ء من كل شي‏ء- بعد خلق المادة الأم- فان خلقها بدء صيغته «بدء» كما الثانية، دون «يبدئ» كما هنا، الدالة على الاستمرار، و من باب الإفعال، فكل ما يخلق من شي‏ء ثم يعاد إلى شيئه الأوّل كالماء و البخار، و التراب و الأشجار و الحيوان و الإنسان، كل ذلك داخلة في نطاق‏ «يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» على مدار الخلق بعد المادة الأولى، و الإبداء هو إظهار البدء، كما الإعادة هي إظهار العود، عودا إلى بدء، فالمادة واحدة و إنما الاختلاف في الصورة الماهوية و الظاهرية.

ثم «ثم يعيده» كما تعني الإعادة المستمرة كذلك تعني الإعادة الأخيرة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 41

يوم القيامة و هي أهون عليه، ثم «كيف بدأ» دون «أبدء» مختلفة عن «يبدئ» مضيا و تعدية، تدلنا على الفرق الواضح بينهما معنويا و واقعيا، مهما اشتركا في الخلق و الإعادة.

ف «كيف يبدئ» نظرة أولى تنتج رؤية أولى، مما يطمئن «انه هو يبدئ و يعيد» (85: 13) و «كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» (7: 29) «إن ذلك» الخلق إبداء و إعادة «عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» من هيّنه و أهونه، ثم‏ «كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ» تخط عن هذه المرحلة المستمرة إلى البداية الأولى في خلق المادة الأولية، كما و «اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ» ترمي إلى النهاية، و هما أهم من‏ «يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» بين الأمرين، فلذلك‏ «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا ...»، ف «بدء الخلق» هو أهم من‏ «يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ» و كل هذه الثلاث من خلق اللّه، و هي على الترتيب في حدود ذواتها صعب و هيّن و أهون، مهما كانت في قدرة اللّه على سواء، و لكن يستدل بالأوّل الصعب و بالثاني الهين على الثالث الأهون، و مهما كان الأولان قضية الفضل، فالثالث هو قضية العدل، فهو أولى من الأولين بأولويتين، و هنا لك الإعادة بعد الإبداء تشمل كل مراحل الخلق و التحوير أولا و أخيرا، و الإعادة المعاد- و هي إعادة الصورة بمثلها و المادة هي هيه بعينها- هي من ضمن «ثم يعيده» و كخلفيّة لكافة الإعادات، فما إعادة الإنسان إنسانا في الأخرى إلّا كإعادته ترابا كما كان، و إذا كانت هذه في الأولى مصلحية الحياة الدنيا، فالإعادة الأولى في الأخرى أصلح و أولى: «وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى‏ فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ» (56: 62)، و اما «كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ» فقد تخص الخلق الأوّل لا من شي‏ء، أم و خلق الإنسان و لم يكن شيئا مذكورا «ثم اللّه» الذي بدء الخلق‏ «يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ» ككل في كلّ ما بدء، و كخاصة الإنسان و سائر المكلفين، ف‏ «ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ» (31: 28) «وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 42

الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» (30: 27) «وَ أَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى‏» (53: 47)، و ذلك الإنشاء إنما هو إنشاء الصور، و المواد هي كما هيه، إنشاء للصورة الإنسانية مثل الأول لا عينه، و إنشاء رجع الروح الى البدن في صورته المنشأة، و إنشاء لليوم الآخر مكانا و زمانا آخرين يختلفان عن الأوّل.

كل ذلك ل‏ «إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» سواء أ كان كائنا فيقدر على تحويله أو إعدامه، ام قبل كونه و هو ممكن التكوين و صالحه كالمادة الأوّلية، ام غير صالح التكوين فلا يكوّنه لأنه خلاف الحكمة، و اما الممتنع التكوين ذاتيا فليس شيئا حتى يبحث عن تعلق القدرة به و عدمه، فانه اللّاشي‏ء المطلق، كما أن اللّه هو الشي‏ء الطلق، و الأشياء الممكنة التكوين جوهريا ام ماهويا هي النسبية في الشيئية، فقد تكون شيئا لأنها كائنة بما كونها، و اخرى لأنها قابلة التكوين كالمادة الأولى‏ «1»، و هنا «فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ» عطف للنظر العقلي الى بدء الخلق و هو أصعب من الإعادة، و السير في الأرض، و هي هنا أرض التكوين بمختلف الأبعاد الفيزيائية و الكيماوية، ينتج أن الكون له بداية، و لا بد للبادئ كون خلاف كون المبدء، لا والد له و لا علة غير إرادية أم محصورة، بل هو خالق خلق الشي‏ء الذي كل الأشياء منه، لا من شي‏ء، لا من شي‏ء و لا من لا شي‏ء، أجل و إن السير في الأرض هنا سير فطري و عقلي و علمي و حسي، يفتح العين و القلب على كيان الكون، لفتة عميقة إلى حقيقة أنيقة دقيقة حقيقية للالتفات.

صحيح أن جل المخاطبين بهذا القرآن أو كلهم- سوى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و أهليه المعصومين عليهم السلام- لم يكونوا ليعرفوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفصيل البحث عن القدرة مذكور في سورة الملك ج 29 من الفرقان على ضوء آية القدرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 43

هكذا «كيف بدء الخلق» و لكن الذي يتمشى مع الدعوة القرآنية ككلّ، هو انه توجيه لكافة المكلفين منذ نزول القرآن إلى يوم الدين، كلّا على قدره، حيث السير في الأرض آفاقيا و أنفسيا، مما يبرهن‏ «كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ»، و «إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ».

يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ‏ 21.

له المشية العادلة «يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ» و المشية الفاضلة «وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ» و إليه لا إلى سواه «تقلبون» عن هذه الحياة الدنيا إلى الأخرى، لا فقط قلبا لحياة الى حياة، بل و قلبا عن ظاهرها إلى باطنها، و عن اختيارها إلى اضطرارها، و عن أعمالها إلى نتائجها، و عن كل ما تتطلبه الأولى، إلى طلبات الأخرى «و لله الآخرة و الأولى»- «وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ» (10: 30).

وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ 22.

«إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ» شئتم أم أبيتم إذ أنتم لا تغلبون‏ «وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ» ربّكم، لا في الأولى ألّا تقلبوا، و لا في الأخرى ألّا تعذبوا، فالأرض و السماء صيغة أخرى عن الكون كله هنا و هناك، فلا تعجزون اللّه تفلتا عن ملكه: «يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ» (55: 33) و لا تعنّتا عن ملكته و إرادته: «وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ» يلي أموركم هنا و هناك‏ «وَ لا نَصِيرٍ» ينصركم عن بأس اللّه.

وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ لِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ‏ 23.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 44

كفرا بآيات اللّه آفاقية و أنفسية، الدالة على ربوبيته الوحيدة غير الوهيدة و لقاء لثواب اللّه «أولئك» البعيدون عن منافذ المعرفة الربانية «يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي» في الدنيا و الآخرة، فالمؤمن بآيات اللّه و لقاءه لا ييأس من رحمة اللّه‏ «وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» هو أبد الخلود في الجحيم.

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ‏ 24.

«فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ» بعد هذه الحجج البالغة «إلا» جواب كل أحمق نكد: «أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ» بأية قتلة «أو حرقوه» و هي شر قتلة، إذ حرق أكبادهم حين كسر أصنامهم، إذا فحرقة بحرقة، و لكن‏ «فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ» في ذلك المسرح الخطير قائلا: «يا نارُ كُونِي بَرْداً وَ سَلاماً عَلى‏ إِبْراهِيمَ» (21: 69).

هنا «اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ» و في أخرى‏ «قالُوا حَرِّقُوهُ» (21: 68) و علّ الجمع انهم عزموا في البداية على قتلة، ثم على إحراقه لأنه أشد و أنكى، أم كانوا مفترقين بين قتله و حرقه، فتغلبت الفرقة الأخرى، و على أية حال عزموا على إحراقه فألقوه في الجحيم.

«إِنَّ فِي ذلِكَ» الحجاج، و خلفيّة اللجاج «لآيات» ربانية «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» آية لكون الرب، و آية لكيان الربوبية، و آية للرسالة الصادقة، و آية للعاقبة الصادقة، آيات مع بعض و تلو بعض‏ «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» باللّه و بآياته‏ «وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً».

وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَ مَأْواكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ‏ 25.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 45

«و قال» هنا بعد «فَأَنْجاهُ اللَّهُ» تلمح انها قالته لهم بعد نجاته:

«إنما» ليس إلّا «اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً» لا لأنها آلهة من دون اللّه، و لا أنها شفعاءكم عند اللّه، و لا أنها تنفعكم إذ تعبدون، أو تضركم إذ لا تعبدون، بل‏ «مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا» و هي منصوبة مفعولا لها، أم و بنزع الخافض بتقدير لام التعليل، إذا «مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ» سبب و غاية مقصودة في اتخاذ الأوثان.

ثم «بنيكم» قد تعني كل بين في هذا البين: بينكم و الأوثان، و بينكم و آباءكم الأقدمين، بينكم و رءوس الإشراك، و بينكم التابعين، حيث تودون الأوثان الذهبية و الفضية أماهيه من الجواهر الثمينة و سواها، و تودون آباءكم فتقلدونهم في ذلك الاتخاذ، و تودون زعماءكم فتتبعونهم فيه، و تودون بعضكم بعضا و أوثانكم هي صلة المودة و الوحدة، و كل ذلك «مودة الحياة الدنيا» فلا اعتقاد هنا و لا اقتناع، و إنما مجاملة و معاملة دنيوية، بسبب المودة فيها أم لغاية استبقائها أو حصولها، و هذه سنة بئيسة في الجماعات التي لا تأخذ الطقوس العبادية مأخذ الجد العقيدي، و إنما هي مصلحية الحفاظ على صالح الحياة الدنيا دون ان تملك وراءها حقا صالحا للإتباع.

و لأنها «مودة الحياة الدنيا» و خلتها «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» (43: 67)- «ثم» بعد مضي الحياة الدنيا «يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً»، فالآلهة تكفر بعبادتهم: «كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا» (19: 82) «وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ» (35: 14).

و المتبوعون: «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ» (2: 166).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 46

و كلّ يلعن الآخر و هم زملاء في الإشراك‏ «كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها» (7: 38).

ثم و «مَأْواكُمُ النَّارُ» عابدين و معبودين، آباء و أبناء، أتباعا و متبوعين، و زملاء في الإشراك، و ذلك ثالوث العذاب: 1 يكفر بعضكم ببعض و يلعن، 2 و ان مأواكم النار، و هي مجمع كل الأودّاء في الشرك! 3 «وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ» مما اتخذتم أوثانا من دون اللّه و سواها، رغم ما جمعتم من جمعكم في ذلك الإشراك‏ «مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ».

فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى‏ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ‏ 26.

«آمن له» ليست لتعني ما تعنيه «آمن به- آمن معه- آمنه» فكلّ من هذه الأربع تعني ما تخصه من معنى حسب نوعية التعدية كما هي قضية الفصاحة.

ف «آمن به» هي كأصل الإيمان هو الإيمان باللّه، و كوسيط هي الإيمان برسول اللّه، من أمته ككل امة، و من رسل برسول كمحمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ» (3: 81) فليس يؤمن رسول برسول حيث الرسالة هي بنفسها ايمان باللّه دون وسيط، اللهم إلّا تجاه محمد و هو رسول الرسل، و «آمنه» جعله في امن هو خاص باللّه و هو «الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ ..» و هو مجازيا ان تؤمن خائفا عما يخاف، لا أن تجعله في أمتك كما اللّه.

و «آمن معه» تعني معية الايمان باللّه كما الإسلام معه‏ «وَ أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» (27: 44)- «وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ» (11: 40).

و «آمن له» هو ايمان باللّه لرسول يدعو إلى اللّه، ايمانا لصالح الموكب الرسالي أن يصبح من أعواد الرسالة و أعضاد الرسول، بعد ما كان مؤمنا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 47

باللّه، و هكذا كان لوط (عليه السلام) مؤمنا باللّه، و بعد أن تعرّف إلى الرسالة القمة لإبراهيم الخليل آمن له احتسابا لنفسه بإيمانه السابق من ذلك الموكب الرسالي السامي، كما «فَما آمَنَ لِمُوسى‏ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى‏ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ» (10: 83) بعد ما ربطوا ايمانهم هذا بأن يرووا اللّه جهرة: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ. ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (3: 56).

فقد كانوا مؤمنين باللّه غير مؤمنين لرسول اللّه موسى، و لا مصدقين في الطور ان اللّه هو الذي يكلمه حتى يروه جهرة يكلمه فحصل ما حصل.

و هذه الذرية هي المؤمنة من قبل باللّه، و هنا آمنوا لموسى أن انضموا إلى موكبه الرسالي، و هنا تنحل المشكلة العضال في ايمان لوط، أن كيف أرسل مع إبراهيم و كان مشركا من ذي قبل؟ فانما أرسل معه بعد ما آمن معه و كان مؤمنا باللّه! «و قال» علّه لوط «إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى‏ رَبِّي» مهاجرك، أم إنه ابراهيم نفسه كما في أخرى: «إِنِّي ذاهِبٌ إِلى‏ رَبِّي سَيَهْدِينِ» (37: 99) و لأن كل رسول مهاجر إلى ربه في رسالته بل و كل مؤمن، فقد تعني «فقال» لوطا و ابراهيم، و لكنه مهاجر مع ابراهيم كما آمن معه، مهاجرة بمعيته كرسالته معه دونما انفصالية في ذلك المثلث البارع، ايمانا و رسالة و مهاجرة إلى ربه في سبيل تحقيق الإيمان الرسالي و الرسالة الإيمانية، و على‏

حد المروي عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) «سيهاجر خيار أهل الأرض هجرة بعد هجرة إلى مهاجر إبراهيم عليه السلام» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 144- اخرج ابن عساكر عن ابن عمران النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 48

إن المهاجرة الإبراهيمية ما كانت فحسب عن وطنه إلى غيره، بل انها مهاجرة عمن سوى اللّه بكل كيانه، و منها مهاجرة قومه بعد أن لم يبق له رجاء ان يفيئوا إلى الهدى على أية حال، و لقد عوضه اللّه عن هذه المهاجرة الرسالية، ذرية تمضي فيها رسالات اللّه منذ إسماعيل و إسحاق و يعقوب و إلى كل الرسل الإسرائيليين و خاتم المرسلين، و هنا المذكورون هم الأوّلون في آيات عدة ثم الرسول محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): «اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ ...» (45):

وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ‏ 27.

و هبة ربانية منقطعة النظير «وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ» و من المذكورين هنا صراحا «إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ» و بأحرى إسماعيل جد الرسول محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم و هو بكر ذريته كما هو صراح آيات اخرى، «وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا» في نصرة رسالية مستمرة فيه و في ذريته الرسل‏ «وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» السابقين و المقربين منذ آدم الى خاتم النبيين صلوات اللّه عليهم أجمعين.

[سورة العنكبوت (29): الآيات 28 الى 40]

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (28) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (29) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (30) وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى‏ قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (31) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (32)

وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِي‏ءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (33) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى‏ أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (34) وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35) وَ إِلى‏ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (37)

وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38) وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى‏ بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ما كانُوا سابِقِينَ (39) فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 50

وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ‏ 28.

لقد كانت فاحشة اللواط في قومه لحدّ تطلبت النهي و التنديد في بازغ الرسالة قبل النهي عن الإشراك باللّه، و كما نراه في كل الآيات التي تذكر رسالة لوط (عليه السلام).

و «الفاحشة» هي كل معصية متجاوزة حدها كما أو كيفا أو فيهما، تجاوزا حد العصيان ام الى غير العاصي ام فيهما، و اللواط بينهم كان فاحشة ككلّ، إذ أصبح سنة فيهم مستمرة متداولة، و «ما سبقكم» ليست في أصل اللواط، بل في السباق فيه و الهرعة الجماهيرية إليه، و «أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ» تعني عالم الإنس و الجن و سواهما من المكلفين، لا كأفراد، بل جماعات و كتلات، فاحشة منقطعة النظير هكذا بين العالمين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 51

أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ‏ 29.

إتيان الرجال هنا معروف أنه اللواط، فأمّا «وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ» الواقعة بين إتيان الرجال و إتيان المنكر الذي يشمله و سواه، هذا قد يعني كل سبيل مأمور بسلوكه و منها سبيل تشكيل العائلة، فإتيان الرجال أحيانا قطع أحياني لهذه السبيل، و أما إتيانهم كعادة مستمرة منحصرة في شهوة الجنس، فهو قطع باتّ لسبيل الإيلاد، فقد كان فاحشة متجاوزة إلى هذه السبيل، قاطعة لها عن بكرتها، مما يضخّم بعد الفاحشة لأبعد الحدود، ثم و «تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ» و منه منكر اللواط يجعله في ثالوث منحوس ما أنحسه:

لواط يقطع به سبيل الإيلاد و يؤتى به في النادي المجتمع.

ثم من السبيل هي سبيل المارة قطع السلب للأموال و الأعراض، و قطع الاستجلاب للفاحشة، كما من المنكر كل المنكرات القرينة لهذه الفاحشة المعلنة الجماهيرية من رقص و موسيقا و ميسر و خمر و اضرابها من منكر.

فالزنا على فحشاءها لا تقطع السبيل كأصل قاطع، إذ قد يجتمع مع الإيلاد السفاح الإيلاد من النكاح، أم و إذا اختص بالسفاح فليس قطعا إلا لسبيل الحل من الإيلاد دون قطع قاحل يجتثّ النسل عن بكرته.

و لكن تعوّد اللواط يقطع سبيل الإيلاد، و سبيل تأسيس العائلة عن بكرته، هدرا لنطف الرجال دون اي انتاج، إذا فهو أفحش من الزنا، كما و حدّه أحدّ منها، و قد أمطرت قوم لوط بحجارة من سجيل: «قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى‏ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ. لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ» (51: 33).

و اللواط تخلّف قاحل عن الفطرة، فقد تفسد الفطرة بتجاوز حد الاعتدال مع المرأة فهي فاحشة داخلة في نطاق الفطرة مهما تخلفت فيها عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 52

الشرعة، و أما اللواط فهو انخلاع عن شرعة الفطرة و شرعة الدين معا، و فساد في التركيب العضوي، تخلفا عن خط الحياة الجنسية عن بكرتها.

«فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا» قولة التحدي السافر الساخر «أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ» الذي تعدنا «إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» في دعواك تبجحا في وجه الإنذار، ما لا ينتظر فيه أوبة ف:

قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ‏ 30.

و هي قالة الإستنصار في حالة الاضطرار و قد استضعفوه، فلا دواء لدائهم إلّا الكي، نصرة على كفرهم و تحديهم الساخر أن يسخر منهم عذاب اللّه، فإذا هو ببشرى العذاب:

وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى‏ قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ‏ 31.

جيئة مبشّرة إلى إبراهيم لأنه الذي تدور عليه رحى هذه الرسالة، و ما لوط إلّا فرعا منها في قضاء سدوم، و قد برهنوا إهلاكهم لهم بأنهم كانوا ظالمين، مستمرين في ظلمهم المتهتك لكل ستر رباني على الحرمات، ظلما بالرسول و ظلما بالرسالة، ظلما بالفطرة و ظلما بالإنسانية ككل.

قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ‏ 32.

«إِنَّ فِيها لُوطاً» إخبار في تساءل حياطة على حياته، و اطمئنانا بنجاته، و هم طمأنوه بنجاته و أهله إلّا امرأته إذ كانت من الغابرين.

و قد يعني من ذلك الاستعفاء عن قوم لوط لكرامته و هو فيهم كما في هود «فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى‏ يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ. يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 53

وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ» (76)

«لا أعلم هذا القول إلا و هو يستبقيهم ..» «1».

و الغابر هو الماكث بعد مضي ما هو معه، إذ مكثت في الظلم مع ما مضى عليها من عمر طائل و ما معها من جو الوحي و التنزيل، و ذلك مما يضخّم الجريمة، إذا فهي من الغابرين في العذاب إذ كانت من الغابرين في سبب العذاب.

وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِي‏ءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ‏ 33.

و لما ذا «سِي‏ءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً» و هم رسل اللّه، حاملين بشارة العذاب من اللّه؟ لأنه ما عرفهم إلّا أنهم شباب صباح ملاح، و هو يعلم شنشنة قومه، فجيئتهم اليه- إذا- جيئة فجيعة خوفة من قومه المجرمين:

و إلى م تعطف و «قالوا» و هي استئناف لقولهم هنا؟ إنها عطف على محذوف من قولهم معروف من هود:

«وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِي‏ءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 157 في الكافي بسند عن أبي زيد الحماد عن أبي عبد الله (عليه السلام) في تفصيل القصة فقال لهم ابراهيم: لما ذا جئتم؟ قالوا في إهلاك قوم لوط، فقال لهم: ان كان فيها مائة من المؤمنين أ تهلكونهم؟ فقال جبرئيل (عليه السلام): لا- قال: فان كان فيها خمسون؟ قال: لا- قال: فان كان فيها ثلاثون؟ قال: لا- قال: فان كان فيها عشرون؟ قال: لا- قال: فإن كان فيها عشرة؟ قال: لا- قال: فإن كان فيها خمسة؟ قال: لا- قال: فإن كان فيها واحد؟

قال: لا- قالَ: إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ» قال الحسن بن علي عليهما السلام: لا اعلم هذا القول إلا و هو يستبقيهم و هو قول اللّه عز و جل‏ «يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 54

وَ جاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ .. قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ. فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ. مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ» (11: 81- 83) و لما ذا أصاب امرأته ما أصابهم و لم تكن فاعلة فحشاءهم؟ لأن الدال على الشر كفاعله، و قد كانت تدلهم على ضيوف لوط و سواهم، اضافة الى كونها مشركة فاستحقت ما استحقوه.

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى‏ أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ‏ 34.

و ذلك الرجز هو حجارة من طين، مسومة عند ربك للمجرمين كما فصلت في هود و سواها.

وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ‏ 35.

و «آية بنية» من قرية سدوم، تبيّن أنها كانت حتى زمن نزول القرآن بيّنة ظاهرة للمارة كما «وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ» (15: 76) «وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ» (37: 137) و لكنها اليوم مجهولة لا أثر عنها معروفا، و علّها غمرت في بحر لوط، و لا يعني تركها أنها متروكة للناظرين مع الأبد.

وَ إِلى‏ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ 36 فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ‏ 37.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 55

«أخاهم» هنا قد تعني أخوّة النسب أو السبب إلى جانب الأخوة المواطنية و الإنسانية، إشارة إلى أنه كان عشيرهم عمرا من قبله، معروفا عندهم بالأمانة و الصلاح، مما تزيد حجة الآية الرسالية نصوعا و نضوحا.

و حصيلة دعوته الرسالية هي عبادة اللّه لا سواه و رجاء اليوم الآخر على ضوء الإيمان، ثم‏ «وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» أيا كان الإفساد فيها و أيّان، و العمدة في إفسادهم بعد العقيدي منه هو البخس في المكيال و الميزان، إفسادا اقتصاديا تتهدم به العيشة الجماعية، خلقا للطبقية العارمة الظالمة، «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ» بديارهم‏ «فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ»:

قاعدين باركين على الأرض ميتين.

وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ‏ 38.

و ليس فقط يزين سوء الأعمال فيرونها حسنا، بل و حسنها حيث يزينها لهم أكثر مما هي، فيغترون بها و لا يبالون بما يعتريهم من سوء:

«و لا يغرنك تزيينه الطاعات عليك فانه يفتح لك تسعة و تسعين بابا من الخير ليظفر بك عند تمام المأة، فقابله بالخلاف و الصد عن سبيله و المصادة باستهوائه» «1».

فكلما يزينه الشيطان من أعمال خيرة و شريرة، هي ذريعة للصد عن السبيل، فحذار حذار من تزيينه و تسويله كيلا تقعوا في فخه و أنتم تحسبون انكم تحسنون صنعا و أنتم مستبصرون تطلبون البصيرة، و تعمى عليكم المسالك بما زيّن لكم الشيطان أعمالكم، فأنتم- إذا- من الأخسرين اعمالا «الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام) بعد ان ذكر الشيطان: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 56

و قد تعني‏ «وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ» أن عادا و ثمود كانوا قبل أن‏ «زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ» كانوا على بصارة و هدى فطرية و عقلية، أم و شرعية، إلّا أنها ما كانت ناضجة قويمة، و على أية حال فمسرح التزيين من الشيطان خطير خطير، لا ينجو منه إلّا من عصمه اللّه و هداه، و هو التارك هواه إلى هداه إلى اللّه‏ «وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى‏ بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ما كانُوا سابِقِينَ‏ 39.

ذلك الثالوث المنحوس، القارونية الفرعونية الهامانية «فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ» كلّ على حدّه و مدّه، استكبار الثراء و السلطة الملكية و الوزارة الفرعونية، و لكنهم مهما زمّروا و أبرقوا و أرعدوا و عربدوا «ما كانُوا سابِقِينَ» على مشيئة اللّه:

فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ‏ 40.

«فكلا» من هؤلاء و اضرابهم في الاستكبار «أخذنا» ه «بذنبه» هنا، و أخذهم في الأخرى أخزى‏ «فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً» و هم قوم لوط:

«إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ» (54: 34) فالحاصب- إذا- حجارة من طين‏ «وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ» و منهم ثمود «إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ» (54: 31) و منهم عاد: «وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ» (11: 94) و منهم أصحاب ياسين بانطاكية إذ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 57

كذبوا المرسلين: «إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ» (36: 29) «وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ» كقارون‏ «فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ» (28: 81) «وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا» كقوم نوح و فرعون.

«وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ» بما أخذهم بذنوبهم‏ «وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» لم يظلمهم اللّه و لا هم ظلموا اللّه و إنما ظلموا أنفسهم بما استكبروا فأخذوا هنا اخذة طفيفة بما ظلموا.

و هذه العذابات الأربع: بالصيحة و هي هواء متموج سريعة الإيقاع، قرعا للآذان و إلى الأعماق، و بالحاصب: حجارة من طين تتبدل نارا بسرعة الإرسال، و بالخسف: غمرا في التراب، و بالإغراق في الماء، هذه هي العناصر المخلوق منها الإنسان و هي الأربعة الشهيرة مهما كانت كل واحدة تشتمل على جزئيات و ذرات، فقد أخذوا عذابا بما خلقوا من رحمة، و ما عذابهم إلّا صورة واقعية من اعمالهم‏ «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»؟

فهؤلاء هم الذين اتخذوا من دون اللّه أولياء، أصناما و أوثانا و طواغيت، و إليكم مثلا واحدا في هوانهم هو العنكبوت، فكما بيته أوهن البيوت كذلك بيوت الإشراك أيا كانت هي كبيت العنكبوت:

[سورة العنكبوت (29): الآيات 41 الى 69]

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (41) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (42) وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ (43) خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (44) اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى‏ عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ (45)

وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (46) وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الْكافِرُونَ (47) وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (48) بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (49) وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (50)

أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى‏ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51) قُلْ كَفى‏ بِاللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (52) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (53) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (54) يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (55)

يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (56) كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ (57) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (58) الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (59) وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَ إِيَّاكُمْ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (60)

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (61) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ (62) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (63) وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ (64) فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ (65)

لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ (68) وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (69)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 61

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ‏ 41.

كل بيت انما يتخذ للرياحة بيتوتة و سواها، آويا أم ثاويا، فالبيت ملجأ و مأوى و مثوى، و هنا مثل المشركين باللّه كمثل العنكبوت، و مثل تولّيهم من دون اللّه مثل بيت العنكبوت، و كما «إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ» كذلك أوهن الأولياء هم الأولياء من دون اللّه‏ «لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ» و للعنكبوت فضلها عليهم إذ يعبد اللّه و لا تتخذ بيتا كولي من دون اللّه، فأين- إذا- بيت من بيت و ثاو من ثاو، و المرغوب من المثل ليس إلّا البعض في الممثل به و هو هنا الوهن.

فكل خط او خيط سوى خيط اللّه و خطه هو كخيط العنكبوت، لا يجلب نفعا و لا يدفع ضرا، اللهم إلّا مكيدة الاصطياد لبعض الحشرات طعمة للعنكبوت، و كما يصطاد الذين يدعون من دون اللّه ضعفاء العقول.

و كما لا يحصل للعنكبوت أي حاصل من بيته كبيت كذلك لأمثاله من الذين يدعون من دون اللّه لا يحصل اي حاصل من ولاية، بل هم خاسرون مهما لم يخسر العنكبوت من بيته! فالولاية حقها إنما هي للّه ليست لسواه، لا تكوينية و لا تشريعية، إلّا ولاية شرعية فرعية كما يأذن اللّه لحملة شرعته إلى العالمين، «الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ» ليسوا هم فقط عبدة الأوثان و الطواغيت، بل و عبدة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 62

الملائكة و النبيين و سائر الأولياء المكرمين، لا فحسب بل و المسلمون الذين اتخذوا النبي أو الولي وليا من دون اللّه، وكالة او نيابة عن اللّه، ام مستقلا بجنب اللّه، كل أولاء مثلهم‏ «كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ» مهما اختلفت دركات ذلك الاتخاذ إلحادا في الولاية أو إشراكا قل أو كثر، إذ لا ولي إلّا اللّه، أم من ولّاه اللّه حملا لشرعته، لا تكوينية و لا تشريعية، قوة اللّه هي وحدها القوة، و ولايته هي وحدها الولاية، و ما عداها واهن ضئيل، مهما خيّل إلى الهائمين في سائر القوات و الولايات أنها قوة أو ولاية، فهي كبيت العنكبوت، حشرة ضعيفة ضئيلة، واهنة رخوة، لا حماية لها من تكوينها و لا وقاية لها من بيتها الأوهن‏ «لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ» تلك المماثلة الماثلة بين أيديهم، و «لو» هنا تحيل لهم ذلك العلم لعمق التجاهل و حمق التساهل، فامتناع علمهم هذا مسنود إلى تقصيرهم المختار و الامتناع بالاختيار لا ينافي الإختيار. و هل في الحق إن بيت العنكبوت أوهن البيوت على الإطلاق، و حتى من بيوت الجراثيم غير المرئية بالعيون غير المسلحة؟ علّه نعم سنادا إلى عموم «البيوت» و علّه لا حيث «البيوت» هنا هي التي ترى، متناولة لكل راء، دون ما لا ترى.

فأمثل الأمثال فيما يرى للذين اتخذوا من دون اللّه أولياء هو العنكبوت اتخذت بيتا، و ان حياة العنكبوت العجيبة، المنضدة المنظمة، مما تجلب النظر و تجذب إلى اللّه الذي خلقها، و لا يعني ذلك المثل تنديدا بالعنكبوت و بيته، بل القصد فقط تنظير ما يتخذ من دون اللّه من أولياء في وهنه ببيت العنكبوت، و أما هو كخلق مما خلق اللّه، بالغريزة البارعة في نسج بيته، هو في ذلك الحقل من آيات اللّه البينات الدالة على كمال قدرته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 63

نسوج العناكب‏

فمما تحير العقول و تقنعها باستحالة الصدف في الخلق نسوج العناكب، فدقة التنظيم و الترتيب التي كشف عنها أبحاث العلم الحديث في ميادين عديدة تدعو للعجب و التأمل و التفكر، فقد كشف بعض العلماء الآلمان عن أن بعض العناكب تنسج خيوطا دقيقة جدا، إذ إنها تنسج بيوتها من خيوط، كل خيط منها مؤلف من أربعة خيوط أدق منه، و كل واحدة من هذه الخيوط الأربعة مؤلف من ألف خيط، و كل واحد من الألف يخرج من قناة خاصة في جسم العنكبوت و هذا يعني ان كل خيط ينقسم إلى (4\* 1000 4000) خيطا.

و ذكر بعض العلماء الآلمان الباحثين في هذا الميدان: أنه إذا ضمّ أربعة بلايين خيط (000 و 000 و 4000) بعضها إلى بعض، لم تكن أغلظ من شعرة واحدة من شعر لحيته، مع العلم ان متوسط شعر اللحية لا يتجاوز 1 و 0 ميلى‏مترا و بذلك فان قطر مقطع الخيط الذي تنسجه العنكبوت يساوي (1) على (000، 000، 000، 40) من الميليمتر و إن الكيفية التي خلق اللّه بها في جسم العنكبوت ألف ثقب يخرج منها ألف خيط في آن واحد، حيث يخرج الخيط الدقيق فيجتمع كلّ ألف خيط في خيط اغلظ، و من الخيوط الجديدة و تتجمع كل أربعة سوية لتشكيل خيط أكبر، و هكذا تتجمع الخيوط لتنشئ مسكنا و مصيدة للعنكبوت، و إنها لتدعو العاقل و العالم و المؤمن إلى التفكير في عظمة الخالق، و هذا ما يقول اللّه تعالى: «وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ» و قد أثبت البحث العلمي من تحليل و تجزئة حقيقية و هن بيت العنكبوت، فقد جاوزت خيوط العنبكوت الحدّ المعروف في الدقة و تناهت في التجزئة و جاءت برهانا ساطعا على النظام البديع و الإتقان الفائق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 64

للصنعة الإلهية «1» كما جاءت مثلا يندد بالذين يدعون من دون اللّه اولياء.

ترى هنا لك خيوطا متينة بشبكات محكمة الوضع هندسية الشكل، لحد لو اجتمع كل نساج و غزال في الدنيا و قوبلت صناعتهم بصناعات العنكبوت لفاق هذا الحيوان كل غزال من الإنسان.

و مادة هذه الخيوط خفيفة الوزن للغاية، فرطل منها يكفي ان تطوّق به الكرة الأرضية كلها!

العنكبوت البناء

كل عنكبوت في الدنيا غزّال و نسّاج، و بعض أنواعها تبني منازل يشاهدها الناس في أماكن كثيرة بحجم (الكستبان) يقفلها من الداخل بقفل لم يقف على كنهه أحد من علماء الحشرات، حتى يأمن من دخول كل عدو مهاجم أو سارق، سبحان الخلاق العظيم!

عناكب البساتين‏

و هنا نوع من العناكب تسكن البساتين، فتضطر إلى الانتقال من شجرة إلى أخرى و من غصن منها إلى آخر، و لتسهيل التنقّل تبني قنطرة بين الشجرتين، أو ممشى بين الغصنين، هي خيط واحد يخرج من فمه من لعابه، إذا لامس الهواء جمد، فيمتد فيه بعد تثبيت أحد طرفيه و لا يزال الطرف الآخر يغدو و يجي‏ء حتى يمسك بورقة أو غصن فتمر عليه العنكبوت،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يوسف مروة اللبناني في كتابه: العلوم الطبيعية في القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 65

و بذلك تسهل المواصلات و تنجو من الخطرات و المفاجآت‏ «1».

إن العناكب- ككل- تنسج نسجها بمؤخر أرجلها دون حاجة إلى النظر بعينها فإذا قطعت خيطانها قبل الغروب ثم نظرت لها عند شروق الشمس في اليوم الثاني رأيت شبكتها منسوجة كما كانت، و هي تأتي بقطع صغيرة من الأحجار و الخشب فتضعها على نسجها حفاظا له من التكسر و إطاعة الرياح الهابّة و الأعاصير و الزعازع، و إنها تبحث عن صمغ و غراء من أماكنها في أشجارها و تلطّخ بها خيطانها و شبكتها لتكسبها لزوجة فلا تتمزق إذا فاجأتها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و من ذلك ما حكي انه وضعت عنكبوت على عود في ماء قريب من شاطئ جزيرة فنزلت من أعلى العود إلى أسفله فوجدت الماء محيطا بها فرجعت إلى أعلى ثم أخذت تفكر في حيلة تهتدي بها إلى النجاة فغزلت خيطا و أثبتت احد طرفيه في رأس العود و لا زال الطرف يغدو و يروح حتى أمسكت بغصن من الشاطئ الآخر فسارت عليه حتى نجت سالمة.

و هذا النوع البستاني من العناكب تنسج على الأغصان و الأوراق شبكة عجيبة تقتنص بها الذباب و غيرها، فتتخذ بها مركزا تقيم فيه و تمد خيوطها إلى جميع الجوانب، فشكل أطرافها محيط ذلك على الأوراق و الأغصان، و تلك الخيوط أقطارها و العنكبوت رسامها و غازلها و ناسجها و مهندسها و الصائد بها، و ما أشبه تلك الخيوط باعمدة العجلة (البسكليت) فإذا حكمت تلك الأعمدة بخيوطها المجدولة أخذت العنكبوت تجدل خيوطا اخرى فأدارتها على هذه و ربطتها ربطا وثيقا محكما عليها مع التناسب في الوضع و الإحكام و الهندسة بحيث ترى بين كل خيطين من تلك الأعمدة و آخرين من الملتف عليها مسافات متساويات هندسية و منها تكون شبكة للصيد عجيبة الصنع جميلة الوضع، و هذه الشبكة قلدها الإنسان في صيد السمك للقوت و في صنع زينة منسوجة من الحرير منقوشة مرصعة بالحلي اهتدى لها الإنسان المتمدن بعد الآلاف من السنين تفتخر به الفتيات الأفرنجيات في إتقان الصنعة و حسنها (تفسير الجواهر للشيخ الطنطاوي 14: 143- 144).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 66

الرياح و هاجت عليها الأعاصير، و إذا مر بها الذباب التقطته بمادتها اللزوجة و لم يؤثر على الشبكة حركتها «1»، ذلك طرف من إتقان العنكبوت في هندسة بيتها على أنه أوهن البيوت، و ضرب المثل هنا جاء من واجهة و هنه دون إتقانه، و إذا كان أوهن البيوت المبنية بالغريزة الحيوانية بذلك الإتقان فكيف يكون- إذا- أقوى البيوت؟

إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْ‏ءٍ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ 42 وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ‏ 43.

و لأنه يعلم تماما ما يدعون من دونه من شي‏ء، فإنه هو الذي خلقها، لذلك يحكم أنها كبيت العنكبوت أوهن البيوت، لا وهنا في خلقه كفعله تعالى، و إنما و هنا لكل مخلوق أمام الخالق العزيز الحكيم، مهما كان من الإتقان ما يحير العقول.

و «ما» هنا تحتمل انها موصولة او استفهامية أو مصدرية أو نافية، و لكن «من» تنفي كونها نافية إلّا إذا كانت زائدة و لا زائدة في القرآن بلا عائدة، و حتى إذا كانت للتأكيد فالمعنى أن اللّه يعلم انهم لا يدعون من دونه شيئا أبدا، رغم أنهم يدعون من دونه كل شي‏ء حتى الموحدين غير الحقيقيين فضلا عن الملحدين و المشركين.

ثم الثلاثة الأول قد تكون كلها معنية، فهو يعلم الذي يدعون من دونه من شي‏ء، و يعلم ما ذا يدعون .. و يعلم الدعوة من دونه، علما شاملا لا يبقي كائنا و لا يذر إلّا و يشمله بكمه و كيفه، بزمانه و مكانه، بكونه و كيانه، و ذلك قضية عزته و حكمة «وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» و قد يعني النفي في «ما» بتأكيد «من» انه يعلم انهم لا يدعون من دونه من شي‏ء، إنه ليس شيئا يدعى من دون اللّه، فان شيئيتها ليست إلّا عارية من اللّه دونما استقلال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر ناقلا عن كتابه جمال العالم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 67

فكيف تدعى من دون اللّه، و هذا و إن كان في نفسه صحيحا و لكن الصيغة الصالحة له صحيحة فصيحة هي «يعلم انهم لا يدعون من دونه من شي‏ء» إلّا ان عنايتها ضمن الثلاثة الأولى لا بأس بها، فعلّ الأربعة كلها معنية، و يا لها من جماع العلم المحيط للّه‏ «سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

و إن الأمثال المضروبة للناس في هذا القرآن بالغة لحدّ من التمثيل منقطع المثيل أنها «ما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ» فرغم ان جماعة من المشركين المجاهيل يتخذونها مادة للسخرية و التهكم قائلين: ان رب محمد يتحدث عن الذباب و البعوضة و النحل و العنكبوت، «إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا ..» (2: 26).

فالعالمون هناك هم المؤمنون هنا، كما الذين لا يعلمون في آيات عدة هم الذين كفروا، فالإيمان باللّه يزيل الأغشية عن الأبصار و البصائر فأصحابها يعقلون تلك الأمثال الحكيمة القرآنية، كما و العالمون العلوم التجريبية يعقلون، فان كانوا مؤمنين فأحرى و اكثر، و ان كانوا كافرين فقد يهتدون بها ان أرادوا الهدى، حيث العلم بنفسه طريق الهدى إذا لم تخلطه الردى.

و العقل الحرّ أيا كان يعقل هذه الأمثال مهما كان مجردا عن علم الايمان و سائر العلم، إذا فالعقلية الايمانية، ثم العلمية، ثم العقلية المجردة، هي شركاء ثلاثة في ان تعقل هذه الأمثال دون اختصاص بعقلية الايمان، و إلّا لم تعد هذه الأمثال تنفع غير المؤمنين، و الذين اتخذوا من دون اللّه اولياء هم الموجّه لهم في الأصل ذلك المثل الأمثل، تحريضا لهم ان يعلموا الحق منه و من أمثاله بالتعقل، و ما القولة الكافرة «ما ذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا» إلّا جاهلة تخالف العقل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 68

فالأمثال المضروبة في القرآن، فضلا عن حقائقه المجردة، إنما تعقل بالعلم على درجاته، علم الفطرة و العقل و الايمان و سائر العلم الذي به تكشف الحقائق حسب درجات الفاعليات و القابليات، فالعلم أيا كان مستخدم لعقل الحقائق، كلما ازداد عقلها فالإيمان بها، فتلك الأمثال ليست مجرد تمثيلات شعرية و دعاوى خاوية، بل هي حجج بدورها توضّح الحقائق البعيدة عن العقول.

و لأن التفكر و التذكر هما من شئون العقل و العلم: «وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (14: 25) «وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (59: 21) فالعالمون- إذا- هم الذي يتفكرون و يتذكرون، علما فتفكرا فعقلا فتذكرا فإيمانا! و على‏

حد تعبير الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) «العالم الذي عقل عن الله فعمل بطاعته و اجتنب سخطه» «1».

خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ‏ 44.

«خلق»- «بالحق»- «اللّه»- «بالحق»- «السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ»- «بالحق»- ف «بالحق» لها هنا تعلقات ثلاث، و الباء فيها بين سببية و غائية و مصاحبة، فما السبب و الغاية في خلقهما إلا الحق، دون باطل هازل، و ما هما في خلقهما إلّا مصاحبتين للحق.

فحق الخلق فيهما مصاحبا اتقانا و نظاما بارعا و تصميما حكيما قاصدا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المجمع روى الواحد بالإسناد عن جابر قال: تلا النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) هذه الآية و قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 69

دون تفاوت: «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ» ذلك دليل أن خالقهما واحد عزيز حكيم.

و حق الخلق فيهما سببا و غاية دليل حياتنا الحساب بعد الموت، فان هذه الضئيلة القليلة، الفانية الهزيلة، البالية البلية، هذه لا تستحق ذلك الخلق الطائل الحكيم: «وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» (44: 39).

كما و حق الخلق لهما كخلق ينفي الولاية عنهما و ما فيهما و ما بينهما كخلق، فأين الخلق و الولاية الخاصة بالخالق في الآخرة و الأولى «و لله الآخرة و الأولى»؟! إذا «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً» التوحيد و المعاد و الولاية «للمؤمنين».

و لما ذا فقط «للمؤمنين» و كافة المكلفين يكلفون بالنظر فيهما حتى يعرفوا حق المبدء و المعاد؟ «المؤمنين» هنا هم الذين يؤمنون بالآيات البينات، فمن الناس من يؤمن بها مهما كان ملحدا أو مشركا، إذ بقيت له منافذ المعرفة، و هو يتحرى عن الحق المبين، فهم من المعنيين مع سائر المؤمنين المتفتحة قلوبهم لآيات اللّه الهية و أنفسية، المبثوثة في تضاعيف ذلك الكون البارع و حناياه، المشهودة في تنظيمه و تنسيقه، المنشورة المنثورة في جوانبه حيثما امتدت الأبصار و مدت البصائر و الأفكار، و منهم من يجحد بها مهما كان مدعيا للايمان، فهم‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ»- «وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ» المتعنتون المتعندون الذين‏ «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا»! اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى‏ عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ‏ 45.

هنا الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يؤمر- بعد عرض مسارح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 70

الغابرين و مصارعهم- ان يتلو ما أوحي إليه من الكتاب و يقيم الصلاة، معللة بأنها تنهى عن الفحشاء و المنكر، و تأكيدا أن ذكر اللّه أكبر «وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ» إزاحة لما تخالجه من صعوبات الدعوة لقوم لدّ، فما هي تلاوة الكتاب؟ و ما هو نهى الصلاة، و ما هو هنا ذكر اللّه، و مم هو اكبر؟

التلاوة ليست هي- فقط- القراءة، بل هي- ككل- متابعة الشي‏ء أن يجعله أمامه و إمامه، فهو يكون تابعه و خلفه كما «الشَّمْسِ وَ ضُحاها. وَ الْقَمَرِ إِذا تَلاها» (91: 2) «وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ» (11: 17) حيث القمر لا يقرء الشمس، و شاهد من الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) لا يقرءه، و إنما هي متابعة المأموم إمامه، ان يجعله أمامه في كل الحقول و الحالات أم في قسم منها مقسّم حسب قضية الائتمام و الإمامة.

ف «اتل» هنا دون‏ «اتْلُ عَلَيْهِمْ» تعم تلاوة الكتاب لنفسه ان يجعله إمامه، و تلاوة الكتاب عليهم ان يقرءه عليهم ليجعلهم تالين الكتاب، و الأولى هي الأولى في طبيعة الرسالة، فما لم يتلوا الرسول ما اوحي اليه من الكتاب ائتماما به ككل، ليس عليه و لا له أن يتلوه عليهم، حيث الآمر بائتمام الكتاب عليه ان يأتمر من قبل حتى يأمر.

فهو يتلوا في نفسه الكتاب تعلما و تزكيا، ثم‏ «يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ» كما «وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا» فإن «رتل» تقتضي ترتلا أولا ثم ترتيلا لآخرين، و هو فيهما تحريك القلب بالقرآن كما يروى عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) «1».

ثم‏ «ما أُوحِيَ إِلَيْكَ» تختص التلاوة بما مضى وحيه، و لأن «أتل» أمر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

حيث يسأله ابن عباس عن معنى الآية فقال: يعني حركوا به القلوب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 71

رسالي يستمر طول رسالته، فقد أمر بها أن يتلو كلما اوحي اليه طول الزمن الرسولي، و لأن وحي الكتاب مستمر حتى ارتحاله إلى جوار ربه، فالتلاوة ايضا مستمرة كوحي الكتاب، فهو دائب في مثلث الوحي و تلاوته لنفسه و تلاوته عليهم، و قد قرّرت هذه التلاوة ككلّ رسالته‏ «وَ أَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ» (27: 92).

«وَ أَقِمِ الصَّلاةَ» هنا لها أبعاده عدة، صلة الى حال الرسول، و تلاوته الكتاب، فحاله المتأذية من تعنّد قومه اللّد تقتضي رياحة و هي الحاصلة بالصلاة، لأنها صلات بالرب، و اطمئنان للقلب المتأرجف برجفات المتخلفين عن شرعة اللّه، و هكذا «كان إذا غمه أمر استراح إلى الصلاة» و بعد ثان أنّ أنتج ما تنتجه تلاوة الكتاب لنفسه و عليهم هو إقام الصلاة فانها عمود الدين، و «أقم» هنا تجعل الصلاة مقامة بشروطها و أجزائها و أركانها ظاهرة فقهيا و باطنة معرفيا، فقد تؤتى الصلاة دون إقامة، و هي الصلاة في سكر أم في كسل ذلك بأنهم: «لا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلَّا وَ هُمْ كُسالى‏» (9: 54) فهي صلاة قاعدة، متخلفة عن القاعدة فيها و هي إقامتها، و هي- في الحق- ليست إلّا التي تنهى عن الفحشاء و المنكر، مهما شملت الصلاة كل صلاة بريئة عن النفاق، و قد

«جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال: ان فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق؟

قال (صلى الله عليه و آله و سلم): انه سينهاه ما تقول» «1»

و هذا من اقل ما تنهى الصلاة عن الفحشاء و المنكر و اقل منه ان‏

«الصلاة حجزة الله و انها تحجز

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 146- اخرج احمد و ابن حبان و البيهقي عن أبي هريرة قال جاء رجل ... و

في نور الثقلين 4: 162 عن مجمع البيان و روي‏ ان فتى من الأنصار كان يصلي الصلوات مع رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و يرتكب الفواحش فوصف ذلك لرسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال: ان صلاته تنهاه يوما ما.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 72

المصلي عن المعاصي ما دام في صلاته» «1»،

و كضابطة ثابتة للصلاة

«من صلى صلاة لم تأمره بالمعروف و تنهه عن المنكر لم تزده صلاته من الله إلا بعدا» «2»

و

«من أحب أن يعلم قبلت صلاته أم لم تقبل فلينظر هل منعته صلاته عن الفحشاء و المنكر فبقدر ما منعته قبلت صلاته» «3»

«لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، و طاعة الصلاة أن ينتهي عن الفحشاء و المنكر» «4».

فكما تقام الصلاة، فهي بقدرها تنهى عن الفحشاء و المنكر، فيها و هو أقلها، و في كافة الحالات عن كل دركات الفحشاء و المنكر و هو قمتها و بينهما متوسطات.

فملابس المصلي تنهاه عن اغتصابها، و طهارته عن خبث و حدث تنهاه عن التصرف في طهور من غير حله، و طهارته ككل تنهاه عن التقدر ككل، و استقباله القبلة تنهاه عن استقبال ما سواها، و افعال الصلاة من قيام للّه و قعود و ركوع و سجود تنهاه عن كل ذلك لغير اللّه، و اقوال الصلاة تأمره أن يعتنق‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» و ألّا يعبد و يطيع إلّا اللّه.

و نية الصلاة تنهاه أن ينويها لغير اللّه شركا جليا، ام خفيا أن يصلي رئاء الناس، كما تنهاه ان ينوي أية عبادة أم و سواها لغير اللّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 145- اخرج الخطيب في رواة مالك عن ابن عمر قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): ...

(2)

نور الثقلين 4: 161 في كتاب التوحيد و قد روى عن الصادق (عليه السلام) انه قال: ... قال اللّه عز و جل: «إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى‏ عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ».

(3) نور الثقلين 4: 162 عن المجمع و روى أصحابنا عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) قال: ...

(4) نور الثقلين 4: 161 عن المجمع و ايضا عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 73

كما و أهم من كل ذلك اتجاه القلب إلى اللّه حضورا عنده في الصلاة، ينهاه عن كل فحشاء و منكر قلبي قدر ذلك الحضور و الاتجاه.

و كضابطة عامة قالات الصلاة و فعالاتها و حالاتها، إذ كانت مقامة، إنها بأقدارها و حدودها تنهى عن الفحشاء و المنكر قالا و فعالا و حالا، «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏». فالصلاة بكل أحوالها و أفعالها و أقوالها تنهى عن الفحشاء و المنكر، انتهى المصلي بنهيها أم لا، فقد تنهي الفحشاء و المنكر بما تنهى و ذلك لمن ينتهي، و قد لا تنهي رغم ما تنهى، فالنهي- إذا- طبيعتها، و الإنهاء قد يتخلف عنها فإنها تنهى دون تسيير و كما اللّه ينهى و رسله و الدعاة إليه تخييرا دون تسيير.

و حين تقام الصلاة بكل ما يتوجب فيها بظاهرها و باطنها، و تكون مزيجا لنفس المصلي بظاهرها و باطنها، إذا فهي تنهي بنهيها الفحشاء و المنكر، من فحشاء العقيدة و الأخلاق و الأعمال و الأقوال، و هي المتجاوزة حدها في التخلف عن شرعة اللّه، أو المتجاوزة إلى غير العاصي، ام المتجاوزة في بعديها، و المنكر هو كل ما تنكره الشرعة صغيرة و كبيرة، و هو هنا أدنى من الفحشاء.

و لأن جوهرة الصلاة هي ذكر اللّه، و سائر ما فيها إنما هي تعبئة و تقدمة لذكر اللّه، إذا «وَ لَذِكْرُ اللَّهِ»- و هو الصلاة ككل- «اكبر» من ذكر غير اللّه، و غير ذكر اللّه، كما و ان «ذكر اللّه» في الصلاة غير التامة في الذكر، انه اكبر من سائر اجزاء الصلاة، كما و هو اكبر من كل ذكر و ذكر كل كما «وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي» (20: 14) فذكر اللّه هو الرادع عن الفحشاء و المنكر، و كلما كان ذكر اللّه اكثر و أقوى، كان نهيه عن الفحشاء و المنكر اشمل و أحوى، و ليست المعصية على أية حال إلّا بنسيان ذكر اللّه، و الغياب عن حالة الحضور،

«اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 74

اللّه هناك مفعول الذكر حين تعني «ذكر اللّه» ذكرك اللّه‏

«عند ما أحل و حرم» «1»

عامة و في الصلاة خاصة، و إذا كان فاعلا فهي ذكر اللّه إياك و

«ذكر الله لأهل الصلاة اكبر من ذكرهم إياه ألا ترى أنه يقول:

«فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ» «2»،

فهو- إذا- اكبر من الصلاة التي هي ذكرك اللّه كما ان ذكرك اللّه هو اكبر شي‏ء في صلاة و سواها، و قد أمرت بالصلاة لذلك الذكر «وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي».

فذكرنا اللّه يمنحنا روحية على قدر المستطاع لنا و هو محدود قد يحصل معها عصيان أو لمم، و اما ذكر اللّه إيانا ان يعصمنا عن الزلل فهو عصمة عن كل عصيان أو لم، و عن كل جهل أو جهالة أو خطا علمي أو عملي، و هي المعبر عنها ببرهان الرب‏ «وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى‏ بُرْهانَ رَبِّهِ» (12: 24) و هو التثبيت من الرب: «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا» (17: 74).

إذا ف «ذكر اللّه» هنا في مثلث: الصلاة- ذكر اللّه في الصلاة- أن يذكرنا اللّه بما نذكره فيتم الحضور و يطم كل كياننا فنعبد اللّه كأننا نراه.

فكما الصلاة هي قلب العبادات، كذلك الذكر هو قلب الصلاة، و ليس هو إلّا في قلب المصلى، و ليس ذكر الأفعال و الأقوال إلّا إذاعة عن ذكر القلوب و الأحوال، و المصلي الحقيقي يصبح كله ذكرا اللّه، في حاله و قاله و أفعاله، لا يغيب عن حضرة الربوبية في صلاته، فالفحشاء هنا أن يتجاوز عن ذكر اللّه إلى سواه، و المنكر أن يذكر نفسه و هو تارك ما سوى اللّه، فكما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 162 عن المجمع و روى أصحابنا عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: و لذكر اللّه اكبر- قال: ذك اللّه ...

(2) المصدر عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) في قوله: و لذكر اللّه أكبر ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 75

تزول عنه سائر الحجابات بينه و بين اللّه و هي الفحشاء، كذلك يزول عنه حجاب نفسه بينه و بين اللّه و هو المنكر، فلا يبقى بينه و بين اللّه أحد حتى نفسه:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| بيني و بينك إني ينازعني‏ |  | فارفع بلطفك إني من البين‏ |

و أعلى القمم من ذكر اللّه ما حصل لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في معراجه حين‏ «دَنا فَتَدَلَّى فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏» ففي دنوه أزال حجابات الفحشاء و هي التوجه إلى غير اللّه، و في تدلّيه أزال حجاب نفسه و هو التوجه إلى نفسه، فأصبح بكلمة منمحيا في الاتجاه إلى اللّه فلم يبق بينه و بين اللّه إلّا حجاب ذات الألوهية الذي لن يرتفع لمن سوى اللّه.

مقام‏ «دَنا فَتَدَلَّى» هو قضية أن يذكره اللّه فيعصمه، و قبلهما من مقامات القرب و الحضور هي قضية أن يذكر هو اللّه، و العصمة حصيلة الذكرين ان تذكر اللّه كأعلى القمم المستطاعة لك فيذكرك اللّه، ذكرا على غرار الذكر فانه فيهما درجات، و «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ» تلمح أن قدر ذكر اللّه لك هو قدر ذكرك اللّه‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» و

«ان السابقين الذين يسهرون بذكر الله عز و جل و من أحب ان يرتع في رياض الجنة فليكثر من ذكر الله عز و جل» «1».

فالصلاة بدرجاتها تنهى عن الفحشاء و المنكر بدركاتهما، من فحشاء و منكر قالبيين قالا و افعالا، و قلبيين أحوالا، إلى أن تصل إلى خرق الحجب، ثم و خرق حجاب نفسك، فتصل إلى القمة المعرفية و هي خاصة بصاحب المعراج.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 162 عن معاذ بن جبل و قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يا معاذ ان السابقين ... و

عنه قال‏ سألت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) اي الأعمال أحب إلى اللّه؟ قال: ان تموت و لسانك رطب من ذكر اللّه عز و جلّ.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 76

فكل ما سوى اللّه و من سوى اللّه في صلاتك هي بين فحشاء و منكر، بين محرم في شرعة الفقاهة، و محرم في شرعة المعرفة، فلا يحل الاتجاه في الصلاة إلى غير اللّه، و لا على أية حال، «وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ» في صلاتكم و سواها، يعلم صلات صلاتكم و انفصالاتها، و كما يعلم من ذكركم فيما يذكركم، و قد يعلم ان كلها انفصالات فلا يذكركم، فلو لا أن اللّه أمرنا بالصلاة لكانت اكثرية الصلوات محرمة لأنها تمس من كرامة الربوبية، حين نصلي اللّه، و قلوبنا خاوية عن ذكر اللّه، نفتش عن سائر ضالاتنا في الصلاة و ننسى ضالتنا المنشودة فيها و هو اللّه و الصلاة كلها تصوغ بصيغتها «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ»! وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ‏ 46.

يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) انه قال: «نحن المجادلون في دين الله على لسان سبعين نبيا» «1»

فلقد كان يجادل اهل الكتاب و سواهم بالوحي الرسالي كله، المجموع في القرآن كله، فالقرآن برمته هو الجدال بالتي هي احسن في كل الحقول، و بمستوى كل العقول، فلا أحسن منه و لا يسامى، فلنجادل أهل الكتاب كما يجادلهم اللّه في القرآن، دون سائر الأساليب المختلفة المختلفة مهما كانت حسنة حيث الفرض هو الأحسن، و من جدالهم بالتي هي أحسن: «وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» و هي قولة المواصلة دون أية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 162 عن الاحتجاج للطبرسي و روي عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 77

مفاصلة، فأحسن الجدال أن تتبنّى المواصلات بينك و بين مجادلك، فتخرج بذلك عن المفاصلات فتوصله إن استطعت إلى حقك، أم و لأقل تقدير لا تبعده عنك أكثر مما هو بعيد عنك، و

قد يروى عن رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قوله: «لا تصدقوا أهل الكتاب و لا تكذبوهم‏ وَ قُولُوا آمَنَّا ... وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»

«1»، و هنا «بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا» هو القرآن، و «الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ» هو سائر الوحي النازل إلى أهل الكتاب توراة و انجيلا و سواهما من كتاب، و ذلك لا يعم كل الذي عندهم من خليط الوحي بسواه و إنما «الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ».

و أما «إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ» فالمثلثون من النصارى و سائر المنحرفين منهم و من اليهود عن حاق التوحيد و حقه ليس إلهكم إلهنا، فكيف يكون‏ «إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ»؟

الإله الأصل هو المتفق عليه بين كافة أهل الكتاب و هو الذي نوحّده بيننا و بينهم و نؤمن به، ثم الأقنوم الثاني و الثالث، و الولد، و الجسمانية و أشباهها هي الفاصل بيننا و بينهم، و نحن لا نتفق معهم إلّا في المتفق عليه بيننا «و نحن له» لا لسواه «مسلمون»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 147 عن أبي هريرة قال كان أهل الكتاب يقرؤن التوراة بالعبرانية و يفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): ...

و

فيه عن أبي نملة الأنصاري‏ ان رجلا من اليهود قال لجنازة انا اشهد انها تتكلم فقال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم و لا تكذبوهم‏ وَ قُولُوا آمَنَّا ...» فان كان حقا لم تكذبوهم و ان كان باطلا لم تصدقوهم،

و

فيه عن جابر قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) لا تسألوا اهل الكتاب عن شي‏ء فإنهم لن يهدوكم و قد ضلوا ما إن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق و اللّه لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلّا ان يتبعني.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 78

«قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى‏ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (3: 64).

و

في حوار للإمام الرضا (عليه الإسلام) قيل له: أتقول إن اللّه واحد؟ قال: قولك إنه اثنان دليل على أنه واحد، و الواحد متفق عليه و الثاني مختلف فيه».

هناك يستثنى عن الجدال معهم بالتي هي أحسن‏ «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» و هم الذين لا يقنعهم و ينفعهم تلك الجدال الحسنى، بل و يتلقونه هوانا منها و ضعفا و مذلة، إذا فالجدال معهم بالتي هي أحسن إساءة و تضعيف للحق، و هنا يكون آخر الدواء الكي كلاميا أم واقعيا ذودا عن حرمة الحق و كرامته.

فالكتابي بين متحر عن الحق فليجادل بالتي هي أحسن لكي يهتدى بالتي هي أحسن، أم لا يتحرى عن الحق و لا يتجرأ عليه إذا حصل عليه فيصدقه، ام لا يصدقه و لا يكذبه و لا يعمل دعاية ضده، أم يكذبه في حرب باردة أم و حارة، فالآخرون هم من‏ «الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» فليس الجدال بالتي هي أحسن فرضا معهم بل قد لا يجوز، فإما تركا لجدالهم، أم بالحسنة أم بالسيئة أم بالتي هي أسوء، كل ذلك رعاية لحرمة الحق و صدا عن بأسهم ضد الحق.

فالأصل في الجدال- على أية حال- أن تكون بالتي هي أحسن تقريبا للهدى و توصيلا إليها، و أما الذين‏ «سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» فعليهم ما يستحقونه من الجدال أو تركها حسب ما تقتضيه المصلحة في ميزان الحق.

و انها لحقيقة ضخمة عظيمة رفيعة، حقيقة ان يتبناها كل مؤمن باللّه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 79

ان دعوة اللّه التي تحملها رسالات اللّه هي واحدة الانبعاث و الاتجاه، و المؤمنون بكل رسالة حقة هم في الحق إخوة في دين اللّه، أمة واحدة تعبد إلها واحدا «يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ. وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ. فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» (23: 53).

ثم و لا تحكم في زمن واحد لعامة المكلفين إلّا شرعة واحدة من الخمس للدين، فعلى كل المؤمنين باللّه ان ينضموا إلى شرعة الحق الحاكمة في كل زمن، تاركين الخلافات المتخلفة عن الدين و عن شرعة الدين.

و قد يفترى على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) أنه جادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن في العهد المكي و هو في ضغط المطاردة من المشركين، ثم في العهد المدني- و قد قويت شوكته- أخذ يحاربهم تركا للحسنى إلى السوأى! و هذه فرية و قحة عليه يعالجها هذا النص حيث يأمره أن يجادلهم بالتي هي أحسن على أية حال، حال الضعف و حال القوة «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» فلا، سواء في حال الضعف أم حال القوة، ضابطة صارمة ثابتة في كل الحالات و المجالات بايجابيتها و سلبيتها، و الأصل فيهما هو ضرورة الأخذ بالصورة الأخيرة من صور الدعوة، الموافقة لما قبلها، المكملة لها كلها كما أرادها اللّه.

وَ كَذلِكَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْكافِرُونَ‏ 47.

«و كذلك» الأسلوب الذي أنزلنا إلى من قبلك الكتاب‏ «أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ» فالمصدر واحد و الصادر وحي واحد مهما اختلفت شرعة من الدين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 80

عن شرعة في البعض من الطقوس الظاهرية، حلقات متصلة من الوحي، موصولة الهدى إلى اللّه، و اللّه اعلم حيث يجعل رسالته.

«و كذلك» البعيدة المدى، الشاملة الهدى، الصادرة الردى‏ «أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ» يا رسول الهدى، الكتاب الذي يحلّق وحيه على كل كتاب و زيادة، مشابها وحيه وحيها و زيادة «فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ» هم بطبيعة الحال، و نتيجة الاطلاع على وحي الكتاب و البشارات المودعة فيه بحق هذا الكتاب و نبيّه «يؤمنون به» حيث الملامح نفس الملامح و المسارح و المصارح نفس المسارح و المصارح، مهما تعنت عنه جماعة متعندة! و بإشراقة أقوى و إناقة أندى و أبدى، ثم‏ «وَ مِنْ هؤُلاءِ» المشركين البعيدين عن وحي الكتاب‏ «مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ» حيث الكتاب بنفسه برهان لا مرد له أنه من اللّه، مهما كانت الخبرة السابقة بوحي الكتاب تزيد برهانا مشيا على برهانه الأصيل‏ «وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا» كتابا و رسولا و حجة أخرى للرسالة غير الكتاب «إلّا الكافرون» الذين عميت بصائرهم و أغلقت أبواب قلوبهم، فتجاهلوا عن آيات اللّه البينات التي هي كالنار على المنار و كالشمس في رابعة النهار.

و مما يقرّب الفريقين إلى الايمان به، شاهدا ممن أرسل به اضافة إلى آية الكتاب:

وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ‏ 48.

هنا «من كتاب» تستأصل كل كتاب سماوي أو أرضي‏ «وَ ما كُنْتَ» تستأصل كيانه كرسول القرآن ان يتلو من قبله من كتاب، لا أنه ما تلاه و هو قادر على تلاوته تقية مصلحية الحفاظ على وحي القرآن، فان «ما كنت» تحيل عليه كل تلاوة و كتابة لأي كتاب قبل القرآن إحالة تكوينية و تشريعية، فلم يكن يستطيع أية تلاوة قبله، و لا كانت مسموحة له لو استطاعها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 81

ثم و «تتلو» تنفي كل ائتمام بأي كتاب قبل القرآن، قراءة و إقراء و تعلّما و تفهّما، و على الجملة سلبية التلاوة له مطلقة محلّقة على كل تلاوة قالبية أو قلبية، و الأولى تعم تلاوة السمع و البصر و اللسان، و تلاوته بيمنه و هي الكتابة، و قد أفردت بالذكر بعد التعميم لأنها من المصاديق الخفية للتلاوة.

و الثانية تعم التلاوة العقلية و القلبية، و من ثم التلاوة التطبيقية.

إذا فسلبية التلاوة كما تحلّق على كل كتاب قبل القرآن، كذلك تحلّق على كل ائتمام و اتباع لكتاب قبله، فقد كان منفصلا عن كل كتاب تلاوة له و خطا بيمنه «إذا» لو كان يتلوا و يخط من قبله من كتاب‏ «لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ» لحجة القرآن علّه مما تلاه من كتاب فجمعه خطا بيمينه كتابا سماويا كما يهرفه الخارفون أنه جمعه من كتابات السماء، ام كتابا أرضيا، كما يتقوله آخرون‏ «وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى‏ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا» (25: 5)، و لما ذا «بيمينه» و الكتابة بطبيعة الحال تكون «بيمينه»؟ علّها تعني- إضافة إلى يمين الجارحة و هي المتعودة للكتابة- تعني يمين القدرة، فلم يكن بمستطاعه أي كتب لأي كتاب سواء في سجلات القراطيس و أشباهها، ام في سجلات خاطراته المقدسة لو سمع شيئا من كتاب، و هكذا كان محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) منذ أن كان فطيما حتى أنزل عليه القرآن، لم تعرف منه أية تلاوة عن كتاب أم عن ظهر الغيب، و لا مراجعة إلى أيّ من أهل الكتاب و لا مدراسة لوحي الكتاب و سواه، و من هنا نتلمح كصراح أنه ما كان يتّبع شرعة تقليدية من ذي قبل، حيث السلبية المطلقة لتلاوة اي كتاب من قبل تنفي كل ائتمام و اتباع لأي كتاب، فاتباع كتاب الشرعة يتطلب قراءته، او اقراءه لمن لا يقرءه، حتى يتطلع إلى فرائضه و محاظيره، «وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا» تستأصل أية قراءة و ابتّاع، أن لم يأتمّ بأي كتاب و لا أي صاحب كتاب، فما قلد محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قبل القرآن أية شرعة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 82

تقليدية! إذا فما كانت شرعته- و هو أفضل المصطفين- قبل شرعته و بعده؟

حين نتأكد أنه ما كان يتلو من قبله من كتاب من ناحية، و انه كان أعرف أهل زمانه و أعبدهم لربه قضية الاصطفاء للرسالة الأخيرة من أخرى، إذا فأمره محصور بين أمرين: «1» أنه كان يوحي إليه بنبوءة شخصية، معرفية متصلة متواصلة، «2» و عملية منفصلة الوحي، و كما يشهد له‏

قول الامام امير المؤمنين علي (عليه السلام): «و لقد قرن الله به منذ ان كان فطيما أفضل ملك من ملائكته يسلك به سبيل المكارم و يرشده إلى أفضل أخلاق العالم ليله و نهاره ..»!

و مما يؤكد تلك السلبية الجامعة آية الشورى‏ «ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ» (52).

ثم و «من قبله» هنا تحدد تلك السلبية إلى حد نزول القرآن، حيث أصبح بعده أقرء القراء و اتلى التالين للكتاب و الخاطين له بيمينه خطا في أية سجله من السجلات، فهل توجد تلاوة لكتاب بكل حواياه و زواياه مثل تلاوته القرآن لنفسه و على الناس كافة؟ كما و كتاباته (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و توقيعاته إلى الملوك و الرؤساء و الشيوخ معروفة، و منها ما هي مسجلة في كتاب فذّ «3».

فهذه الآية تستأصل جذور الارتياب في ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، إجابة عن شطحات القيلات الجاهلة القاحلة: «وَ قالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى‏ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا. قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ غَفُوراً رَحِيماً»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). لاطلاع اكثر على الموضوع راجع ج 30: 347 من الفرقان و تفسير الآية «ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ» (42: 52).

(2، 3) مثل مكاتيب الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) للشاهرودي، و سواه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 83

(25: 6) «1»، و لقد ذكرت امية محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في كتابات السماء بصيغ مختلفة كما في كتاب اشعياء 28: 9- 14 عن أصله العبراني:

«إت مي يوره دعاه و إت مي يا بين شموعا غكمولي محالاب عتيمي مشادايم» (9): لمن ترى يعلّم العلم و لمن يفقه في الخطاب أ للمفطومين عن اللبن للمفصولين عن الثدي» (9) ... ثم يستمر في مواصفات وحي القرآن‏ «2».

و في نص عبراني آخر من التوراة: «يدعو ييسرائل إوايل حنبيا مشوكاع إيش هاروح عل روب عونخا و رباه مشطماه»:

بنو إسرائيل يعلمون و يعرفون ان النبي الأمي المصروع صاحب روح إلهامي و صاحب الوحي، و هنا يقول «ربي حييم و يطال» في كتاب «عصحييم» أن القصد من النبي الأمّي هنا إنما هو محمد بن عبد اللّه الذي بعث في عهد عبد اللّه بن سلام.

بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظَّالِمُونَ‏ 49.

«بل» هنا إضراب عن كل قيلة عليلة حول القرآن «هو» القرآن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 164 في عيون الأخبار في باب مجلس للرضا (عليه السلام) مع أهل الأديان و المقالات في التوحيد قال الرضا (عليه السلام) في أثناء المحاورات: و كذلك امر محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و ما جاء به و امر كل نبي بعثه اللّه و من آياته ان كان يتيما فقيرا راعيا أجيرا لم يتعلم كتابا و لم يختلف إلى معلم ثم جاء بالقرآن الذي فيه قصص الأنبياء عليهم السلام و اخبارهم حرفا حرفا و اخبار من مضى و من بقي إلى يوم القيامة.

(2) راجع كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية» 108- 109.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 84

«آيات» تدلنا بنفسها على انها إلهيات «بينات» الدلالات على ذلك: «فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ»: ما به يميز الآية عن سواها، سواء في ذلك علم الكتاب كما لأهل الكتاب، أم علم لغة الكتاب كما لسواهم كالمشركين و سواهم، العارفين لغة الكتاب، و حتى غير العارفين حين يترجم لهم الكتاب، فالفطرة و العقلية السليمة تكفيان للإتقان أنها آيات اللّه، مهما اختلفت درجاته حسب درجات‏ «الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» و أعلاهم هو الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و أئمة أهل بيته عليهم السلام، فكما آياته لهم بينات الدلالة على إلهيتها، كذلك هي بينات الدلالة على مداليلها فإنهم هم الراسخون في العلم في بعدي الدلالة و التدليل للقرآن العظيم ثم «بينات» تحلّق على كل بينة في كافة الحقول المعرفية، بينات الدلالة و بينات التدليل لأعلى القمم العالية الكافية لمن يتحرى عن هدى.

فلا يختص‏ «الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» بالرعيل الأعلى من أهل بيت الرسالة المحمدية صلوات اللّه عليهم أجمعين، حيث القصد هو العلم الذي يكون ذريعة للحصول على بيّنات الكتاب و هو درجات بين العبارة و الإشارة و اللطائف و الحقايق، فقد تكفي العبارة و هي المعاني المطابقية الترجمانية الساذجة، دليلا على بينات آياته.

و «أُوتُوا الْعِلْمَ» يعم العلم الفطري و العقلي المؤتيان لكل مكلّف، و العلم التعقلي المؤتى لمن يطلبه بتفكير أو دراسة، و علم الإلهام ثم علم الوحي المؤتيان للآهلين لهما على درجاتهم، فالعلم أيا كان طبيعته الكشف عن الحق، فبقدر العلم المستخدم لتفهّم الكتاب‏ «هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ» درجات حسب الدرجات، ان استعمل العلم في صالحه كشفا عن الحق المرام.

«بَلْ هُوَ آياتٌ‏ ... فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» و هم منازل وحي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 85

القرآن، دون وسيط كالرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ام بوسيطه كما الأئمة المعصومون عليهم السلام، كما «هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» ككل، فمهما لم تكن آياته في صدورهم، فهي ببينات في صدورهم لمّا تتلى عليهم أم يتلونها.

إذا «هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ ..»- «آيات في صدور» و «بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ» بينات الدلالة و التدليل‏ «فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» كلّه بالكتاب و هم الرعيل الأعلى‏ «1».

ثم في صدور الحفاظ لها لفظيا و معنويا كالعلماء الربانيين في علوم القرآن، في الدلالة و التدليل على أقدارهم، ثم في صدور حفاظها معنويا مهما لم يحفظوها لفظيا، في الدلالة و التدليل، على أقدارهم.

و أخيرا في صدور المستدلين بها على كونها إلهيات، مهما اختلفت صدور عن صدور، و بينات بين الأدنى و الأعلى و بينهما متوسطات.

فهنا مثلث: الحفظ لفظيا، و الدلالة على كل حقائقها، و التدليل بها على إلهيتها، هي الخاصة بالمعصومين عليهم السلام‏ «2».

ثم التدليل بها- فقط- على إلهيتها، يعم كل من بامكانه التعرّف إلى حالة المعنى و هالة المعني منها، و بينهما متوسطات في أبعاد الحفظ لفظيا و معنويا، و الدلالة و التدليل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). حسب هذا الاحتمال فالقرآن آيات بينات في صدورهم بكل مراحله دون إبقاء آيات في صدورهم، هي بينات في صدورهم، ثم يتلوهم من هي بينات في صدورهم مهما كانت آيات- كذلك- في صدورهم كالحفاظ ام ليست في صدورهم إلا بينات، و كما الصدور درجات فالبينات ايضا درجات.

(2)

نور الثقلين 4: 164- روى بأسانيد عدة عن الصادقين عليهما السلام‏ انهم الأئمة عليهم السلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 86

«وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا» أيّا كانت: آفاقية و أنفسية، رسوليا و رساليا و كتابيا «إِلَّا الظَّالِمُونَ» أنفسهم و الظالمون الحقّ الناصع، تغافلا عن فطرهم و عقولهم و فكرهم، و تجاهلا عن العلم الذي أوتوه من ربهم، فكل بصيرة- مهما كانت كليلة- تبصر ربوبية الوحي الرسالي في القرآن و نبيه، فما أظلمهم و أجهلهم هؤلاء الأوغاد المناكيد الجاحدين لآية القرآن و سواه من آيات اللّه البينات! و هنا «الظالمون» قبال‏ «الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» بدلا عن «الذين لم يؤتوه» أو «الجاهلون» للتدليل على ان الجاحدين بآيات اللّه ليسوا يفقدون العلم الذي به تعلم آياته البيّنات، بل هم ظلموا الذي أوتوه من العلم، تنازلا عنه و تجاهلا و تغافلا عامدا أم متساهلا، فقد ظلموا بذلك ما أوتوه من العلم‏ «جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا» ام لم يدّبّروا القرآن لكي يستيقنوا فيؤمنوا.

فليس الجاحد بآيات اللّه إلّا ظالما، عالما أو جاهدا، ما دام انه مقصر في ذلك الجحود، حيث لم يستعمل العلم المؤتى له في صالحه.

و لما ذا «في صدور ..»؟ لأنها أولى مقامات الايمان الإتقان، حيث يغربل العلم فطريا و عقليا و علميا و حسيا إلى الصدور و منها إلى القلوب، فما لم يصل إلى الصدور لم تحصل بينة على ضوءه، فكثير هؤلاء الذين يعلمونها دون صدورهم و ليست لهم بينات! وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ‏ 50.

«من ربه» هنا دون «الله- أو- رب العالمين» تعريضة عليه ساخرة، أنه لو كان ربّه فكيف أهمله إذ أرسله دون آية تدل على رسالته، فهل ضنّ به‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 87

أم غفل عنه، أم هو كاذب في دعوى الرسالة؟!.

و هنا الآيات المقترحة عليه هي الملموسة المحسوسة المتعود عليها طيلة الرسالات السالفة جهلا منهم أو تجاهلا ان ليس على اللّه إلّا الآية التي تثبت الرسالة، و اما كون الآيات الرسالية على نسق واحد فلا، بل المفروض في كل رسالة ان تلائمها الآية الرسالية، فالرسالة المحدودة تكفيها الآيات الوقتية المحدودة ككل الرسالات قبل الأخيرة، و الرسالة المحلّقة على كل عصر و مصر لا تكفيها الآيات المحدودة، بل الآية الخالدة التي هي أقوى من كل الآيات الرسالية مادة و مدة، مادة تجذب كل العقلاء على مراتبهم و في كل حقولهم العقلية و العلمية، و مدة تستمر إلى آخر زمن التكليف.

فالآيات الرسالية المادية التي صاحبت اصحاب الرسالات من قبل في غضون البشرية و عنفوانات الوحي ما كانت حجة إلا زمن كل رسول حين تظهر على يديه، و هذه الرسالة الأخيرة البالغة لأعلى القمم الرسالية، من الضروري لها الحجة الحاضرة في الطول التاريخي و العرض الجغرافي، محلقة على كل المجالات في كل الحالات، دون أية غيبوبة لشمسها، بل و لتزدد إشراقة فوق إشراقة على غرار تقدم العقول و العلوم، متفتحة كنوزها لكافة الأجيال.

فآيتها الرسالية «القرآن» دائبة الدلالة في كل زمان و مكان، دون اختصاص بالحياة الرسولية كما في سائر الآيات الرسالية لسائر المرسلين، بل و تحيى في الحياة الرسالية كما الرسولية بل و أقوى و اندى- حيث تظهر منها حقائق و رقائق و تبهر، ما لم يكن الجيل الحضور زمن الرسول ليدركوها فإن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن.

و هؤلاء المجاهيل حين يقترحون على هذا الرسول آيات مادية وقتية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 88

كالسالفة، قد يسخرون منه بقولتهم المتحدية «لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ» إن كان ربه، فكيف تركه ربه و هو يدعي خاتمة الرسالة و أقواها؟! و الجواب القاطع القاصع يتشكل من سلب و إيجاب، فالسلب يعني انه لا يملك من اللّه آيات حتى يبرزها أو يستزلها: «قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللَّهِ»:

كل الآيات الرسالية مادية و معنوية هي عند اللّه لا سواه، عند اللّه علما و قدرة و حكمة لإنزالها «وَ يَقُولُونَ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ» (10: 20)- فالآيات الرسالية هي من الغيب المخصوص باللّه بكل أبعادها: «وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ»: رسالتي انا محصورة في «نذير» عن بأس اللّه «مبين» في نذارتي دون إبهام، و اما سند الرسالة، فهو كاصلها، فليس إلّا عند اللّه، فكما اللّه هو الذي أرسلني و أوحى إلي، كذلك هو الذي ينزل علي آية الرسالة المثبتة لها، ثم الجواب الإيجابي هو آية القرآن الكافية عن كل آية:

أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرى‏ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ‏ 51.

و الواو هنا تعطف إلى محذوف هو بطبيعة الحال آية كما القرآن آية، و ليست إلّا الرسول نفسه، ألم تكفهم أنت بما تحمل أعلى قمم التربية الرسالية «وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ..» و كما المرسلون دونه يستدلون لرسالتهم الإلهية بالتربية الرسالية اللامعة فيهم: «قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ» (36: 16).

فقد يكفي محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بنفسه، بحاله و أفعاله و أقواله و ان لم يأت بالقرآن، يكفي آية بينة رسالية برسوليته، فهو هو القرآن، متجسدا في كل أحواله‏ «وَ ما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَ ما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 89

مُبِينٌ» .. فهو القرآن نفسه تكيمينا كما كتابه المنزل عليه قرآن تدوينيا! و قد تلى عليكم كتاب حياته رسالية قبلها! و إذا لم تكفهم أنت آية لرسالتك لكلّ البصر و قصر النظر «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ ..»

تلاوة هي على الأسماع أسهل، و عمرها أطول، فهي على هذه الرسالة أدلّ و أنبل، فقرآن محمد و محمد القرآن آيتان بارعتان كلّ تؤيد الأخرى، ام هما آية واحدة و الثانية القرآن هي استمرارية للأولى: رسول القرآن، حيث يعيش في كل الحياة الرسالية و يعيّش بآيتها البارعة كل متحر عن حق الرسالة و حاقها.

«أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ» عن كل آية رسالية ان يحلق الوحي الآية الزمن الرسولي بنجومه ليل نهار و دونما انقطاع نزولا على الرسول، ثم و يحلّق الزمن الرسالي بما بين دفتيه مؤلّفا بوحي كما نزل بوحي، شمسا مشرقة على قلوب و أفكار الكلفين إلى يوم الدين.

إن القرآن آية كافية، آية خالدة و كتاب شرعة خالدة على حد

قوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): و «كفى بقوم حمقا أو ضلالة ان يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم ..» «1»

و

قوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): «لو نزل موسى فاتبعتموه و تركتموني لضللتم انا حظكم من النبيين و أنتم حظي من الأمم» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 148 عن يحيى بن جعدة قال‏ جاء ناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ما سمعوه من اليهود فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): ..

فنزلت هذه الآية و فيه عن أبي هريرة عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) مثله.

(2)

المصدر اخرج عبد الرزاق و ابن سعد و ابن الضريس و الحاكم في الكنى و البيهقي في شعب الايمان عن عبد اللّه بن ثابت الأنصاري قال‏ دخل عمر بن الخطاب على النبي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 90

و يقول لعمر بن الخطاب حين قال له (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): يا رسول اللّه إن أهل الكتاب يحدثونا بأحاديث قد أخذت بقلوبنا و قد هممنا ان نكتبها! يا ابن الخطاب! أ متهوّكون أنتم كما تهوكت اليهود و النصارى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال: هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب اعرضها عليك فتغير وجه رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) تغيرا شديدا لم أر مثله قط فقال عبد اللّه بن الحارث لعمر اما ترى وجه رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فقال عمر رضينا باللّه ربا و بالإسلام دينا و بمحمد نبيا فسرى عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و قال: لو نزل موسى ..

و

فيه عن الزهري‏ ان حفصة جاءت إلى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بكتاب من قصص يوسف في كتف فجعلت تقرءه عليه و النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يتلون وجهه فقال: و الذي نفسي بيده لو أتاكم يوسف و انا نبيكم فاتبعتموه و تركتموني لضللتم،

و

فيه اخرج عبد الرزاق و البيهقي عن أبي قلابة ان عمر بن الخطاب مرّ برجل يقرء كتابا فاستمعه ساعة فاستحسنه فقال للرجل اكتب لي من هذا الكتاب قال نعم فاشترى أديما فهيأه ثم جاء به إليه فنسخ له في ظهره و بطنه ثم أتى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فجعل يقرءه عليه و جعل وجه رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يتلون فضرب رجل من الأنصار بيده الكتاب و قال ثكلتك أمك يا ابن الخطاب اما ترى وجه رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) منذ اليوم و أنت تقرء عليه هذا الكتاب فقال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) عند ذلك انما بعثت فاتحا و خاتما و أعطيت جوامع الكلم و فواتحه و اختصر لي الحديث اختصارا فلا يهلكنكم المتهوكون،

و

فيه عن عمر بن الخطاب قال‏ سألت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) عن تعلم التوراة فقال: لا تتعلمها و آمن بها و تعلموا ما انزل إليكم و آمنوا به»

و (44) الثانية في نفس المصدر.

أقول: و هذه النواهي لا تشمل ما إذا قورنت آيات من الكتب السماوية بآيات قرآنية تثبيتا لوحي القرآن و صدقه و انه أفضل و أكمل من سائر الوحي، و قد الفنا في المقارنات كتبنا الثلاثة «المقارنات- رسول الإسلام- عقائدنا» و القرآن يأمرنا في آيات بتلك المقارنات التي فيها اثباتات و تأييدات لموقف القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 91

أما و الذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية و لكني أعطيت جوامع الكلم و اختصر لي الحديث اختصارا» «1».

اجل و في هذا القرآن كفاية عن كلما دق و جل، المذكورة في كل كتابات السماء و الأرض، و هو المحور الأصيل ردا لكل شارد و إيرادا لكل وارد، لا يقبل إلّا ما وافقه، و ينكل بكل ما فارقه، و «إِنَّ فِي ذلِكَ» الوحي الآية، البالغ في بعدي وحي الرسالة و برهانها، النهاية «لرحمة» رحيمية ربانية خالدة على مدار الزمن «و ذكرى» تذكّر كل منسي و مجهول‏ «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» بآيات اللّه، حيث القرآن خير آية رسولية و رسالية قاصعة قاطعة لا ريب فيها، فقوم يؤمنون زمن الرسول و بعده إلى يوم الدين، لهم في آية القرآن الكفاية التامة الطامة، دون حاجة إلى آية أخرى بصرية أو بصيرية، فانها الشهادة الكاملة الكافلة الإلهية بين الرسول و كافة العالمين:

قُلْ كَفى‏ بِاللَّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ‏ 52.

و ليس هذا كلاما خطابيا و دعوى فاضية عن برهان، بل هو اتقن برهان لوحي القرآن انه شهادة إلهية كافية بين الرسول و كافة العالمين، فطالما للّه شهادات لسائر الرسل في سائر الآيات الرسالية، و لكنها ما كانت لتكفي إلّا وقتية محدودة بحدودها المقررة لها، و اما القرآن- كما و رسول القرآن- فهو شهادة ذاتية كافية ما أكفاها لحق الرسالة بحاقها، لا تختص بزمان دون زمان، و لا بأهل زمان دون آخرين، بل هي حجة رب العالمين إلى يوم الدين، فكما اللّه‏ «يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» كذلك كتابه الشهيد يحوي من علم اللّه ما في السماوات و الأرض، علما يختص باللّه، فالقرآن الحاوي لذلك العلم ليس إلّا من اللّه:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 148.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 92

«لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً» (4: 166) و الرسول بقرآنه هما بينة من ربه: «أَ فَمَنْ كانَ عَلى‏ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ يَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَ مِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى‏ إِماماً وَ رَحْمَةً أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ» (11: 17) و هو شاهد «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً .. (33: 45) كما القرآن شاهد:

قُلْ أَيُّ شَيْ‏ءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ ...» (6: 19) فكلّ من القرآن و الرسول شاهد باني على هذه الرسالة السامية، و هما متعاضدان، «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى‏ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً» (48:) 28).

«وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ» و هو هنا و جاه اللّه كل ما سوى اللّه، اللهم إلّا ايمانا برسل اللّه و هو ايمان باللّه‏ «.. آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ» و برسل اللّه الحاملين شرعة اللّه .. «أولئك هم» لا سواهم «الخاسرون» نشأتي الحياة مهما اختلف خسران عن خسران في الآخرة و الأولى.

فالإيمان باللّه كسب في ذاته، و كسب في اتجاهاته و إنتاجاته، فانه طمأنينة في الحياة ككل، و استقامة في مكاسب الحياة، و ثقة على أحداثها و متراس في أكراثها، و يقين بالعاقبة الحسنى، و كل ذلك يخسره الكافرون، و من خسارهم:

وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ 53 يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ‏ 54.

قائلين: «اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ» (8: 32): هم يتحدّونك إبطالا لرسالتك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 93

استعجالا بالعذاب الذي تنذرهم به، هزء بك و تعجيزا لك‏ «وَ لَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى» لأمد العذاب و هو الحياة الوسطى البرزخية و الأخرى الآخرة «لَجاءَهُمُ الْعَذابُ» كما يستعجلون، و قد يعم العذاب هنا عذاب الآخرة و الأولى، و لكلّ أجل مسمّى لا سيما الأخرى، و ليس اللّه ليخرق الضابطة الثابتة في «اجل مسمى» لأنهم يستعجلون «و ليأتينهم» العذاب الذي يستعجلون «بغتة» إمّا هاهنا كما في قرون هالكة مضت، ام بعد الموت، و كل ذلك فيه مباغته العذاب، و هي عذاب فوق العذاب‏ «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» إتيانه المباغت، و لا أصله، و هم لا يشعرون الحق تجاهلا و تغافلا، «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» حين‏ «يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ» أن‏ «لَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ».

و من الغريب انهم‏ «يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ» و هم في أنفسهم بكفرهم جهنم العذاب‏ «وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ» تحملهم و يحملونها يوم الدنيا، ثم تبرز لهم يوم الدين:

يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ‏ 55.

فذلك العذاب الذي يغشاهم يومه، هو الذي عاشوه بكفرهم قبل يومه، فلذلك «يقول» اللّه لهم هناك‏ «ذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» فالأعمال السيئة التي قدمتموها هي عذاب الجحيم، «إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ» باطنة يوم الدنيا و ظاهرة يوم الدين ف: «لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ»! يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ‏ 56.

«قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 94

حَسَنَةٌ وَ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ» (39: 10).

و ترى إذا المخاطبون هنا هم‏ «عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا» فهم عابدون- إذا- و متقون، فكيف يؤمرون بهما؟

ذلك لأن ارض الكفر و الفسق تضيّق عليهم مجالات الإيمان و جلوات أعمال الإيمان، فإذا استمروا فيها يقلّ فيهم الإيمان و عمل الايمان، فليهاجروا منها إلى أرض اخرى بإمكانهم فيها ان يستمروا في الايمان و العبادة و التقى، ام و زيادة فيها.

ثم و قد يصح امر المؤمن بالايمان و يعني مزيده على أيّة حال ك «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ...». و على الجملة «إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ» لعبادي، فلا تضيق بكم بما رحبت، فلا عذر لكم في المضايق إذ ضيّقت ما دام الفرار إلى غيرها ميسور، و هو قطعا ميسور، و أدناه الفرار إلى الأقل مضايقة: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قالُوا أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها فَأُولئِكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَ ساءَتْ مَصِيراً. إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَ لا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا. فَأُولئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً. وَ مَنْ يُهاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُراغَماً كَثِيراً وَ سَعَةً وَ مَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إِلَى اللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً» (4: 100)، و

قد يروى عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): «البلاد بلاد الله و العباد عباد الله فحيثما أصبت خيرا فأقم» «1»،

و هنا نتأكد من الحصر في‏ «فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ» متفرعا على «ان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 149- اخرج احمد عن الزبير بن العوام قال قال رسول اللّه (صلّى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 95

أَرْضِي واسِعَةٌ» امكانية إخلاص العبادة ككل و حصرها في اللّه في واسعة ارض اللّه، اللهم إلّا لمن لا يستطيعون حيلة و لا يهتدون سبيلا للفرار عن ارض الظلم و الضغط، فعليهم- إذا- سنة التقية حفاظا على البقية الممكنة من عبادة اللّه و طاعته.

فما الطفه و أرأفه الخطاب‏ «يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا» حفاظا على ايمانهم أيا كانوا، و هجرة بايمانهم في ارض اللّه الى ما هي أءمن لإيمانهم، فأنتم عبادي و هذه ارضي تسعكم ان تعبدوني انا، فإذا خفتم على ايمانكم أم على عمل الايمان في جانب من ارضي فهاجروا إلى اخرى‏ «إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ» فليس وطن المؤمن إلّا ما يتوطن بإيمانه، قريبا فيها أم غريبا، بعيدا عن اهله ام قريبا، فلا يهجس المؤمن هاجس الأسى لمفارقة الوطن المولد، أو الوطن المسكن، ما دامت الأرض كلها للّه، و المؤمن هو عبد اللّه، فليعبد اللّه في ارض اللّه مواطنا ام مهاجرا، و الهجرة في دين اللّه محنة و ليست مهنة، و أحب البقاع إلى اللّه ما تعبد فيها اللّه كما يرضاه.

و اخطر الخطر الذي قد يهجس في بعض القلوب مانعا عن الهجرة عن أرض الوطن هو الموت و لكن:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اللّه عليه و آله و سلّم): .. و

فيه عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): سافروا تصحوا و تغنموا.

و

في نور الثقلين 4: 167 عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية يقول: لا تطيعوا اهل الفسق من الملوك فان خفتموهم ان يفتنوكم عن دينكم فان ارضي واسعة ..

و

فيه عن المجمع قال ابو عبد اللّه (عليه السلام) معناه إذا عصي اللّه في ارض أنت بها فاخرج منها إلى غيرها،

و

فيه في جوامع الجامع عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): من فر بدينه من ارض إلى ارض و ان كان شبرا من الأرض استوجب الجنة و كان رفيق ابراهيم و محمد عليهما السلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 96

كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ‏ 57 «1».

«أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ» (4: 78) ثم الموت في المهجر حياة، كما الحياة في الوطن- حين يضيّق على الايمان و قضاياه- هي موت، و «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ» لا أنها تموت موت الفوت، فذوق الموت عبارة عن الانتقال عن الحياة الدنيا الى الحياة البرزخية، فالنفس تذوق الم الانتقال على أية حال، و لا تعني «الموت» في آياتها إلا ذوق الموت دون الفوت المطلق، فإنما الموت عن الحياة الدنيا، و كما تدل عليه آيات الحياة البرزخية و جنتها و نارها.

و لأن «نفس» لا تطلق على اللّه إلّا إضافة إليه «نفسه» كما «تعلم ما في نفسي و لا أعلم ما في نفسك» فلا تشمله «كل نفس» حتى يخرج بأدلة خارجية عقلية و نقلية، و انما تشمل نفوس ما سوى اللّه و من سواه، ما له نفس حية حيث تنتقل بالموت من حياة إلى أخرى «ثم» بعد ذوق الموت‏ «إِلَيْنا تُرْجَعُونَ» أحياء بحياة أخرى هي أحرى ان تسمى حياة من الأولى:

«يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي» (89: 24) كأن الأولى ما كانت حياة، و ترى «الموت» هو غير «القتل»؟ فالقتيل إذا- في حق أو باطل- لا بد أن يرجع يوم الرجعة حتى يموت قضية هذه الشمولية ل «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ»؟

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الدر المنثور 5: 149- اخرج ابن مردويه عن علي (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) لما نزلت هذه الآية «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» قلت: يا رب أ يموت الخلايق كلهم و تبقى الأنبياء فنزلت‏ «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ».

أقول: الآية الأولى صريحة في موته (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فباحرى في موت سائر الأنبياء، و الثانية ظاهرة في موته و سائر الأنبياء، فكيف يقنع بالآية الظاهرة دون الصريحة، فالعكس قد يصح و قد حصل القلب خطأ من الراوي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 97

و لا يرجع يوم الرجعة إلّا من محض الايمان محضا أو محض الكفر محضا كما في مستفيضة الأحاديث، على ضوء آيات الرجعة، و هذه رجعة بالاستعداد، ثم من يستدعي من المؤمنين الرجعة، و هي رجعة بالاستدعاء، و من يقتل في سبيل الباطل ليس- ككل- ممن محض الكفر محضا، كمن يقتل في سبيل الحق، فانه ليس- ككل- ممن محض الايمان محضا، فضلا عمن يقتل في صدفة غير متقصّد لا في سبيل الايمان و لا اللّاإيمان! و مهما عنت مقابلة الموت بالقتل، الموت بغير القتل كما العكس، فليست الموت دون مقابلة لتعني- فقط- غير القتل، مهما خص القتل بمعناه دون حتف الأنف‏ «1» ثم الرجوع إلى اللّه يتطلب البداية منه أن كنا عنده ثم نرجع كما كنا، و هكذا كنا قبل ان نمنح حيوية إنسانية مختارة، ثم هبانا اللّه العقل و الإختيار للاختبار، ثم نرجع دون اختيار نتيجة الإختيار، و هذه لمسات تلمس قلوبنا لتزيل عنها همسات و احتياطات لترك الهجرة و الهجرانات في سبيل اللّه، فمن ذا الذي يساوره الخوف، او يحاوره القلق بعد هذه اللمسات؟.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 167 في تفسير العياشي عن زرارة قال: كرهت ان اسأل أبا جعفر (عليه السلام) عن الرجعة و استخفيت ذلك قلت لأسألن مسألة لطيفة ابلغ فيها حاجتي فقلت: أخبرني عمن قتل أمات؟ قال: لا، الموت موت و القتل قتل، قلت: ما احد يقتل إلّا و قد مات؟ فقال: قول اللّه أصدق من قولك، فرق بينهما في القرآن فقال:

فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ» و قال: «لَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ» و ليس كما قلت يا زرارة، الموت موت و القتل قتل فان اللّه يقول: «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ» قال: من قتل لم يذق الموت ثم قال: لا بد ان يرجع حتى يذوق الموت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 98

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ 58 الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ‏ 59.

فالمهاجرة في اللّه حفاظا على الايمان و عمل الصالحات، هي من أصلح الصالحات، كما الصبر على مفارقة الأوطان و غضاضات الغربة في المهاجر، و التوكل على الرب في كل ذلك، هو من أصلح الصالحات، و هؤلاء «الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ‏ .. الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى‏ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» هم أولاء موعودون بواء من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها و نعم اجر العاملين .. الصالحات الصائبات المستصعبات.

و يا لها من لمسات التشجيع و التثبيت لهذه القلوب المؤمنة المطمئنة بالإيمان، في مواقف القلق و الخوف و الحرمان.

وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَ إِيَّاكُمْ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ‏ 60.

«وَ ما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها وَ يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَ مُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِي كِتابٍ» (11: 6)، و حين يهجس في النفس المهاجرة خاطر الاضطراب على الرزق في المهاجر قضية مغادرة الوطن و الأهلين أقارب و أنسباء و أحباء، و كذلك الأموال و مجالات الأعمال، إذا يطمئن اللّه تلك النفوس و أضرابها بانه هو الرزاق لكل مرزوق أيا كانوا و أيّان.

فإذا أنت- بزعمك- يحملك رزقك في الموطن فتخاف على عدمه أو قلته في المهجر، «كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا» بنفسها و في اية محاولة منها «اللَّهُ يَرْزُقُها» و هي دابة أدنى من المؤمن المهاجر «و إياكم» حملتم رزقكم أمّا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 99

حملتم، حين تؤدون واجب الاتجاهات الحيوية الايمانية «وَ هُوَ السَّمِيعُ» لقالاتكم و قالات الآخرين منكم، السميع دعاءكم «العليم» بحالاتكم و حاجياتكم.

فليست هذه الآية و اضرابها تسمح للبطلة و البتلة عن طلب الرزق، بل هي تعني الذين يطبّقون واجبهم في المهاجرة و سواها بايمانهم فتنقطع عنهم أسباب الرزق في تقديراتهم، فهنا يأتي دور الرزق من حيث لا يحتسب:

«.. وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدْراً» (65: 3).

و ليست المهاجرة المضمون فيها الرزق من حيث لا يحتسب مختصة بترك الأوطان في اللّه، بل هي كل مهاجرة في اللّه، و أفضلها من يهاجر عن المكاسب المادية إقبالا على تعلم دين اللّه و تعليمه ككل الطلاب الربانيين لعلوم الدين، فان اللّه هو الرزاق ذو القوة المتين.

و ليس الرزق المضمون لأهله هو الكثير الغزير دوما، إنما هو أقله أم يزيد، ما يقيم الأود و هو لقمة القوت، البقية على حياة، كيف لا و الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) على محتده العالي في تقوى اللّه مضى عليه ما لم يذق طعاما لأيام، و على حدّ

قوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): ... و هذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاما و لم أجده و لو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى و قيصر ..» «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 149- اخرج عبد و ابن حميد و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و البيهقي و ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عمر قال‏ خرجت مع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط من التمر و يأكل فقال لي با ابن عمر مالك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 100

إذا فالأصل المضمون من الرزق لأقل تقدير هو القوت، و في الدعوة الزيادة حسب الفاعليات و القابليات.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ‏ 61 فحين يصدق المشركون أنه تعالى خالق السماوات و الأرض، لا سواه، و هو مسخّر الشمس و القمر لا سواه‏ «فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ» اتجاه الإفك الكذب إلى غير اللّه، طلب الرزق ام سواه؟.

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ‏ 62.

فما بسط الرزق معلّلا- ككل- ببسط السعي و قدره، و لا قدره- ككل- بقدر السعي و قدره، فكم من باسط السعي قدر عليه رزقه، و كم من قدر السعي مبسوط له رزقه، فما التعرض للرزق بأسبابه إلّا سببا من أسبابه و ليس كلّ الأسباب، فإنما هو بيد مسبب الأسباب، «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ» سعيا و سواه، و قدر الحاجة و الحكمة في بسط الرزق و قدره.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ‏ 63.

فحين يصدقون ان منزّل الماء من السماء و يحيي الأرض من بعد موتها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

لا تأكل؟ قلت: لا أشتهيه يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال: لكني أشتهيه و هذه صبح رابعة ... فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم و يضعف اليقين، قال فو اللّه ما برحنا و لا رمنا حتى نزلت: و كأين من دابة ... فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): ان اللّه لم يأمرني بكنز الدنيا و لا باتباع الشهوات ألا و اني لا اكنز دينارا و لا درهما و لا ادخر رزقا لغد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 101

هو اللّه، فكيف ينكرون إحياءهم بعد موتهم و هو أولى من الأولى و أحجى؟

«قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» ككل لأنه اللّه الخالق المسخّر المنزل المحيي‏ «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ» ان الدار الآخرة لهي الحيوان، فهم رغم عقل الفطرة المفطور فيها، و عقل العقل و سائر العقل و الدرك «لا يعقلون» أخذا للمعقول مأخذ القبول.

وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ‏ 64.

«الْحَياةُ الدُّنْيا» و هي أدنى الحياة دنوا و دناءة، هي محصورة في‏ «لَهْوٌ وَ لَعِبٌ» لمن أبصر إليها و اخلد عليها فانها تعميه، و لكنها لمن ابصر بها مبصرة فذريعة للدار الآخرة الحيوان.

و هذه آية ثانية تختص الحيوان بالدار الآخرة أولاها آية الفجر: «يَقُولُ يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي» (24) مما يبرهن أنها اصل الحياة «لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ» لكنهم‏ «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7).

و في مقابلة حيوان الدار الآخرة بلهو الحياة الدنيا و لعبها تلميحة مليحة ان حياة اللهو و اللعب موت، و هي في الحق موت للإنسانية السامية و فوت لمحاصيلها العالية، المقصودة بالحياة الدنيا، و هي التذرع بها للأخرى.

فمن التهى فيها بلهوها و لعبها فهو الميت حقا و من ورائه‏ «جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى‏» (20: 74) و من تركهما فيها و ابتغي مرضات اللّه فهو الحي حقا و من وراءه الجنة خالدا فيها أبدا و «لَهِيَ الْحَيَوانُ» الحياة الدائبة المتحركة دوما نحو الجمال و الكمال بما قدمته أيديهم من جمال المعرفة و كمال العبودية. حيث «الفعلان» تلمح إلى حركة، فكما اصل الحياة حركة، كذلك حركة الحياة حركة فوق حركة، و هي الكافلة كل مزاياها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 102

الكاملة بكل زواياها، الحافلة كل الغايات المسرودة لها، المترقبة المرغوبة منها، دائبة الارتقاء إلى كمالاتها دون أية وقفة في تلك الحيوية الأخروية العالية، و ترى كيف تحصر الحياة الدنيا في لهو و لعب و هي مدرسة الصالحين و السابقين و المقربين؟ و حين تحصر هي فيها كما خلق اللّه فما هو تقصير الملتهين بها اللّاعبين فيها؟

«هذه» هنا المشيرة إلى حياة المشركين و سائر الكافرين، تخصهما بهم بسوء اختيارهم، فهي- إذا- الدنيا الدنية، و لكنها الدنيا الدانية- و هي اقرب حياة إلينا- و العالية الزاكية للصالحين الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، إذا فهم دنياهم آخرة، و الطالحون هم آخرتهم دنياهم، و اين دني من دنيا و آخرة من آخرة! فأهل الآخرة هم في الدنيا: «جزناها و هي خامدة» فنار الآخرة لهم خامدة هامدة، و أهل الدنيا هم في الآخرة ليست لهم خامدة، بل هي زائدة مايدة.

اجل و الحياة الآخرة هي الفائضة بالحيوية الفائقة التصور، دون حجب و زحامات و موتات و اصطدامات، مهما كانت الحياة الدنيا حياة إيمانية محضرة لها فضلا عن الملهية، فبين الحياتين بون بعيد، و اللّه من وراءنا رقيب عتيد،

«يا عجبا كل العجب للمصدق بدار الحيوان و هو يسعى لدار الغرور» «1»،

و كما ان الحياة الجنينية هي حياة التحضير للدنيا، كذلك الحياة الدنيا هي حياة التحضير للأخرى، و كما ان هذه الأدنى هي الحيوان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 149- اخرج ابن أبي الدنيا و البيهقي في شعب الايمان عن أبي جعفر رضى اللّه عنه قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): يا عجبا ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 103

للأجنّة، كذلك تلك الأخرى العليا هي الحيوان لولائد الدنيا، و هي خير مدرسة بأفضل المدرسين ليستكمل فيها المكلفون حتى يحصلوا على محاصيل الحياة العليا «الْحَياةُ الدُّنْيا» هي الدانية إلينا دنوا أكثر من كل حياة عقلية، لولاها لما كانت الحياة الآخرة هي الحيوان، كما و هي الدانية دناءة أكثر من كل دانية في الحياة لمن اخلد إليها و اتبع هواه و كان أمره فرطا.

فلا هي ذميمة دميمة في حد ذاتها لأنها مدرسة الصالحين، و لا هي خيّرة في حد ذاتها لأنها- فقط- ذريعة للدار الحيوان، فهي حين تتخذ أصلا يبصر إليها ذميمة دميمة، و هي نفسها حين تتخذ فرعا يبصر بها صالحة مبصرة.

فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ 65 لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ‏ 66.

انهم يعيشون تناقض العقيدة، أو تناقض الفطرة و العقلية و العملية «فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ» كمثال على ظرف تقطّع الأسباب إلّا اللّه‏ «دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» مهما كانوا به كافرين‏ «فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ» عقيديا ام- لأقل تقدير- عمليا، ان ينسبوا نجاتهم إلى غير اللّه من الأسباب التي ضلت عنهم و تقطعت و هم في خضمّ البحر على الفلك! و هذه التناقضة هي طبيعة الحال لكل من لم يكمل إيمانه مهما كان مؤمنا فضلا عن المشرك و الملحد، فجرس الفطرة يسمعه أن لا إله إلّا هو، ثم شرس الغفلة و الانجذاب الى الطبيعة يصمّه‏ «إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ» و لما ذا؟

«لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا» اشراكا قاصدا للكفر بالنعمة، و لكي يأخذوا حرياتهم في التمتع بمتع الحياة «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» ما ذا قدمت أنفسهم و به يعذبون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 104

و اللام هنا قد تعني الغاية، بيانا للغاية من إشراكهم تقصدا، حيث الإشراك خلاف الفطرة فلا بد من التخلف عنها من غاية.

و اخرى تعني امر التهديد ك‏ «اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (41: 40) «اعْمَلُوا عَلى‏ مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ» (11: 93) و الجمع بينهما اجمع و أجمل.

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ‏ 67.

ألم يروا آيات اللّه و نعمه في الآفاق و في أنفسهم؟ فان لم يروها «أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً ..»؟ جعلا تكوينيا و تشريعيا مهما حصل فيه أو يحصل من اللّاأمن واقعيا خلاف الشرعة الإلهية، حيث واقع الأمن فيه- على أية حال- أكثر مما سواه، و شرعة الأمن فيه لا تقاس بما سواه! «حَرَماً آمِناً» نفسه عن الهجمات و التهديمات، و آمنا فيه كل عاكف و باد «و» الحال انه‏ «يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ» تخطفا دونما أي تعطّف في أموالهم و أعراضهم و أنفسهم، فلقد كان أهل الحرم المكي- و يكونون- يعيشون آمنين، يعظمهم الناس من أجل الحرم المحترم، و من حولهم القبائل تتناحر و تتخطف، فلا تجد الأمان إلّا لجأ إلى الحرم، فيا عجبا أن يجعلوا من بيت اللّه مسرحا و مأمنا لباطل الأصنام إيمانا بها «أ فبالباطل» معبودا سوى اللّه أيا كان «يؤمنون» ثم‏ «وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ» و الكفر بنعمته هو الذي أدخلهم جحيم الكفر بوحدته افتراء عليه كذبا:

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ‏ 68.

اللّهم لا أظلم‏ «مِمَّنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 105

و هم افتروا عليه شركاء و أندادا، ثم إذا جاءهم الحق التوحيد بوحي منه كذبوا به «أليس» إذا «فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً» و مأوى و مقاما «للكافرين» كما كانوا آوين إلى جهنم الكذب و التكذيب، ثاوين في كفرهم باللّه العظيم! و هنا خير ختام في السورة بخير الأنام و هم المجاهدون في اللّه، المحسنون:

وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ‏ 69.

و قد يختلف‏ «جاهَدُوا فِينا» عن «جاهدوا في سبيلنا» حيث الأول أخص، و الجهد في جهاده امسّ، و عبارة أخرى عن‏ «جاهَدُوا فِينا»: جاهدوا في اللّه كما «وَ جاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهادِهِ» المخاطب فيها أهل اللّه الخصوص حيث تتلوها- «هُوَ اجْتَباكُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ ..» (22: 78) «1».

ففي (30) موضعا من القرآن المذكور فيها المجاهدة بصيغها المختلفة لا نجدها في اللّه إلّا في هاتين، ثم البقية بين في سبيل اللّه ام مطلقها بالأموال و الأنفس أ ماذا؟ مما يدل على أن المجاهدة في اللّه هي القمة المرموقة منها بين درجاتها.

فهنا جهاد في سبيل اللّه يؤمر به كل من يؤمن باللّه، ثم جهاد في اللّه يؤمر به أهل اللّه الخصوص، فيعدهم هنا «لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا» و هي غير سبيل اللّه الواضحة لكل من يجاهد فيها.

فالسبل الربانية الغامضة التي لا يهتدي إليها إلّا بالجهاد في اللّه، و هي عدة حسب عدّات الجهاد في اللّه عدّاته، إنها ليست سبيل اللّه المعروفة لكافة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: هذه الآية لآل محمد عليهم السلام و لأشياعهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 106

المكلفين المأمورين بالجهاد فيها.

إذا فللجهاد ترتيب ثلاثي: في سبيل اللّه- في اللّه- ثم الاهتداء إلى سبل اللّه، و المحسنون هنا هم‏ «الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا ... وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» معية الرحمة الواصبة التي فيها هداية سبل اللّه معرفية و علمية و عملية أماهيه، و هي بصيغة أخرى جنّة معرفية.

ثم «في اللّه» و «فينا» كما تختلفان رتبة عن‏ «فِي سَبِيلِ اللَّهِ» كذلك بينهما، فقد يفوق الجهاد في اللّه- كما في آية الحج للوسطاء الشهداء بين الرسول و الأمة- يفوق الجهاد فينا كما هنا.

فهو في اللّه لا يعني إلّا اللّه لأنه اللّه، جهادا معرفيا أو عمليا، و هو فينا قد يعني صفات اللّه كما و أسماؤه الحسنى حيث الجمع في «فينا» كاضرابها يعني جمعية الصفات، ثم هو في سبيل اللّه أدنى الجهاد مهما عم التكليف به لكافة المكلفين.

«الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا» هم الوسط بين الذين جاهدوا في اللّه و الذين جاهدوا في سبيل اللّه، و الجهاد في اللّه بجمعية صفاته، ألّا ينحو فيه المجاهد إلّا منحاه، تغافلا عن نفسه و مناها إلّا إياه، متدينا إلى اللّه متدليا باللّه، و عند ذلك‏ «لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا» ككل، لأنه استخدم جهاده «فينا» ككل، و أن ليس للإنسان إلّا ما سعى.

و هكذا يعدنا ربنا- و من احسن من اللّه وعدا- ان الجهاد في اللّه يخلّف الاهتداء إلى سبل اللّه، و هي سبل السلام على ضوء نوره و كتابه المبين، بتبيين رسوله الأمين: «... قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (5: 16).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 107

فالجهاد في اللّه هكذا سبيل إلى «سبلنا» و هي سبيل إلى «صراط مستقيم» و هو الغاية المرموقة المقصود للسالك إلى اللّه، و الطرق إلى اللّه بعدد أنفاس الخلائق! فهناك سبل المرسلين: «وَ ما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَ قَدْ هَدانا سُبُلَنا وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلى‏ ما آذَيْتُمُونا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» (14: 12).

و هنا سبلهم و كافة المجاهدين‏ «لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا» «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏»، ثم: «أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» (6: 153). فالمجاهدات و الارتياضات غير الموافقة لشرعة القرآن هي كلها هباء و خواء، قالة أم حالة أم فعالة،

«لا قول إلا بعمل، و لا قول و لا عمل إلا بنية، و لا قول و لا عمل و لا نية إلا بإصابة السنة»

و هي سنة اللّه على ضوء القرآن و السنّة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 109

سورة الرّوم مكيّة و آياتها ستّون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 111

[سورة الروم (30): الآيات 1 الى 18]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4)

بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (6) يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ (7) أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ (8) أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9)

ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى‏ أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ (10) اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (11) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12) وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وَ كانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ (13) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (14)

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (15) وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (16) فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ (17) وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ (18)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 113

سورة «الروم» هي المنقطعة النظير بين سائر السور القرآنية تسمّيا باسم قطر من أقطار الأرض، في حين لم تسمّ سورة بقطري الوحي القرآني مكة و المدينة، و علّ ذلك الإختصاص لملابسة خاصة وقت نزولها تقتضي تلك التسمية، هي ان غلب الروم الموحدين في أدنى الأرض من المشركين الإيرانيين كان قد قوى ساعد المشركين في الجزيرة أن غلبوا إخوانهم، و كسر ساعد المسلمين ان غلب إخوانهم من أهل الكتاب، فليسمّ الروم غالبا و مغلوبا جبرا لذلك الكسر في نفوس المسلمين، و زيادة تحمل ملحمة غلب الروم على الفرس في بضع سنين.

و ليست لتقف السورة- بعد- على تلك الغلبة الموعودة في حدود ذلك الحادث الجلل، فانما هو مناسبة وقتية لينطلق بهم فيها إلى آماد أوسع من غلب المسلمين مشركي الجزيرة، و يا له و لغلب الروم من قران عجيب إذ غلبوا في بدر و هم أذلة، و غلب معهم الروم بعد تسع من ذلك الوعد على الفرس، و هم أذلة و «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ».

و يا له من غزير النصر الموعود و المسلمون في مكة مهدّدون مستضعفون، تتواتر عليهم النوازل السوء في كل الحقول، و ليسوا يعتمدون إلّا على نصر من اللّه و روح و رضوان! الم‏ 1.

هي الثانية في المكيات الأربع حسب ترتيب التأليف، و الثالثة بعد الأولى منها و هي البقرة المدنية الوحيدة في «الم» و المجموع خمس رمزا إلى ما يعرفه من خوطب بها فانها من مفاتيح كنوز القرآن.

غُلِبَتِ الرُّومُ 2 فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ‏ 3.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 114

«الأرض» هنا هي أرض الحجاز بقرينة الروم، و هم قوم كانوا يسكنون ساحل البحر الأبيض المتوسط بالمغرب، لهم امبراطورية شاسعة إلى اعماق الشامات و هي سوريا و الأردن و القدس و لبنان و العراق الحالية.

«أَدْنَى الْأَرْضِ» هي الأدنى من الروم الى الحجاز، فقد غلب الروم في عقر بلادهم بأبعد الأعماق، أن حلّقت حرب الفرس على الروم كله فغلبت عليهم في أدناها إلى الحجاز و هي أبعدها من الفرس، مما يدل على آماد الانكسار الشامل كل بلادهم: و «غلبهم» هنا مصدر بمعنى المفعول إذ احتفت ب «غُلِبَتِ الرُّومُ‏ ... سَيَغْلِبُونَ»، و غلبهم عليهم بعد ما غلبوا، في أصلها و في الوقت المحدد «بِضْعِ سِنِينَ» تحمل ملحمتين اثنتين، أن يقوم هؤلاء المكسورون المحطّمون عن بكرتهم على سوقهم لحدّ سيغلبون كما غلبوا، و ذلك في أقل من عشر سنين و هي التسع الموافي لغلب المسلمين في بدر، قرانا منقطع النظير في غلب الضعفاء المؤمنين على الأقوياء الأغوياء المشركين، و هذان لا يلائمان التقويمات العسكرية في نفس الوقت الذي غلبت الروم انهم‏ «سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ».

فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ 4 بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ‏ 5.

«بضع» هي مادون العشرة، من ثلاثة إلى تسعة، كما في السنة «1» و في اللغة، و هذه نبوءة صادقة بائقة تبشر بتلك الغلبة الفائقة، يعرف الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) مداها، مهما لم يحد في‏ «بِضْعِ سِنِينَ» إلا تقريبا قريبا، و علّه كيلا يفاجأ الوحي بتكذيب في عجالة عارمة، فلقد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الدر المنثور 5: 151- اخرج في أحاديث عدة عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ان البضع ما بين الثلاث إلى العشر، رواه عنه نيار بن مكرم و قتادة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 115

كانت فارس ظاهرة على الروم مما كان يحبه المشركون، و كان المسلمون يحبون ظهور الروم على الفارس لأنهم اهل كتاب يشاركونهم في التوحيد و الايمان الكتابي، فلما أنزلت‏ «غُلِبَتِ الرُّومُ ..» قالوا- فيما قالوا-: يا أبا بكر إن صاحبك يقول: ان الروم تظهر على فارس في بضع سنين؟ قال: صدق، قالوا: هل لك ان نقامرك؟ فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين فمضت السبع و لم يكن شي‏ء ففرح المشركون بذلك فشق على المسلمين‏

فذكر ذلك للنبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فقال: ما بضع سنين عندكم؟

قالوا:

دون العشر- قال: اذهب و ازدد سنتين في الأجل، قال فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس‏ «2» و قد غلب المسلمون حينه ببدر ففرح بذلك المؤمنون فرحتين» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(2) المصدر أورد بهذا المضمون أو ما يقرب منه أحاديث عدة عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

(3)

المصدر و مما أخرجه فيه بهذا الصدد ما عن ابن عباس في الآية قال: قد مضى كان ذلك في أهل فارس و الروم و كانت فارس قد غلبتهم ثم غلب الروم بعد ذلك و التقى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) مع مشركي العرب و التقى الروم مع فارس فنصر اللّه النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و من معه من المسلمين على مشركي العرب و نصر اهل الكتاب على العجم، قال عطية و سألت أبا سعيد الخدري عن ذلك فقال: التقينا مع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و مشركي العرب و التقت الروم و فارس فنصرنا على مشركي العرب و نصر أهل الكتاب على المجوس فذلك قوله: و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللّه.

و

فيه (152) اخرج ابن جرير عن عكرمة ان الروم و فارس اقتتلوا في ادنى الأرض- قال: و ادنى الأرض يومئذ أذرعات بها التقوا فهزمت الروم فبلغ ذلك النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و أصحابه و هم بمكة فشق ذلك عليهم و كان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يكره ان يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم و فرح الكفار بمكة و شتموا فلقوا اصحاب النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فقالوا انكم اهل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 116

و ذلك مما يوحي بترابط وثيق عميق بين الكفر و الشر أيا كان و أيان، و كذلك الترابط بين كتلة التوحيد و الايمان.

و هكذا انتبه المؤمنون على عهد الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) على ضوء دعوته الشاملة أن ليس الايمان محصورا بحصار زمان أو مكان كما الشرك، فالكفر ملة واحدة كما الايمان، فهما خارجان عن كافة الحدود التاريخية و الجغرافية و الجنسية و القومية أماهيه؟

فالمعركة في صميمها هي معركة الايمان و الكفر بين حزب اللّه و حزب الشيطان أيا كانوا و أيان، و المسلمون يد واحدة على من سواهم تسعى بذمتهم أدناهم، دون ان تفصل بينهم حدود الزمان و المكان و سائر الابعاد و الألوان، حيث تجمعهم كلمة التوحيد، فلهم إذا توحيد الكلمة في كافة الأعصار و الأمصار.

و ما أحوج المسلمين اليوم أن يدركوا طبيعة المعركة المتواصلة بين الكتلتين، فلا تلهيهم أعلام مزخرفة زائفة من الضفة الكافرة، المخيّلة إليهم أنهم أحزاب متفرقة، فإنهم ككلّ يحاربون الموحدين على العقيدة مهما تنوعت ألوان العلل و قضايا الأسباب.

هنا «يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ» إياهم في الحربين المقارنتين، كما «بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ» اللّه «من يشاء» فقد حصل بعد الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في حرب المسلمين الفرس فتغلبوا عليهم و هذا من تأويل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

كتاب و النصارى اهل كتاب و قد ظهر إخواننا من اهل فارس على إخوانكم ان قاتلتمونا لنظهرن عليكم فانزل اللّه‏ «الم. غُلِبَتِ الرُّومُ» فخرج ابو بكر الى الكفار فقال: فرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا فلا تفرحوا- إلى آخر القصة-».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 117

آية النصر «4» ثم نصر متواصل للمسلمين ما قاموا بشرائط الإسلام: «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ» (3: 111).

«يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ» اللّه فيشاءه اللّه، و من يشاء منهم النصر بتقديم أسبابه فيشاء اللّه له النصر بأسباب غيبية، «وَ هُوَ الْعَزِيزُ» الغالب «الرحيم» بكتلة الايمان القائمة بشرائطه، فهناك- إذا- على طول الخط انتصارات متصلة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(4)

نور الثقلين 4: 168 في روضة الكافي ابن محبوب عن جميل بن صالح عن أبي عبيدة قال: سألت أبا جعفر (عليه السلام) عن هذه الآية فقال: يا أبا عبيدة ان لهذا تأويلا لا يعلمه إلّا اللّه و الراسخون في العلم من آل محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) لما هاجر إلى المدينة و اظهر الإسلام كتب الى ملك الروم كتابا و بعث به مع رسوله يدعوه إلى الإسلام و كتب إلى ملك فارس كتابا يدعوه إلى الإسلام و بعثه اليه مع رسوله فاما ملك الروم فعظم كتاب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و أكرم رسوله و اما ملك فارس فانه استخف بكتاب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و مزقه و استخف برسوله و كان ملك فارس يومئذ يقاتل ملك الروم و كان المسلمون يهوون ان يغلب ملك الروم فارس و كانوا لناحيته أرجى منهم لملك فارس فلما غلب ملك فارس ملك الروم كره ذلك المسلمون و اغتموا به فانزل اللّه بذلك كتابا قرآنا:

«الم. غُلِبَتِ الرُّومُ ..» يعني غلبتها فارس في ادنى الأرض و هي الشامات و ما حولها و «هم» يعني فارس يغلبهم المسلمون‏ «فِي بِضْعِ سِنِينَ ..» فلما غزى المسلمون فارس و افتتحوها فرح المسلمون بنصر اللّه عز و جل.

قال: قلت: أ ليس اللّه عزّ و جل يقول: في بضع سنين «و قد مضى للمؤمنين سنون كثيرة مع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و في امارة أبي بكر و انما غلب المؤمنون فارسا في امارة عمر؟ فقال: الم اقل لك ان لهذا تأويلا و تفسيرا، و القرآن يا با عبيدة ناسخ و منسوخ اما تسمع لقول اللّه عز و جل‏ «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ» يعني اليه المشية في القول ان يؤخر ما قدم و يقدم ما أخر في القول الى يوم يحتم القضاء بنزول النصر على المؤمنين و ذلك قوله‏ «وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ» اي يوم يحتم القضاء بالنصر».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 118

الجهات، متشابهة في شروطات حسب القابليات و الفاعليات ثم‏ «الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ».

و على أية حال‏ «لِلَّهِ الْأَمْرُ» في النصر «مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ» لا سواه، كما

«له الأمر من قبل أن يأمر به و له الأمر من بعد ان يأمر به بما يشاء» «5»

تكوينيا أو تشريعيا.

وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ‏ 6.

«وَعْدَ اللَّهِ» قد يكون مفعولا مطلقا ل «وَعْدَ اللَّهِ» ام مفعولا لمثل «صدقوا» و هو على اية حال تأكيد أن: «سيغلبون» وعد من اللّه محتوم و «لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ» حيث الخلف ليس إلّا عن جهل أو عجز أو بخل أو ظلم أو نسيان إمّا ذا من نقص فيمن وعد، و اللّه بري‏ء عن كل ذلك فلا خلف لوعده، فانه صادر عن علمه و إرادته الطليقة و حكمته العميقة، قادرا على تحقيقه، و لا رادّ لإرادته، و لا معقّب لحكمه، «وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» وعد اللّه، و لا أنه لا يخلف الميعاد، و هم غير المؤمنين باللّه، انهم لا يعلمون كناس منقطعين عن الأيمان و وحيه وعد اللّه و إنجازه، فحقا إنهم لا يعلمون، و إنما:

يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ‏ 7.

هنا «يعلمون» بديلا عن «لا يعلمون» إعلان صارخ أن علمهم هذا جهل أمام العلم الحق الحقيق بالإنسان، ثم هي استثناء عن «لا يعلمون» تستثني ضئيلا من العلم يختص ظاهرا من الحياة الدنيا، فأصل العلم هو العلم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(5) نور الثقلين 4: 170 في الخرائج و الجرائح في أعلام الحسن العسكري (عليه السلام) و منها ما قال أبوها سأل محمد بن صالح أبا محمد (عليه السلام) عن قوله تعالى‏ «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ» فقال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 119

الإيمان الإيقان بالمبدء و المعاد و ما بين المبدء و المعاد، من الواجب معرفته أخذا من المبدء وحيا و سواه، و انتهاء إلى المعاد لقاء للرب.

ثم العلم بالحياة الدنيا إذا كان ذريعة إلى الشعور الكامل بزوالها، و منظارا للنظر إلى عواقبها، و معيارا للعمل الصالح فيها لأخراها، فهو علم بباطنها إبصارا بها حيث تبصر أصحابها، دون الإبصار إليها كمنتهى و غاية فانها- إذا- تعميهم.

هؤلاء الأغبياء إنما «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا» فقد يعلم باطنها بملكوتها و يركن- رغم ذلك العلم- إليها، أو يعلم كل ظواهرها و مظاهرها دون باطنها فأجهل بالحق و أنكى، ذرهم يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا، ألم يعلموا أن لها مبدء و معادا؟.

أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ‏ 8.

فقضية تكوينهم ان يفكروا كيف كوّنوا و من كوّنهم و لما ذا؟ و ان يتفكروا في أنفسهم- دون اقتصار على ظاهر من الحياة الدنيا- يتفكروا أنه‏ «ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ»: بسبب الحق و غايته و مصلحته و مصاحبته، و إلّا ب «أَجَلٍ مُسَمًّى» حيث الكون بنفسه دليل على ضرورة نهايته كما يدل على بدايته للفقر الذاتي فيه، «و» لكن‏ «إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ» و هم النسناس منهم‏ «بِلِقاءِ رَبِّهِمْ» في ربوبية الجزاء يوم الآخرة «لكافرون» كفرا مصلحا عامدا، ام تجاهلا و تغافلا.

ويكأنهم منفصلون عن نفوسهم الإنسانية إذ انقطعت عن أنفسها و انجذبت إلى ظاهر من الحياة الدنيا، فلا تسمح لهم أن يبصروا بها حتى يتبصّروا و إنما يبصرون إليها فيعمهون كل عاقل ذي نفس إنسانية لمّا يسبر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 120

أغوار نفسه و هو يرى خلق الكون، لا بد و أن يرى له غاية مقصودة ترجع إلى الكون نفسه و أنفس نفيسه و هو الإنسان، فلو لم تكن حياة أخرى بعد الدنيا لكان الخلق لغوا، ام لغاية جاهلة قاحلة هي الحياة الدنيا! فكيف إذا هم‏ «يَعْلَمُونَ ظاهِراً» دون كل ظواهرها، ظاهرا من حيونة الحياة ضئيلا زهيدا قليلا هزيلا، متبهّجين بها، مخلدين إليها، متمتعين بها، مستزيدين متزايدين بشهواتها و زهواتها، ملتهين بلهواتها، كأنها هي الحياة لا سواها «وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ».

«هم» الثانية هنا تأكيد أنهم لا سواهم غافلون عن الآخرة، حيث العالم بكل ظواهرها، و العالم بباطن لها ام كل باطن لها، لا بد و ان يذكر الآخرة المتلمعة منها.

و لأن الغفلة ليست إلّا عن أمر حاصل، فلا بد أن العلم بالدنيا كما يحق يضم العلم بحق الأخرى، فالحياة الآخرة علما بها و تحقيقا لها هي من محاصيل الحياة الدنيا، حيث النظر الصائب إليها يذكّر الناظر الحياة الأخرى، و العمل الصالح فيها يحضّر حياة الحيوان في الأخرى.

كل ظواهر الحياة الدنيا محدودة معدودة، فضلا عن‏ «ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا» مهما بدا لأهلها شاسعا ناصعا، و الآخرة هي الحلقة الأخيرة الدائبة في سلسلة النشآت الحيوية، فكلما بعدت آماد العلوم و الأنظار في هذه الحياة، طليقة عنها إلى حقيقتها الحاضرة و المستقبلة، و اتسعت الآفاق في تلك المطلّعات و النظرات، كانت حصيلة العلم بالآخرة أزهى و أضحى، و أصحابها أبصر بالحق الطليق و أبعد عن العمى، و على حدّ

قول الامام علي (عليه السلام) في وصفها: «من أبصر بها بصرته و من أبصر إليها أعمته».

أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 121

كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوها أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ‏ 9.

و إذا لم يعلموا هم في أنفسهم إلّا ظاهرا من الحياة الدنيا إذ لم يتفكرا فيها فغفلوا عن الأخرى‏ «أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» سيرا آفاقيا بعد التغافل عن السير الأنفسي «فينظروا» نظر التعقل و التفكير و الإعتبار «كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» من المشركين أضرابهم، أن أخذهم عذاب الهون بما كانوا يكسبون و قد «كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً» عدّة و عدّة «وَ أَثارُوا الْأَرْضَ» إثارة الزرع و العمار «و عمروها» بمختلف العمار «أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها» و هم كما أنتم‏ «جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ» فجحدوا بها «فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ» أن يعذبهم دون حجة «وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» بما كذبوا و ما عذّبوا.

ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّواى‏ أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ‏ 10.

«عاقبة» خبر مقدم ل «كان» فقد يكون اسمها «السوأى» ام «ان كذبوا» و «السوأى» مفعول أساءوا، و هي كالحسنى و ضدها في المعنى، مؤنث الأسوء: «وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ» (41: 27) «لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا» (39: 35).

فالمعنى على كونها الاسم المؤخر أن عاقبتهم أسوء من حاضرتهم، فحياتهم الحاضرة سيئة بكفرهم و عذاب الاستئصال، و الحياة العاقبة لهم من الرجعة و البرزخ و القيامة هي السوأى، أن كذبوا بآيات اللّه، فقد كان السوأى عاقبتهم بما كذبوا، و ليست السوأى هي الأسوء من سوئهم لأنه خلاف‏ «جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها» بل هي الأسوء من دنياهم، رغم انها دار الحيوان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 122

و على الثاني، ثم كان التكذيب بآيات اللّه عاقبة الذين أسئوا السوأى، ان خلّفت سوآهم في سيئاتهم أن كذبوا بآيات اللّه.

و لكن «السوأى» لا تصلح مفعولا ل «أساءوا» فانها لا تساء إلّا تحصيلا للحاصل بل الأحصل، ثم التأنيث لا يناسب المقام، بل هو- إن صح- أساء الأسوء، اي: عملوا الأسوء، كما «لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ».

فالتعبير الصحيح الفصيح عن مفعولية «السوأى» هو «عملوا الأسوء» تبديلا لكل من الفعل و المفعول، ثم يبقى- إذا- «وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ» عطفا لا يناسب السبب «ان كذبوا» لأنه مع «السوأى» ردفا مفعوليا، لا مع «كذبوا» ردفا سببيا.

إذا فالاسمية لها هي المتعينة، ان الحياة السوأى هي عاقبتهم في رجعة ثم برزخ ثم القيامة الكبرى، رغم ان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون، و قد بدلوها بسوأى الحياة بما كانوا يعملون.

ان التكذيب بآيات اللّه و الاستهزاء بها هما الحياة الجهنمية في الأولى، حيث يخلّفان أسوء الأعمال بأسوء الأحوال، فعاقبتهم هنا عذاب الاستئصال، و هي الجهنمية الأولى، «ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا» هكذا و ابتلوا باستئصال هي «السوأى» التي تعقبهم بعد الموت، برزخا و رجعة و قيامة كبرى، خلاف ما «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى‏ وَ زِيادَةٌ».

و «ان كذبوا ..» قد تكون بيانا ل «أساءوا» دون حاجة إلى تقدير ام سببا ل «السوأى» ام هما معنيان جمعا بينهما، ان إساءتهم هي تكذيبهم و استهزاءهم، و هي هي السبب ان كان عاقبتهم السوأى، و هي أسوء العواقب على الإطلاق دون مفضل عليه هو السوء في الدنيا، ام بمفضل عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 123

هو عذاب الاستئصال بتكذيبهم، و علّهما معا معنيّان، و لمعرفة العاقبة السوءى للذين أسئوا و كذبوا بآيات اللّه، يؤمرون ان يسيروا في الأرض، دون انعزالية عن ذلك السير المبصر المذكر، ساكنين في أمكنتهم كالقوقعة، ام سائرين في الأرض حيوانيا و شهوانيا، و انما هو السير الإنساني العاقل الكافل بالإبصار لهؤلاء الغافلين عن المساير و المصاير.

اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ‏ 11.

منه البداية و منه الإعادة و الرجوع اليه في النهاية، إعادة إلى حياة في الأخرى، ثم رجوعا إلى اللّه جزاء حسابا، ثوابا و عقابا، و البداية هنا هي أعم من الإعادة حين يعنى منها الإعادة للحساب كما تؤيده‏ «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» أم هما سيان، حيث يبدأ كل خلق ثم تقوم قيامة الإماتة و التدمير، الشاملة لكل خلق، ثم يعيد اللّه كل الخلق قسما للرجوع إليه حسابا، و قسما بلا حساب، بل هو أمكنة السكنى لهم كما في الحياة الدنيا، مهما كانت أوسع كما الآخرة هي أحيا منها.

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ 12 وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وَ كانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ‏ 13.

الإبلاس هو الإياس مع حيرة، و تراه كيف يختص ب «يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ» و هم آيسون في البرزخ كما عند الساعة؟ علّ الساعة هنا هي ساعة الموت مستمرة إلى ساعة الساعة فهم فيها ككل مبلسون! ام ان إبلاسهم في البرزخ برزخ من الإبلاس و هو إياس مع رجاء، إذ لم يجزوا بعد جزاءهم الأوفى، فقد يبقى لهم رجاء إلى رحمة اللّه حيث يرون خفيف العذاب، و يوم تقوم الساعة يتم إبلاسهم بما يرون من شديد العذاب و مديده، فاليوم إذا هو يوم الإبلاس الإفلاس و قد فات رجاء الخلاص و لات حين مناص، و لم يكن في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 124

البرزخ كامل الإبلاس، و لم يكن إياسه- إذا- إبلاسا، إذ كان معه رجاء! و اضافة إلى ذلك الإبلاس الإياس‏ «وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ» و قد كانوا يرجون شفاعتهم فانقطع الرجاء، إياسا بعد إياس.

و قد تعني «يبلس» كلا الإبلاسين، من اللّه و من شفعائهم‏ «وَ كانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ» أ تراهم كانوا بهم كافرين يوم الدين؟ و صحيح التعبير و فصحيه «كفروا بشركائهم» أو «يكفر بعضهم ببعض»! ام «كانوا» قبل الساعة» يوم الدنيا؟ و قد كانوا بهم مؤمنين يرونهم شفعاءهم عند اللّه! قد تعني «كانوا» بين النشأتين و هم في البرزخ حيث يكفرون هناك بشركائهم، و لكن كفر معه رجاء حيث الشفاعة سلبية و إيجابية لا تظهر إلّا يوم القيامة، ففيه‏ «وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ» و الحال أنهم «كانوا» قبله بشركائهم كافرين.

ام ان «كانوا» تعبير ماض عن مستقبل متحقق الوقوع، عناية إلى كفرهم بهم يوم الدين، ام هي تشمل كفرهم بهم في البرزخ و الأخرى.

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ‏ 14.

هؤلاء المجرمون يتفرقون عن المؤمنين: «وَ امْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ» (36: 59) خلاف ما كانوا يحسبون: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ» (45: 21).

كما هم يتفرقون فيما بينهم و بين شركائهم، و بينهم و بين أنفسهم، تفرقا عن الحب يوم الدنيا، حيث‏ «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» (43: 67) فتفرق الفرار بعضهم عن بعض‏ «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَ أُمِّهِ وَ أَبِيهِ. وَ صاحِبَتِهِ وَ بَنِيهِ» (80: 36) و تفرقا في دركاتهم هناك حسب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 125

دركاتهم في الأولى و من التفرق الأول:

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ‏ 15.

الروضة هي مستنقع الماء و الخضرة و هي في الجنة: «... وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فِي رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ ما يَشاؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» (44: 22) و «رَوْضاتِ الْجَنَّاتِ» هي محاسنها و ملاذها بمياهها و خضرها و سائر مشتهياتها مادية و سواها.

و «يحبرون» من الحبر: الأثر المستحسن، فقد تعني انهم يظهر عليهم حبار نعيمهم ككلّ من ملاذ سمعية و بصرية و ذوقية و لمسية و شمية أمّاهيه من مادية أو روحية دون إبقاء، فإنهم هناك ضيوف اللّه و في دار كرامة اللّه، فلا حدّ لحظوتهم.

ليس انهم يلتذون بما كان محرما عليهم يوم الدنيا، بل بالحلّ المستدام بكل وئام و إكرام و قد

«قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): إذا كان يوم القيامة قال الله: اين الذين كانوا ينزهون أسماعهم و أبصارهم عن مزامير الشيطان ميزوهم في كثب المسك و العنبر ثم يقول للملائكة أسمعوهم من تسبيحي و تحميدي و تهليلي، قال: فيسبحون بأصوات لم يسمع السامعون بمثلها قط» «6».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(6) الدر المنثور 5: 153- اخرج الديلمي عن جابر قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): ... و

فيه اخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي هريرة قال‏ قال رجل يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) اني رجل حببت إلى الصوت الحسن فهل في الجنة صوت حسن؟ فقال: اي و الذي نفسي بيده ان اللّه يوحي الى شجرة في الجنة ان اسمعي عبادي الذين اشتغلوا بعبادتي و ذكرى عن عزف البرابط و المزامير فترفع بصوت لم يسمع الخلائق بمثله من تسبيح الرب و تقديسه،

و

فيه اخرج الحكيم الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) من استمع إلى صوت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 126

اجل و ليس الصوت الحسن محرما هنا لحسنه، و انما هو الملهي حسنا و سواه، و هو مزمار الشيطان‏ «7» دون ذكر الرحمن في قرآن و سواه حيث التحسين فيه مرغوب مرحوب، و تلك هي ضفة الايمان:

وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ‏ 16.

و اين محضرون في العذاب و محبرون في روضة الثواب؟ رحمة على رحمة و عذابا فوق العذاب؟

فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ 17 وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ‏ 18.

«سبحان» اسم مصدر و هو التسبيح و قد جعل علما له و يستعمل استعماله، و لكن حاصل المصدر ملحوظ معه على أية حال، و هو هنا مفعول محذوف هو طبعا سبّحوا أو أسبح ام هما، ان اللّه يسبح نفسه تنزيها عما لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

غناء لم يؤذن له ان يسمع الروحانيين في الجنة، قيل و من الروحانيون يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال: قراء أهل الجنة.

(7)

نور الثقلين 4: 171 عن المجمع بسند متصل عن أبي امامة الباهلي ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال: ما من عبد يدخل الجنة إلا و يجلس عند رأسه و عند رجليه ثنتان من الحور العين تغنيانه بأحسن صوت سمعه الانس و الجن و ليس بمزمار الشيطان، و لكن بتمجيد اللّه و تقديسه».

و

فيه عن أبي الدرداء قال‏ كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يذكر الناس فذكر الجنة و ما فيها من الأزواج و النعيم و في القوم اعرابي فجثا لركبته و قال يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) هل في الجنة من سماع؟ قال: نعم يا اعرابي، ان في الجنة نهرا حافتاه الأبكار من كل بيضاء يتغنين بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها قط فذلك أفضل نعم الجنة، قال الراوي سألت أبا الدرداء بم يتغنين؟ قال: بالتسبيح.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 127

يناسب ساحته، و يأمرنا كذلك ان نسبحه كما سبح هو نفسه، و لكن‏ «حِينَ تُمْسُونَ» تؤصّل تسبيحنا له إذ هو تعالى لا يسبح نفسه- فقط- في هذه الأوقات، و إنما نحن نسبحه فيها كما هو يسبح نفسه دوما و دونما انقطاع بآياته الآفاقية و الأنفسية إمّا هيه من خلقه تسبيحا منفصلا، كما و ان ذاته و صفاته ذاتية و فعلية تسبيحات لنفسه المقدسة.

«فسبحان» هنا تفريع على ما قدّم من مشاهد الدنيا و الآخرة لضفّتي الايمان و الكفر، بفوز المؤمنين أنهم‏ «فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ» و خوض الكافرين في الجحيم انهم‏ «فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ»، إذا كانت عاقبة الذين أسئوا السوأى و عاقبة المؤمنين الحسنى‏ «فَسُبْحانَ اللَّهِ» ايها المؤمنون ...

«فَسُبْحانَ اللَّهِ» هنا يحلّق على الأوقات الرئيسية المؤقتة للمفروضات الخمس الرئيسية، و على هوامشها سائر الأوقات حيث تتبعها.

«وَ لَهُ الْحَمْدُ» تختص الحمد للّه باللّه في كل مكان المعبر عنه بالسماوات و الأرض، و قد توسطت‏ «لَهُ الْحَمْدُ» لأمكنتها بين سبحان اللّه في أزمنتها، تحليقا للحمد له على كل زمان و مكان دون إبقاء، فهي جملة معترضة في أدب اللفظ، و صحيحة بدورها في حدب المعنى.

و لأن‏ «فَسُبْحانَ اللَّهِ» هي بإمكان المكلفين بها ككلّ، تاتي هنا بظاهرة الأمر، و لكن الحمد للّه ليست هي بإمكان الكل لأنها وصف له ايجابي‏ «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ» (37: 159) تأتي هنا الظاهر الخبر «وَ لَهُ الْحَمْدُ» و ما أجملها في صيغة التعبير، و ما ارتبهما في ترتيب الذكر العبير، مهما دلت آيات اخرى على فرض التسبيح بالحمد، و قد تعني هذه الأوقات الأربع الخمس من أوقات الفرائض الخمس بضم العشائين مع بعض في «عشيا» الشامل لطول الليل، الحاوي لفرضيه، دون «تعشون»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 128

المختص ببداية الليل الخاصة بفرضه الأوّل: المغرب، و هذا هو السبب لاختلاف «عشيا» اسما عن الثلاثة الأخرى «تمسون- تصبحون- تظهرون» أفعالا.

«حِينَ تُمْسُونَ» هي العصر المحدّد في النهاية بغروب الشمس، كما «حِينَ تُصْبِحُونَ» هي الفجر المحدد بطلوعها: «و سبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس و قبل غروبها و من ءانائ الليل فسبح و أطراف النهار لعلك ترضى» (20: 130)- «.. وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ الْغُرُوبِ. وَ مِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَ أَدْبارَ السُّجُودِ» (50: 40).

هنا و هناك نؤمر بالتسبيح بالحمد، حيث التسبيح و هو الأصل في ذكر اللّه في صلاة و سواها، انه يستكمل بالحمد، ان نحمده مسبحين إياه عما لا يحمد حمده به من صفات زائدة على الذات، أو محدودة بحدود أفكارنا و عقولنا، فحين نقول «لا يجهل» فقد سبحناه مجردا، و حين نقول «هو العالم» علينا ان نحوله إلى أنه لا يجهل، فالأصل الشامل في حمدنا له هو تسبيح بالحمد، الراجع إلى سلب، كما التسبيح المجرد سلب، فلا نملك تجاه اللّه إلّا معرفة السلبيات و لا سبيل لنا إلى تفهم ايجابيات الصفات لا الذاتية منها و لا الفعلية، اللهم إلّا طرفا منها سطحيا حين نسبر اغوار الكون في آياته الآفاقية و الأنفسية.

«حِينَ تُمْسُونَ» هنا هي وقت العصر، و علّه يتقدم هنا على سائرها حيث الإنسان خالص- في الأكثر- عن أشغاله فيه، فعليه أن يسبح اللّه فيما حصل و ما هو حصّل، أن ليس من اللّه في أيّ منهما قصور أو تقصير.

ثم‏ «وَ حِينَ تُصْبِحُونَ» علينا أن نسبّحه حين ندخل في الصباح و هو الفجر الصادق، و نتبنى الفجر الى العصر و إلى فجر آخر تسبيحا للّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 129

ثم بينهما و هما ركنا الأوقات الخمسة «و عشيا» بالعشائين المفصول بينهما بقدر و هو ساعة أو سويعات كما يستفاد من آية النور «وَ مِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشاءِ ..»، ثم بين الفجر و العصر «وَ حِينَ تُظْهِرُونَ» و الإنسان غارق في خضمّ الأشغال، مارق عن عبادة ربه بطبيعة الحال، فليحلّق التسبيح بحمد الرب هذه الأوقات الرئيسية على مختلف درجاتها و درجات الصلوات فيها، و أفضلها حسب آية الأسرى قرآن الفجر، و ضمن آية الصلاة الوسطى صلاة الظهر، ام صلاة الجمعة الوافية للظهر، و على حد

المروي عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في الآية هي الصلوات التي امرني ربي بها «8».

كما يحلق حمده على كل الكائنات‏ «وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ».

[سورة الروم (30): الآيات 19 الى 29]

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (19) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (21) وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ (22) وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (23)

وَ مِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (24) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25) وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (26) وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى‏ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28)

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (29)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(8)

نور الثقلين 4: 172 في من لا يحضره الفقيه و روى عن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهما السلام‏ انه جاء نفر من اليهود إلى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فسأله أعلمهم عن مسائل فكان فيما سأل قال: اخبرني عن اللّه عزّ و جل لأي شي‏ء فرض هذه الخمس الصلوات في خمسة مواقيت على أمتك في ساعات الليل و النهار- الى ان قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): فوعدني ربي ان يستجيب لمن دعاه فيها و هي الصلات التي امرني ربي بها في قوله: فسبحان اللّه .. «.

و في الدر المنثور 5: 154 جاء نافع بن الأزرق الى ابن عباس فقال: هل تجد الصلوات الخمس في القرآن؟ قال: نعم فقرأ هذه الآية- و اخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير و ابن المنذر عن ابن عباس قال: جمعت هذه الآية مواقيت الصلاة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 131

يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ‏ 19.

سنة دائبة ربانية لا تني و تفشل لحظة واحدة، خارقة مكرورة على اية حال قد لا نحسبها خارقة لطول الألفة، و هي إخراج الحي- نباتيا أو حيوانيا أو انسانيا- من الميت، و إخراج الميت كذلك من الحي، بصورة عامة في كل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 132

كائن ميت وحي، ثم بصورة خاصة: «وَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها» حسب اختلاف الفصول «و كذلك» الذي يخرج الحي و يحيى الأرض أنتم «تخرجون» من أجداثكم أحياء، ثم و كما أنه يحيي الأرض هنا لصالح الحيوية الدنيوية بصورة عامة، ثم خاصة هي إحياءها بالعدل‏ «9»، كذلك يحييها بعد قيامتها لصالح الحيوية الأخروية بكل عدل‏ «إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ».

فإحياء الأرض بمن عليها بالحياة الحيوان أحرى من إحياءها بالحياة الدنيا «وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ» عند إحياءها بعد إماتتها، إخراجا لكم أحياء عن أرض تحيى بعد موتها.

إذا فليس الإحياء بعد الموت بدعا من الإحياء غريبا يستغربه الناكرون، بل هو قريب لكل من ألقي السمع و هو شهيد، فيستقر به المؤمنون انكم: «كَذلِكَ تُخْرَجُونَ»:

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ‏ 20.

و من آيات إخراجكم كذلك بعد ما تموتون‏ «أَنْ خَلَقَكُمْ ..» فمن الذي يقدر ان ينكر خلقه من تراب، إخراجا له حيا من ميت التراب «ثم إذا» بمفاجأة تعيشونها على مدار الحياة «أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ» لحاجياتكم الحيوية.

و «ثم» هنا كما في‏ «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» (23: 14) تراخي بين خلقه من تراب و نفخ الروح فيه، و المفاجأة هي حصول أمر غير مترقب:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(9)

نور الثقلين 4: 173 في الكافي عن أبي ابراهيم (عليه السلام) في‏ «يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها» قال: ليس يحييها بالقطر و لكن يبعث اللّه رجالا فيحيون العدل فتحيي الأرض لأحياء العدل و لإقامة العدل فيه انفع في الأرض من القطر أربعين صباحا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 133

انتشار البشر الحي من التراب الميت، و لكنها متواترة طول الحياة و كذلك تخرجون، و «خلقكم» هنا الخلق الأوّل و هو آدم حيث خلق طفرة دون تحولات من تراب، و كذلك خلق بنيه فإنهم ككلّ مخلوقون من عناصر ترجع إلى التراب بتحولات، بل و هو القدر المعلوم هنا من «خلقكم» لمكان‏ «ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ»!- ترى أن أصل الإنسان- فقط- التراب؟ و لزامه في خلقه في كل أطواره السالفة- لإنشائه خلقا آخر- الماء، و كما في آية أخرى‏ «خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ»؟

علّه لأن التراب هو الأصل بينه و بين الماء، و لا تعني «من تراب» انحصار أصله فيه، و انما كأصل ميت كما الماء ميت مثله، ثم انتشر البشر بين الميتين حيّا.

ثم التراب يعم رطبه- و هو الطين- و يابسه و هو غير المبتلّ، فلا يخص الثاني حتى يكون نصا في غير المزيج بالماء.

أو ليس بأحرى ان يخلقكم بعد موتكم و أرواحكم حية، رجعا لها إلى اصول أبدانكم فإذا أنتم إلى ربكم تحشرون لتحصلوا على محاصيل حياة التحصيل: «لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏»؟! فهذه الخارقة الربانية المتواترة المتلاحقة آية من آيات القدرة البارعة كأصل، و آية انكم‏ «كَذلِكَ تُخْرَجُونَ» لأنه فرع تلك القدرة.

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ‏ 21.

هذه آية للقدرة الرحيمية الإلهية و انكم تخرجون، تحمل آيات لقوم يتفكرون، و هذا تعبير رفيق رقيق عن أعمق العلاقات بين الزوجين بما جعل اللّه، التقاطا لصورتهما من أعماق القلب و أغوار الحس كما ألقاها اللّه، إلفاتا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 134

إلى أعظم النعم الحيوية المعيشية لقبيل الإنسان أيا كان و أيان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»؟

«أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً» و «كم» هنا تعني كل البشر من انثي و ذكر، فقد خلق لكلّ من نفسه زوجا، فللذكر زوج الأنثى و للأنثى زوج الذكر، حيث الزوج هو القرين و أقرن القرناء للحياة الإنسانية هم الأزواج، تأسيسا للحياة البيتية العائلية، التي تنشأ منها كل المجتمعات الإنسانية الأخرى.

و اللام في «لكم» للانتفاع حيث ينتفع كل زوج من زوجه مختلف منافع الزوجية، دون اختصاص بالذكور من الأناث، كما ان «كم» تشملهما دون اختصاص، فقد جهز كلّ بجهاز لا يتم فاعليته إلّا بقرنه بالآخر، لواقع اللذة المرغوبة جنسيا، و حاصل الولائد التي هي استمرارية لحياتهما و أنس لهما و عضد في حاجيات الحياة، و يا لكل منهما من تركيب نفسي و عصبي و عضوي، لوحظت فيه رغائب كلّ بتلبياتها، ائتلافا و امتزاجا على طول الخط، و لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد يستمر به الوالدان.

و ذلك الافتقار لكلّ إلى الآخر جنسيا و ولاديا هو الذي يحرّك كلا إلى الآخر، و يحمّل كلّا عب‏ء الحياة الزوجية للآخر و هما يتقبلانها بكل إقبال و إجمال.

و «من» هنا جنسية تعني المجانسة بين الزوجين، لا النشوية إذ لم ينشأ كلّ من الآخر، و الزواج محرم بين ناشئ من آخر و هو الولادة قريبة ام بعيدة.

و لماذا «خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً»؟ «لِتَسْكُنُوا إِلَيْها» حيث الزوج لا يسكن إلى زوجه من غير جنسه، مهما انفلت اليه أحيانا كما في زواج بين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 135

الإنس و الجن، فانها فلتة لا تدوم، و الحياة الزوجية هي حياة السكن الدائبة.

فقد «خلق»: لتسكنوا «لكم»: لتسكنوا»- «من أنفسكم»- «لتسكنوا» فالسكن الحيوي عن ضربات الحياة الدنيوية و اضطراباتها هو- بالفعل- الغاية المقصودة من‏ «خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ» مثلث من الآيات الرحمات تنحو منحى سكون الحياة عن اضطرابات، و لأن مجرد الخلق لكم لتسكنوا لا يكفي وئاما تاما بين الزوجين تاما، و الرابطة الجنسية غير كافلة بتحمّل مشاق الحياة العائلية، لذلك:

«وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً» تحكيما لتلك العلاقة الوطيدة بين الزوجين، فالمودة- كما يتلمح من آياتها- هي المحبة الظاهرة في العمل، و كصراح لهذه اللمحة «إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» (11: 90) حيث الودّ بعد الرحمة ليس رحمة مجردة، إذا فهو الرحمة البارزة واقعيا.

و المودة المجعولة بين الزوجين ظاهرة في عشرتهما إن لم يحصل مانع في البين، فالحياة الزوجية الودية تشغل- لو لا الموانع- مشاعرهم و أعصابهم، قالاتهم و فعالاتهم و كل اتصالاتهم و انفصالاتهم، و حقا يروى عن رسول الهدى انه‏

«ما يعدل الزوج عند المرأة شي‏ء» «10»

، ثم «و رحمة» قد تعني‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(10)

نور الثقلين 4: 174 في الكافي احمد بن محمد عن معمر بن خلاد قال سمعت أبا الحسن (عليه السلام) يقول: قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) لابنة جحش: قتل خالك حمزة، قال: فاسترجعت و قالت: احتسبه عند اللّه ثم قال لها: قتل أخوك فاسترجعت و قالت احتسبه عند اللّه ثم قال لها: قتل زوجك فوضعت يدها على رأسها و صرخت فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): ما يعدل الزوج عند المرأة شي‏ء»

و

فيه عن الكافي محمد بن يحيى عن احمد بن محمد بن علي بن الحكم عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: انصرف رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) من سرية قد كان أصيب فيها ناس كثير من المسلمين فاستقبلته النساء يسألن عن قتلاهن فدنت منه امرأة فقالت يا رسول اللّه ما فعل فلان؟ قال: و ما هو

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 136

بعد «مودة» الرحمة الزائدة بعد الولادة بالولائد و بين الوالدين، أم هي تأثر نفساني إيجابيا بمودة، و سلبيا حين يرى الزوج زوجه بحاجة مدقعة أمّاهيه من حرمانات، فيحاول في جبرها قدر المستطاع، كما بالنسبة للولائد الصغار و لافتقارهم و صغارهم.

و من ناحية اخرى كلما ولّى الشباب توارى معه الجمال، و ضعفت القوة الجنسية، و الذرية تجبر ذلك التواري و الانكسار حيث تظهر أنوار الرحمة المتوارية وراء ظلمة الشبق و الشهوة فلا تزال الرحمة تزداد عطفا بينهما بشأن الذرية و بشأنهما كمنشأين للذرية، و هذه هي الرحمة بعد المودة.

ثم‏ «لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» في‏ «أَنْ خَلَقَ لَكُمْ ..» هي آية الرحمة الرحمانية خلقا لنا، و آية الرحمة الرحيمية أن جعل لنا أزواجا من أنفسنا، و أخرى هيه‏ «وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً» و ثالثة ان خلق لنا بزواجنا مواليد، إخراجا لأحياء من ميتات المياه المنوية، و هذه الأخيرة هي من آيات المعاد انكم‏ «كَذلِكَ تُخْرَجُونَ».

فالخلق العجيب الإنساني بكل حذافيره فردية و جماعية، جسمية و روحية أماهيه، إنه آية تحوي آيات آفاقية و أنفسية بشتات رحمات اللّه‏ «لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» فيها، ثم بعد هذه الآيات القريبة في أعماقنا، التي نعيشها في ذواتنا و ذاتياتنا و صفاتنا و كل حيوياتنا، هنا نقلة إلى واسع الكون ككل:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

منك؟ قالت: أبي، قال: احمدي اللّه و استرجعي فقد استشهد، ففعلت ذلك، فقالت يا رسول اللّه و ما فعل فلان؟ فقال: و ما هو منك؟ فقالت: اخي فقال: احمدي اللّه و استرجعي فقد استشهد ففعلت ذلك ثم قالت يا رسول اللّه ما فعل فلان؟ فقال: و ما هو منك؟ قالت: زوجي- قال: احمدي اللّه و استرجعي فقد استشهد فقالت: وا ويلا فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ما كنت أظن ان المرأة تجد بزوجها هذا كله حتى رأيت هذه المرأة!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 137

وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ‏ 22.

اختلافات ثلاث كلّ تدل بدورها على تخليق قاصد، دونما صدفة عمياء، ام ارادة محصورة بلون واحد من الخلق، «خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» بمختلف أشكالهما و أحوالهما، «وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ» و أنتم كلكم مخلوقون من تراب، كل ذلك دليل التصميم الحكيم في كل خلق‏ «إِنَّ فِي ذلِكَ» الخلق المختلف المؤتلف‏ «لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ» فطريا و عقليا و فكريا، فلسفيا و تجريبيا، أم أي حقل من حقول العلم الإنساني، فانه أيا كان يستخدم لهذه المعرفة الغالية نظرا إلى الخلق ككل بمختلف أطواره و تطوراته، و نظرا إلى اختلاف الإنسان في الألسنة و الألوان‏ «11» و كما ان اختلاف الألسنة و الألوان آية القدرة الحكيمة الرحيمية «للعالمين» المفكرين فيها، كذلك هو آية للتعرف إلى أصحابها، فقد تشير الألوان و القالات إلى الحالات «للعالمين» «12» كما و ان في معرفة الألوان و الألسن المختلفة «لآيات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(11)

نور الثقلين 4: 173 في علل الشرايع باسناده الى عبد اللّه بن يزيد بن سلام‏ انه سأل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فقال اخبرني عن آدم لم سمي آدم؟ قال: لأنه خلق من طين الأرض و أديمها، قال: فآدم خلق من الطين كله أو من طين واحد؟ قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): بل من الطين كله، و لو خلق من طين واحد لما عرف الناس بعضهم بعضا و كانوا على صورة واحدة، قال: فلهم في الدنيا مثل؟ قال:

التراب فيه ابيض و فيه اخضر و فيه أشقر و فيه اغبر و فيه احمر و فيه أزرق و فيه عذب و فيه مالح و فيه خشن و فيه لين و فيه اصهب، فلذلك صار الناس فيهم لين و فيهم خشن و فيه ابيض و فيهم اصفر و احمر و اصهب و أسود على ألوان التراب.

(12)

نور الثقلين 4: 174 في أصول الكافي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) انه قال: ان الإمام إذا ابصر الى الرجل عرفه و عرف لونه و إن سمع كلامه من خلف حائط عرفه و عرف ما هو ان اللّه يقول‏ «وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ إِنَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 138

للعالمين» بها «13» و قد يعرف العارف بها وحدتها في أصلها.

وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ‏ 23.

هنا «مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ» يعم النوم لهما، كما «وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ» يعني بهما تعميما آخر، و آيات اخرى تختص الليل بالمنام و النهار بابتغاء فضل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ» و هم العلماء فليس يسمع شيئا من الأمر ينطق به الا عرفه: ناج أو هالك فلذلك يجيبهم بالذي يجيبهم»

و

فيه عن توحيد المفضل بن عمر عن الصادق (عليه السلام) في الرد على الدهرية: تأمل يا مفضل ما أنعم اللّه تقدست أسماؤه به على الإنسان من هذا النطق الذي يعبر عما في ضميره و ما يخطر بقلبه و نتيجة فكره، به يفهم غيره ما في نفسه و لو لا ذلك لكان بمنزلة البهائم المهملة التي لا تخبر عن نفسها بشي‏ء و لا تفهم عن مخبر شيئا ... ان الإنسان و ان كان له في الأمرين- الكتابة و اللغة- جميعا فعل او حيلة فان الشي‏ء الذي يبلغ به ذلك الفعل و الحيلة عطية و هبة من اللّه عز و جل في خلقه فانه لو لم يكن له لسان مهيأ للكلام و ذهن يهتدي به للأمور لم يكن ليتكلم ابدا .. فاصل ذلك فطرة الباري جل و عز و ما تفضل به على خلقه فمن شكر أثبت و من كفر فان اللّه غني عن العالمين.

(13) المصدر في بصائر الدرجات احمد بن محمد بن علي بن الحكم عن حماد بن عبد اللّه الغرا عن معتب انه أخبره ان أبا الحسن الأول لم يكن يرى له ولد فأتاه يوما اسحق و محمد أخواه و ابو الحسن يتكلم بلسان ليس بعربي فجاء غلام سقلابي فكلمه بلسانه فذهب فجاء بعلي ابنه فقال لأخوته: هذا علي ابني فضموه اليه واحدا بعد واحد فقبلوه ثم كلم الغلام بلسانه فذهب به ثم تكلم بلسان غير ذلك اللسان فجاء غلام اسود فكلمه بلسانه فذهب فجاء بإبراهيم فقال: هذا ابراهيم ابني فكلمه بكلام فحمله فذهب به فلم يزل يدعو بغلام بعد غلام و يكلمهم حتى جاء بخمسة أولاد و الغلمان مختلفون في أجناسهم و ألسنتهم! «و

فيه عن عمار الساباطي قال قال لي ابو عبد اللّه (عليه السلام) يا عمار!:

«ابو مسلم و ظلله و كسا فكسحه مسطورا» قلت: جعلت فداك ما رأيت نبطيا أفصح منك، فقال: يا عمار و بكل لسان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 139

اللّه‏ «أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَ النَّهارَ مُبْصِراً» (27: 86) «وَ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً. وَ جَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً» (78: 11) و من الأولى خلطا بينهما «وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» (28: 73).

و الجمع يلمح بأصالة الليل سكنا و النهار مبصرا، و فرعية المعاكسة عند الحاجة، و طبعا إبصارا بالليل بضياء، و إظلاما بالنهار بستر، حيث النور تمانع الرياحة كما الظلمة تمانع السعي للمعيشة، «وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ» في النهار ظاهر تكسّبا للمعيشة التي هي على أية حالة من فضل اللّه، فليست المساعي لتحصيلها إلّا أسبابا قرّرها اللّه لإدرار فضله كما يشاء، فقد يكون السبب طلب المعيشة، و أخرى هو التقوى لمن يترك طلب المال إلى طلب العلم تعلما و تعليما و تطبيقا يجمعها علم التقوى: «وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ» (65: 2- 3).

كما ابتغاء فضله بالليل يعمهما، و لا سيما صلاة الليل التي هي ابتغاء لفضله روحيا و ماديا، إذا فلا يختص ابتغاء فضله بليل أو نهار بالمادي المعيشي، بل و الروحي، فليعش الإنسان دوما ليل نهار ابتغاء من فضل اللّه في يقظته، و رياحة عن ابتغاءه بنومه، بل و النوم ايضا من فضل اللّه حيث يريح الإنسان عن عب‏ء الطلب و يعده لمواصلته ابتغاء لفضل اللّه أيا كان.

و ليس النوم مما يبتغي إذ قد يهمل فيه فينهل الجسم و تنحلّ القوى،

«فيه راحة البدن و إجمام قواه .. و لو كان إنما يصير إلى النوم بالتفكر في حاجته إلى راحة البدن و إجمام قواه كان عسى أن يتثاقل عن ذلك فيدفعه حتى ينهل بدنه» «14».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(14)

نور الثقلين 4: 177 في توحيد المفضل عن الصادق (عليه السلام) و الكرى يقتضي النوم الذي فيه راحة البدن ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 140

وَ مِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ‏ 24.

هنا «يريكم» هي من آياته، حيث الفعل الآية من الآية، كما و منتوجه البرق آية، و تقدير «أن» خلاف الفصيح حيث ذكرت قبل في أفعال «ان خلقكم- أن خلق لكم» فتركها هنا ترك مقصود دون حذف، و قد تكون «يريكم» نازلة منزلة المصدر كما «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» و لكن الأوّل- علّه- أولى أن «يريكم» نفسها كفعل بمفعولها، هما من آياته، فهناك «أن خلقكم- أن خلق لكم» ليستا بأنفسهما مرئيتين، كما «أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ» حيث الخلق يسبقنا فكيف نتمكن من رؤيته، و قيام السماء و الأرض بأمره امر يدرك بإمعان و لا يرى، و لكن البرق يرى، و «يريكم» نفسها هي من آياته.

و ظاهرة البرق هي من نشأت النظام الكوني بما يكوّنها اللّه، انتشاء من شرارة كهربائية بين سحابتين محمّلتين بالكهرباء أو بين سحابة و جسم أرضي كقمة جبل أم شجرة أمّاهيه، ينشأ عن هذه الشرارة تفريغ في الهواء متمثلا في الرعد الذي يعقب البرق، و يصاحبه في الغالبية تساقط المطر نتيجة لذلك التصادم.

و رؤية البرق تطمع كما تخوّف، طمعا في‏ «وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً» و تخوفا عن تحريقات و تخريقات أرضية بصدام البرق، فإماتة لأهلها، فنحن إذا أمام البرق بين خوف الموت و طمع الحياة «فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها» على طول خط الحياة «إِنَّ فِي ذلِكَ» الإراءة و التنزيل و الإحياء «لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» أنكم‏ «كَذلِكَ تُخْرَجُونَ».

فللعقل مجالات في هذه الآيات تدليلا على رحمات منها الحياة بعد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 141

الموات، فانها تعقل و تؤخذ من أمثالها في تواتر الموت و الحياة.

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ‏ 25.

قيام السماء و الأرض- و هما الكون المخلوق كله- هو قيامهما على حالتهما الحيوية كما هيه منذ خلقتا و أكملتا بما خلق فيهما و ما بينهما، و «ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ» تراخ بين قيامهما و هذه الدعوة المحيية بقيامة الإماتة الشاملة للسماء و الأرض.

و كما أنهما تقومان بأمره، كذلك تنفطران بأمره، و أنتم- كذلك- تخرجون بأمره، و هو كلمة «كن» التكوينية، و بالنسبة للمكلفين اضافة إليها «كن» التشريعية.

فكما السماء و الأرض من آياته، كذلك قيامهما بأمره و خرابهما بأمره، فلتكن هذه القدرة الشاملة شاهدة صدق ل «أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ».

و بما ذا تتعلق «من الأرض»؟ ب «دعاكم»؟ و ليس اللّه الداعي في الأرض حتى‏ «إِذا دَعاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ»! ام ب «تخرجون»؟ فلما ذا قدمت على متعلقها؟

التقدم في المحتمل الثاني لغاية الحصر، انكم تخرجون- فقط- من الأرض التي فيها تدخلون، و علّ الأوّل معنيّ ضمنه لا بمعنى ان الداعي هو في الأرض، و انما دعوته لإخراجنا من أجداثنا صادرة منه من الأرض، كموضع لتجلي الدعوة و نفاذها حيث ينفخ في الصور و الناقور فيصل فيما يصل إلى المدفونين في الأرض فيحيون، و لا ضير أن يعنى ضمن المعنى دونما استقلال و الأصل هو الآخر.

و «إذا» الثانية للمفاجأة قائمة مقام فاء الجزاء لشرط «إذا» الأولى،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 142

فالخروج من الأرض حيا بعد موت مفاجأة في متاه و مداه، و ليس بدعا من الحياة بعد الموت المتواترين المتلاحقين على مر الزمن دون إبقاء، كيف لا؟:

وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ‏ 26.

«له» ملكية و ملكية حقيقية ذاتية دونما زوال و لا انتقال‏ «مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» فضلا عنهما، «كلّ» منهما و من فيهما، «له» لا لسواه «قانتون» خاضعون لإرادته، فالقنوت هنا- ككل- هو الطاعة الخاضعة الخاشعة التكوينية، مهما كان المؤمنون له «قانتون» تشريعيا كما هو تكوينيا.

«مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» ككل- عصاة و مؤمنين، هم له قانتون في كل كونهم و كيانهم مهما عصت عقول بعضهم و أعمالهم، و ليست النقلة إلى الحياة الأخرى فعلة لهم مختارة حتى يتمكنوا من عصيانها، فكما أحياهم دون اختيار لهم إذ لم يكونوا أحياء، كذلك يحييهم بعد موتهم‏ «لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏».

وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى‏ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ‏ 27.

و لأن‏ «لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» و «كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ» دونما استقلال لشي‏ء و تمنّع عن إرادته، «هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ» أيا كان البدء و أيّان، بدء لا من شي‏ء كالخلق الأول، و بدء من شي‏ء هو الخلق الأوّل و سائر الخلق في المراحل الأخرى، و بدء لخلق الإنسان، و إذا كان البدء منه فالإعادة اولى‏ «ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ».

فالبدء أيا كان هو إنشاء من غير مثال سبق، و الإعادة إنشاء سبق مثاله في البدء، سواء أ كانت الإعادة بعد الإعدام المطلق كما قبل مطلق الخلق، أو الإعادة بعد مطلق الإعدام، كما قبل الإعدام، فالإعادة لما بدء ثم أعدم هي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 143

على أية حال أهون من البدء قياسا بينهما، و قياسا إلى القدرة المحدودة، و اما بالنسبة للقدرة غير المحدودة فلا مراحل في الهون كما الصعب، فلا صعب لها و لا أصعب، و لا هين و لا أهون، فكلّ هين تجاه القدرة الطليقة الإلهية على سواء كما «قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً» (19: 9).

و الخلق الثاني أهون من الأوّل في نفس الذات و بالنسبة للقدرة المحدودة، و لكنه هنا «عَلَيَّ هَيِّنٌ» لا أهون، ثم‏ «قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً» تعطى اولوية لهذا المنيّ هنا، و يعبر عنها في آيتنا ب «هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» و لا تعني إلّا تنازلا في التفضيل، و ليس في الحق عنده في قدرته تفضيل.

إذا «وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» قد تعني الأهون في نفس الذات و بالنسبة لقدراتكم؟ و لكن «عليه» قد تمانع عنايتها لخصوص هذين الأهونين! أم‏ «هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» تنازلا في التفضيل في حقل القدرة: «وَ هُوَ الْعَزِيزُ» و حقيقة في التفضيل في حقل العدالة «و هو الْحَكِيمُ».

فالبدء للخلق- أيا كان- هو قضية الفضل، و أما الإعادة- للمعاد الحساب- فهي قضية العدل، و العدل أهون من الفضل و أوجب في مثلث المقاييس: بينهما، و بالنسبة للعزة و الحكمة المحدودتين، و بالنسبة للعزة الطليقة و الحكمة اللّامحدودة.

أضف إلى كل ذلك كهامش في المعنى المعنيين الأوّلين للأهون حقيقيا، و الثالث تنازلا في الحوار.

فقد تعني‏ «وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» سداسية المعاني، و الأصل في الثلاثة الأول التنازل في التفاضل: لو كان له هين و أهون‏ «هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ»، ثم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 144

الأصل في الثلاثة الأخرى ان العدل أهون على اللّه من الفضل من حيث الحكمة، لا القدرة.

إذا «وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» قد تشيران إلى تنازل التفاضل بجنب القدرة العزة، و حقيقة التفاضل في مقياس الحكمة، حيث العدل أوجب على اللّه من الفضل، كما الفرض اولى من الندب، اولوية حقيقية دونما تأويل، خلاف الأولوية التنازلية في حقل القدرة.

و هنا يتبين المعني من‏ «وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى‏ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» حيث المثل في الأصل هو الصفة، فعلية كما هنا حيث السماوات و الأرض و ما فيهما هي فعليات صفات اللّه، ام و ذاتية كما في النحل‏ «لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَ لِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلى‏ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (60).

فمثله المطلق كما هنا يعم صفات ذاته إلى صفات فعله، و مثله في السماوات و الأرض يخص صفات فعله.

فأمثال اللّه في السماوات و الأرض بدء و إعادة كلها عالية، و لكن الإعادة هي من المثل الأعلى و هو العدل فانه أعلى من الفضل و أهون، و كما أولياءه المقربون السابقون و قد يروي عن أسبقهم و أقربهم إلى اللّه محمد (ص) قوله:

نحن كلمة التقوى و سبيل الهدى و المثل الأعلى و الحجة العظمى و العروة الوثقى» «15»

، فهم مثل أعلى ممن دونهم من المؤمنين، و العدول من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(15)

نور الثقلين 4: 180 في عيون الأخبار باسناده الى ياسر الخادم عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليهما السلام قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) لعلي (عليه السلام) يا علي! أنت حجة اللّه و أنت باب اللّه و أنت الطريق إلى اللّه و أنت النبأ العظيم و أنت الصراط المستقيم و أنت المثل الأعلى،

و

في العيون في الزيارة الجامعة السلام على الأئمة الهدى‏ ... و ورثة الأنبياء و المثل الأعلى،

و فيه (81) عن العيون عن عبد اللّه بن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 145

هؤلاء مثل أعلى ممن لا يعدل تماما و هكذا، ثم المثل يعم من ناحية أخرى صفات الفعل التشريعية إلى صفات فعله التكوينية، فالشرعة التوراتية مثل أعلى من الشرعة الإبراهيمية، كما الشرعة القرآنية هي مثل أعلى من كل شرعة إلهية.

و كما الإنسان ككل هو مثل أعلى من الناحية التكوينية «فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» و من الناحية التشريعية إذ شرع له أحسن الشرائع بين كافة العقلاء، و حين يشاركه بعضهم كالجن و سواه في شرعته فهو الأصل فيها رسالة و مرسلا إليه.

ثم «الأعلى» في‏ «الْمَثَلُ الْأَعْلى‏» قد تكون كما هنا، الأفضل بين أمثاله تعالى، كما الإعادة مثل أعلى من البدء، ام الأعلى من مثل غيره، فصفاته الفعلية- و هي كل خلقه بمختلف أمثاله الأدنى و الوسطى و العليا- هي أعلى من صفات خلقه، و كما ان صفات ذاته و ذاته أعلى ممن سواه.

و أمثال اللّه تعالى بكل مراتبها حسنة وفق طليق العزة و الحكمة، و أمثال غيره بين سيئة و حسنة هي طبعا دون أمثال اللّه: «لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ» إذ يرجحون البدء الفاني و هو من فضله، على الإعادة الباقية و هي من عدله، ترجيحا للفضل المؤقت في ذلك الخلق العظيم دونما غاية مقصودة إلّا حياة ضئيلة هزيلة هي في الحق خلاف الفضل، ترجيحا على العدل في الإعادة و هي الغاية المقصودة من البدء «لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏» عدلا و فضلا بواقعهما الطليق العميق.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

العباس قال قام رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فينا خطيبا فقال في آخر خطبته: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 146

و كما انه‏ «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ» كذلك ليس كمثله مثل، «و له» السابقة على‏ «الْمَثَلُ الْأَعْلى‏» تفيد الحصر، فهو

«رب المثل الأعلى عما به مثلوه- و لله المثل الأعلى- الذي لا يشبهه شي‏ء و لا يوصف و لا يتوهم، فذلك المثل الأعلى» «16».

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ‏ 28.

«ضَرَبَ لَكُمْ» المتخذين للّه شركاء «مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ» مثل قريب و هل هناك مثل أقرب من أنفسكم، دون حاجة إلى رحلة قريبة أو بعيدة أم تفكير عميق فإنه مثل كأبسطه و أقربه إليكم بين كافة الأمثال و هو:

«هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ» يشاركونكم فيما تملكون، رغم أنهم أنفسهم مما تملكون‏ «فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ» كشركاء سواء فيما يتصرفون، ثم «تخافونهم» في المزيد من التصرف فيما تملكون‏ «كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ» أنتم المالكين في أموال مشتركة بينكم؟

و ذلك سئوال التنديد التجهيل عمن يشركون باللّه خلقه فيما يختص باللّه من ربوبية، لهم ما للّه من التصرف في ملكه، فيخافهم اللّه كما يخاف من شريك، رغم ان الشركة بين المالكين و المماليك امر ممكن، و بالنسبة للّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(16)

نور الثقلين 4: 180 في كتاب التوحيد باسناده الى حنان بن سدير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) حديث طويل يقول فيه: و قوم و صفوه بيدين فقالوا: يد اللّه مغلولة- و قوم و صفوه بالرجلين فقالوا: وضع رجله على صخرة بيت المقدس فمنها ارتقى الى السماء و وصفوه بالأنامل فقالوا: ان محمدا (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال: اني وجدت برد أنامله على قلبي، فلمثل هذه الصفات قال: رب العرش عما يصفون- يقول: رب المثل الأعلى ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 147

مستحيل ذاتيا و صفاتيا.

«كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ» الدالة على التوحيد «لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» آياته تعالى و يتدبرون.

بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ‏ 29.

ليس انهم اتبعوا عقولهم في اتخاذهم للّه شركاء «بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا» في هذه القسمة الضيزى ألّا يرتضوا لأنفسهم شركاء من مماليك، ثم يفرضون للّه شركاء.

اتبعوا هؤلاء «أهواءهم» دون عقولهم، اتّباعا «بِغَيْرِ عِلْمٍ» فحتى لو اتبعوا أهواءهم بعلم ما كانوا مشركين، و ذلك هو الضلال البعيد.

إذا «فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ» فإنهم زاغوا باتباعهم أهواءهم بغير علم مقصرين‏ «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» و اضلها أن ختم عليها بكفرهم فهم لا يهتدون «و ما لهم» حين يضلهم اللّه «من ناصرين» يهدونهم الى الحق.

[سورة الروم (30): الآيات 30 الى 45]

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (30) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (32) وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (33) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (34)

أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (35) وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ (36) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (37) فَآتِ ذَا الْقُرْبى‏ حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (38) وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (39)

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ (40) ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (41) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (42) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (43) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44)

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (45)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 149

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ‏ 30.

تأتي «فطر» بمشتقات لها في آياتها العشرين، و ما أتت‏ «فِطْرَتَ اللَّهِ» إلّا في هذه اليتيمة المنقطعة النظير، مهما نجد الكثير من احكام الفطرة كما هنا في الآية (33) ثم و أشباهها في سائر القرآن.

لذلك فحق لها ان تنفرد ببحث فذّ و قول فصل، تحوم حولها كافة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 150

البحوث حول الفطرة و ميزاتها و أحكامها، حيث تظهر في مسارح البراهين كاقوى برهان يصدع به القرآن، حيث لا تقف له القلوب، و لا تملك رده النفوس، تلك الحجة البالغة التي تتبناها الفكر و العقول، و من ثم كافة الرسالات الإلهية في كل الحقول، و لولاها لسقطت الحجج عن بكرتها، و تساقطت البراهين عن برهنتها، و لأنها أعمق الآيات الأنفسية و اعرقها، حيث تتبناها سائر آياتها، كما تتبناها الآيات الآفاقية كلها.

فالفطرة هي رأس الزاوية من مثلث الإنسانية بدرجاتها، ثم الزاوية العاقلة تتبناها و تتكامل على أسها و أساسها، و من ثم الثالثة: الشرعة الإلهية هي صبغتها الكاملة السابغة.

الإنسان أيا كان حين يفقد العقل- و بطبيعة الحال يفقد الشرعة المتبنّية للعقل- ليس ليفقد الفطرة على أية حال، حال أن العاقل قد يفقد الشرعة و يضل عنها، فالفطرة حجة ذاتية لا تتخلف و لا تختلف في أصحابها، ثم العقل تستبطنها و تستنبطها و توسّع مدلولها، و من ثم الشرعة الإلهية ترشدهما إلى تفاصيل مجهولة لديهما و تكملهما جملة و تفصيلا، فالفطرة حجة اجمالية بسيطة، و العقل حجة متوسطة وسيطة، و الشرع حجة موسّعة محيطة، تصل بهما إلى أعلى معاليهما «17».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(17) الدين واحد و الشرعة هي عدة متشرعة عن الدين الواحد، ثم الدين أصله دين الفطرة و من عمالها العقل، ثم أقوى منهما دين الوحي المخطئ للعقل و المكمل لأحكام الفطرة و قد زوّد به آدم (عليه السلام) إذ لم تشرع له شرعة تفصيلية.

ثم المرحلة الثالثة من الدين هو دين الشرعة، المحتفظ بأحكام الفطرة، المقررة بإثبات الواجبات و المحرمات، و المفرع لكلّ شرعة و منها بها حسب الحاجيات الوقتية حتى الشرعة الأخيرة التي هي الدين كله بكل التفاصيل الخالدة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 151

هنا «فِطْرَتَ اللَّهِ» ذات نسبتين و اربع صفات، نسبة إلى اللّه:

«فِطْرَتَ اللَّهِ» و أخرى إلى الناس: «الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» و قد احتفتها اربع صفات: «لِلدِّينِ حَنِيفاً» قبلها و «لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» بعدها.

فنسبة الفطرة الى اللّه توحي بأنها ليست إلّا من صنع اللّه، لا صنع و لا تأثير و لا تبديل فيها لغير اللّه، كيف و هي- فقط- خلق اللّه و «لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» فهي وحي تكويني إلى اعمق اعماق ذوات الناس، كظرف صالح للوحي التشريعي، و هنا التطابق التام بين كتابي التكوين و التشريع بحق الناس، فالتشاريع الإلهية كلها تفاسير و تفاصيل لها أجمل في الفطرة، لذلك فالحق يقال: إن دين اللّه فطري إذ يتبنّى الفطرة، و مؤلف الكتابين خلقة و شرعة هو اللّه الواحد القهار! و من ثم نسبة الفطرة الى الناس و بهذه الصيغة السائغة «فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» توحي أنها الأصل و الناس فرع عليها، فكما النطفة هي أصله في البعد الجسماني، كذلك الفطرة هي أصله في بعده الروحي الانساني.

إم إنّ «عليها» ايحاء بان الفطرة ليست مجعولة بجعل ثان بعد الروح، بل هي مجعولة بجعل الروح، و علّ الأول أوحى حيث يتضمن أصالتها و الروح فرع لها و إن كانا مجعولين بجعل واحد، بل هما أصلا و فرعا واحد إذ لا يتفارقان.

و قد أمرنا بإقامة الوجه لها رخاء و لا نكون من المشركين هنا، و بصيغ اخرى كما في غيرها: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ» (30)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فأول نبي بعث بشرعة من الدين هو نوح و آخرهم الرسول الخاتم محمد (صلى الله عليه و آله و سلم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 152

«وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (10: 105) «أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» (12: 40).

و هنا عرفات سبع تصد عن جهالات سبع، تحملها آية الفطرة بمواصفاتها الست، فرضا لمنطلق الدعوة: الرسول الأعظم محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) «فَأَقِمْ وَجْهَكَ ..» و إلى الناس أجمعين كضابطة سارية تعم كافة المكلفين: «فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها».

و الصاروخ الركوب، المنطلق به بينها في هذه الرحلة للطائر القدسي الإنساني هو «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» و سائر السبع زاده في طريقه الشاقة الطويلة المليئة بالأشلاء و الدماء.

و هذه الست المستفادة بسابعها من آية الفطرة هي: 1- معرفة النفس، 2- و حبها، 3- و معرفة الوجه 4- و دينه، 5- و حنافته، 6- و إقامته، 7 و سابعها هي الفطرة.

فما لم تعرف نفسك كما هي حسب إمكانيتك لم تحبّها كما يصح و يحق، و من ثم تتعرف إلى الدين القيم، و إلى الوجه و إقامته، و إلى الحنافة نفسا و دينا و وجها و إقامة أماهيه، فتكمل سفرتك إلى اللّه بمنطلق الفطرة التي فطر اللّه، فإلى التنقيب عن آيتها جملة و تفصيلا، ابتداء بجملتها:

«فأقم» يا رسول الهدى في معترك العقائد و الآراء بين هابطة حابطة خابطة، و بين صالحة عاقلة رائعة بما لها من حجج بالغة، فانه‏ «هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى‏ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ 27 ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ 28 بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 153

فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ» 29- «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ...» كأوّل قيام و أولاه و أعلاه فانك‏ «أَوَّلُ الْعابِدِينَ» و أولى القائمين: «يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ ..»- يا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ..» فقيامك هو الذي يقوّم الجماهير و يقيّمهم ..

«فَأَقِمْ‏ .. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ» و اقامة تجعلك أول القائمين، و من ثم الى الناس أجمعين ..

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ» ايها الإنسان السالك إلى ربك «للدين» الذي ارتضاه لك «حنيفا»: مائلا عن الضلالة إلى الاستقامة، فانه الحنف خلاف الجنف ميلا عن الاستقامة إلى الضلالة، «حنيفا» في نفسك و في وجهك و في إقامتها و في الدين الذي تدين به، فانها مربع الحنافة في هذه الإقامة البارعة، و من الدين الحنيف:

«فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» فالدين الحنيف الذي هو الغاية القصوى في هذه السفرة الإلهية، هو التوحيد، و أفضل ركوب في تلك الرحلة هو «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» لا أنها- فقط- الدين الحنيف، لذلك‏ «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً» لا «إلى الدين» و انما إقامته «إلى» تنطلق من‏ «فِطْرَتَ اللَّهِ».

و علّ النصب في‏ «فِطْرَتَ اللَّهِ» خلاف الجر في «للدين» للتدليل على أنها ليست هي- فقط- الدين حنيفا، و إنما هي من الدين و منطلقه الأوّل، كآية أنفسية أولى، ليست قبلها و لا معها أيّة آية أنفسية يبتدء السالك منها، و ينطلق عنها إلى الدين القيم الحنيف، الشرعة الإلهية الكاملة، و التوحيد الخالص الناصع.

فقد يعني نصبه نصبه المنصب الأوّل في إقامة الوجه للدين: أعني‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 154

فطرت اللّه- الزم فطرت اللّه- أخصّ من الدين الحنيف فطرت اللّه، أمّاذا من ناصبات مناسبات؟

«لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ»- «خلق الله» هنا ليس كل خلق اللّه فان منها ما يبدّل بحق أو باطل كما هدد الشيطان: «وَ لَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ..». فما هو إلّا دين الفطرة حيث الدين الشرعة هو من الأمر و ليس الخلق‏ «أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ» فمهما كان في سائر الدين تبدّل أو تبديل، كدين العقل و الشرعة من الدين، في حق أو باطل، كالعقل الضائع أو الذي تصيبه جنة قاصدة أو قاصرة، و كالشرعة المحرفة أو المنسوخة، و لكن دين الفطرة لا تبدّل فيه و لا تبديل، لأنه المنطلق الأصيل الدائب لدين العقل و الشرعة.

«لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ» الإقامة بوسيط الفطرة هو «الدِّينُ الْقَيِّمُ» الذي لا زوال له و لا اضمحلال، إذ لا ريب فيه و لا نقصان أو بطلان يعتريه‏ «وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» مثلث الدين، فطرة و عقلية و شرعة، و لا وجها و لا إقامة و لا حنافة و لا قيمومة، متورطين في مسبّع الجهالات، و لذلك لا ينجون في الحياة مهما شرّقوا أو غرّبوا، حيث غربت عقولهم و حجبت فطرهم.

هذا إجمال عن مغزى الآية و من ثم التفصيل، و لنبدء برأس الزاوية في مسبع العرفات: «فِطْرَتَ اللَّهِ» و هي كلها رءوس الكمالات الإنسانية و جماع فضائلها و فواضلها:

الفطرة هي حالة خاصة من الفطر، و هو الشق‏ «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ» (67: 3) و الفطور هو الفروج‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 155

و الشقوق و الفتوق و الخروق، انفصالات متهافتة متفاوتة في خلق الرحمن تحيلها آية الفطور، و الفطر بين شق صالح فوصله صالح، و بين شق صالح عن فصل طالح، و خلق الرحمن كله شق صالح ك‏ «فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى‏» و قد فلق حب الإنسان و نواه فطرا صالحا بفطرة هي الدين الحنيف القيم.

ثم ذلك الشق في الفطر له ميّز الابتداء الابتداع‏ «18» دون مجرد الخلق الأعم من مبتدء مبتدع، ففيه- إذا- أوّليتان اثنتان بدء و بدعا، خلاف سائر الخلق بعد الأولية و غير المبدعة إذ تخلق على مثال ما خلق مثله أوّل مرة، و لمحة صارحة صارخة لهذه الميّزة في الفطر: «فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ» (17: 51) حيث الفطر المقابل للإعادة يناسبه البداية، و ليست الإعادة فطرا كما «وَ ما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (36: 22) حيث الرجوع العود يقابل الفطر فهو البدء «كَما بَدَأْنا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ» (21: 104)، ثم الفطرة هي هيئة و حالة خاصة من ذلك الفطر خصت في آيتها بالناس كما اختصت باللّه: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها».

إذا فللفطرة في خلق الناس الأولية المتينة المكينة، المبدئة المبدعة المزيجة بأصل ذاته، المدغمة في إنّياته لمكان‏ «فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» دون «فطرها على الناس» أو «فطر معها الناس» أمّاذا من تعابير تجعلها فرعا على ذوات الناس، ام موازية في فطر الناس، و انما «فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» مما يبرهن انها رأس الزاوية من كون الناس و كيانهم، القاعدة الأصيلة من الإنسان أيا كان بقلبه و قالبه.

فكما أن للإنسان كيانا حيوانيا أصيلا تتبناه أجزاءه و أعضاءه، و هي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(18) لسان العرب عن ابن الأثير الفطر الابتداء و الاختراع و الفطرة منه الحالة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 156

النطفة التي خلق منها، كذلك- و باحرى- له كيان إنساني اصيل تتبناه روحه و عقله و صدره و قلبه و لبه و فؤاده، ألا و هي‏ «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها».

و هذان البعدان هما جوهر إنسانية الإنسان كمزيج من حيوان و إنسان، و البعد الأصيل بينهما هو بعد الفطرة، و من ثم بعد النطفة، و قد تعنيها آية الذر في «ذريتهم»: «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى‏ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى‏ شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَ فَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ» (7: 173) فذريتهم هي فطرتهم تعبيران عن حقيقة واحدة كما في روايات متظافرة «19» و تلمح لذلك كصراحة آية الذرية، و قد نأتي على بحثها كما يناسب بحثنا حول آية الفطرة.

و انها ذرية الأرواح، أعمق أعماقها و هي الفطر، فكما للأجسام ذريات هي النطف التي خلقت منها، كذلك للأرواح ذريات هي الفطر التي فطر الناس عليها، و من الفارق بين الذريتين ان ذرية الفطرة لا تتبدل و ذرية النطف تتبدل، و قد فطر اللّه الأجسام على ذريات النطف، و فطر الأرواح على ذريات الفطر، و الذريتان هما أصل الإنسان في بعدية، و سائر أجزاءه الروحية و البدنية فروع، مهما تأصلت في فترة التكليف.

و ميثاق: «أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ» بإجابته: «قالُوا بَلى‏» هو ميثاق تكويني‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(19)

نور الثقلين 4: 184 ح 53 عن اصول الكافي باسناده عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ سألته عن قول اللّه عز و جل: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» ما تلك الفطرة؟ قال: هي الإسلام فطرهم اللّه حين أخذ ميثاقهم على التوحيد قال الست بربكم و فيه المؤمن و الكافر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 157

على فطرة اللّه التي فطر الناس عليها حيث‏

«فطرهم على التوحيد عند الميثاق» «20»

، و هو رؤيته تعالى بالقلب‏ «21».

فطرة الإنسان باقية ما دامت له باقية مهما فقد جسمه و عقله، فانها لزام الروح الإنساني حيث‏ «فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» و لولاها لم يكن ناس، فهي تلازم حياته الإنسانية تعيشها و تعيّشها كإنسان، و لذلك تجب إقامة الوجه لها بكل وجوهه، فانها أصل الدين الحنيف القيم و جذره‏ «لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(20)

المصدر 3: 96 ح 352 في كتاب التوحيد باسناده المتصل عن زرارة قال‏ قلت لأبي جعفر (عليه السلام) أصلحك اللّه قول اللّه عز و جل في كتابه‏ «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها»؟ قال: فطرهم على التوحيد عند الميثاق و على معرفة انه ربهم قلت:

و خاطبوه؟ قال: فطأطأ رأسه ثم قال: لو لا ذلك لم يعلموا من ربهم و لا من رازقهم.

أقول: لو لا ذلك يعني فطرهم على التوحيد، فليس مقاولة و مسائلة فانها لا تضمن المعرفة، و انما تبني الذات على المعرفة هو الذي يضمن المعرفة.

(21)

المصدر 97 في كتاب التوحيد باسناده الى أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ قلت له اخبرني عن اللّه عز و جل هل يراه المؤمن يوم القيامة؟ قال: نعم و قد رأوه قبل يوم القيامة فقلت متى؟ قال: حين قال لهم‏ «أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى‏» ثم سكت ساعة ثم قال: و ان المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة الست تراه في وقتك هذا؟

قال ابو بصير فقلت له جعلت فداك فأحدث بهذا عنك؟ فقال: لا فانك إذا حدثت به فأنكر منكر جاهل بمعنى ما تقول ثم قدر ان ذلك تشبيه كفر و ليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين تعالى اللّه عما يصفه المشبهون و الملحدون.

أقول: و ليست الرؤية المعرفة القلبية بصرف المسائلة.

و

فيه ج 362 عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في قول اللّه: أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى‏» قالوا بألسنتهم؟ قال: نعم و قالوا بقلوبهم فقلت و اي شي‏ء كانوا يومئذ؟ قال: صنع منهم ما اكتفى به.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 158

و الدين الحنيف القيم الذي لا تبدّل له و لا تبديل هو كلمة التوحيد «لا إله لا الله» كما و آية الفطرة و آيات اقامة الوجه للدين الحنيف القيم، فيها كلا السلب و الإيجاب التوحيدي، فهنا «حَنِيفاً .. وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» هما سلب: لا إله- و «مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ» هما الإيجاب: إلّا اللّه.

اجل- إن‏ «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» هي‏ «دِينِ اللَّهِ» «22» الحنيف القيم الذي لا بديل عنه و لا تبديل له، و هي المعرفة «23» و هي التوحيد «24» و هي الإسلام‏ «25» و هي الولاية «26» و هي كلها واحدة:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| عباراتنا شتى و حسنك واحد |  | و كل إلى ذاك الجمال يشير |

«دِينِ اللَّهِ» هو معرفة اللّه، و هي ولاية اللّه، و هي الإسلام للّه،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(22)

الدر المنثور 5: 155- اخرج عن جماعة قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فطرة اللّه التي فطر الناس عليها قال: دين اللّه.

(23)

نور الثقلين 4: 184- القمي باسناده عن زرارة عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: سألته عن قول اللّه عز و جل: حنفاء للّه غير مشركين به قال: الحنيفة من الفطرة التي فطر اللّه عليها لا تبديل لخلق اللّه- قال: فطرهم على المعرفة به ..

(24)

المصدر 183- اصول الكافي باسناده عن الحلبي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في آية الفطرة قال: فطرهم على التوحيد و رواه مثله عنه هشام بن سالم و عبد اللّه بن سنان و العلاء بن فضيل، و فيه عن زرارة عنه (عليه السلام) مثله باضافة «جميعا».

(25)

المصدر باسناده عن عبد اللّه بن سنان عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) عن الآية ما تلك الفطرة؟ قال: هي الإسلام فطرهم اللّه حين أخذ ميثاقهم على التوحيد قال: الست بربكم و فيه المؤمن و الكافر.

(26)

المصدر- اصول الكافي باسناده عن أبي بصير عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: هي الولاية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 159

و هي توحيد اللّه، فلا تعني خماسية العبارة إلّا أنه‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» «27» ثم المعاد و الرسالة و من ثم ولاية الأئمة «28» و «إلى هاهنا التوحيد» «29» كلها تحور

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(27، 28)

المصدر الكافي عن القمي حدثنا الحسين بن علي بن زكريا قال حدثنا الهيثم بن عبد اللّه الرماني قال حدثنا علي بن موسى الرضا (عليه السلام) عن أبيه عن جده عن أبيه محمد بن علي (عليه السلام) في الآية قال: هو لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه علي امير المؤمنين ولي اللّه الى هاهنا التوحيد و رواه مثله في بصائر الدرجات عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية فقال‏ «على التوحيد و محمد رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و علي أمير المؤمنين (عليه السلام) و في التوحيد رواه مثله عن عبد الرحمن مولى أبي جعفر عن أبي عبد الله (عليه السلام).

(29)

الدر المنثور عن جماعة عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه و ينصرانه كما تنتج الإبل من بهيمة جمعاء هل تحس من جدعاء قالوا يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) أ فرأيت من يموت و هو صغير؟ قال (ص): ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه و ينصرانه و يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء.

و

في تفسير الطبري بإسناده عن الأوسد بن سريع من بني سعد قال: غزوت مع رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فاشتد عليه ثم قال: ما بال أقوام يتناولون الذرية فقال رجل يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) أ ليسوا أبناء المشركين؟ فقال: أن خياركم أبناء المشركين إلا أنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها فأبواها يهودانها و ينصرانها» قال الحسن: لقد قال في كتابه‏ «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ».

و لقد روى حديث الفطرة باختلاف يسير كما هنا في صيغها و وحدة في سوقها جماعة كما في المعجم المفهرس للحديث النبوي ج 5: 180: «ما جاء في» كل مولود يولد، ولد على الفطرة، كل نسمة تولد على الفطرة في جنائز 94 دسنة 14- ت قدره، ط جنائز 52، حم 3، 233، 275، 393، 410، 481، 3، 353،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 160

على محور ولاية التوحيد و معرفته، منه تصدر و إليه تعود، فنكران سائر الأصول ليس إلّا حصيلة نقصان أصلها الأصيل: معرفة اللّه بتوحيده بولاية اللّه في الإسلام له، و جماعها «دِينِ اللَّهِ» كما تدل عليه فطرت اللّه، كأصيل، و العقل كوسيط، و الشرعة تفصيل.

و لقد أجملها الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): في‏

قوله‏ «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه و ينصرانه و يمجسانه ..»

و هذه ثالوث الشرك بمختلف صوره، تجسيدا للّه و تبنيا منه تهويدا، و تثليثا معهما تنصيرا، و تثنية له انه و النار إلهان اثنان تمجيسا، فكافة الخرافات الشركية لاصقة لاحقة على أهلها، و الأصل الثابت و الدين الحنيف القيم لها هو التوحيد قضية «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها».

و قد تعني «الولاية» هنا ولاية التوحيد و العبودية و ولاية التكوين و الإعادة و ولاية التشريع، فهي تجمع الأصول الثلاثة، ثم ولاية الأئمة كفرع من ولاية الشرعة الرسالية، و «إلى هاهنا التوحيد» كما مضت في رواية.

فآية الفطرة تأمرنا بمطالعة كتابها، و من ثم الآيات التي تستجيش العقول ان تعقل، تأمرنا بمطالعة كتاب العقل، و الوجه الروحي المأمور بإقامته للدين حنيفا هو وجه الروح و العقل و الصدر و القلب و اللب و الفؤاد، و على هامشها وجه الحس، و هذه السبع تقام للدين حنيفا ابتداء بكتاب الفطرة و إنهاء الى كتاب الشرعة، و العقل هو الوسيط في هذه الرحلة، مهما كان وجها من الوجوه السبعة.

نحن نجد أصول المعارف الإلهية في كتاب الفطرة، كما و نجد كل صغيرة و كبيرة من عقائد و أقوال و اعمال خيرة و شريرة، مرتسمة في كتاب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 161

الذات ظاهرة و باطنة حين الحساب‏ «وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً، اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى‏ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» (17: 14) و بين الكتابين كتاب الشرعة الإلهية «فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ ..» (73: 20) «ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ».

للفطرة احكام ثابتة لا مرد لها كما هي نفسها: «لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» إذا فهي أمتن قاعدة و أحسنها لتبنّي الكمالات الإنسانية، و على السالك الى اللّه أن يعتبرها أولى المنازل في سيره و أولاها.

و لكي تكون هذه السفرة ناجحة، عليه أن يتزود براحلتها «الفطرة» و زادها الستة الأخرى من عرفات آية الفطرة، و قد عرفنا الفطرة بعض المعرفة و إليكم الستة الأخرى:

1- معرفة النفس، 2- و حبها، 3- و إقامتها، و هي المطوية في «فأقم»، 4- ثم «وجهك»، 5- «للدين»، 6- «حنيفا» هي الأخرى من ألفاظها الأخرى.

معرفة النفس كما هيه حسب الطاقة البشرية هي اولى الخطوات في هذه الرحلة و على حد

قول الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) «من عرف نفسه فقد عرف ربه».

فلتعرف أولا من أنت، هل أنت- فقط- هذا البعد الحيواني، و كما اكثر الناس يظنون، «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» (30: 7) أولئك الذين يستعمرون كافة طاقاتهم المادية و المعنوية للشهوات و الحيونات، إذ ضلوا عن أنفسهم فظلوا عاكفين على حيوناتهم‏ «لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ‏ ... وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً» (18: 27) و ذلك رأس كل خطيئة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 162

أم أنت الروح الانساني كما هو مكتوب في كتاب الفطرة، فما الإنسان إلا عقلا فاهما، و ما قيمته إلا قدر عقله، فلتكرّس كافة طاقاتك مادية و معنوية في ترقية روحك.

و لما وجدت نفسك من أنت، تحب نفسك كما أنت، و ذلك الوجدان و الحب يدفعانك إلى محبوب مطلق و موجود مطلق، هو المنطلق لكل محب و موجود، و هو اللّه تعالى شأنه.

فمعرفة النفس بالحيوانية فحبها بها هي الكفر باللّه و بغضه، و لكن معرفتها بالروحانية و حبها بها هي معرفة اللّه و حبه.

فمن وجد نفسه كواقع الحق فقد وجد ربه، و من ضل عن نفسه فقد ضل عن ربه، و كلما ازداد الإنسان معرفة صالحة بنفسه ازداد معرفة بربه، فحين يعرف نفسه أنه لا شي‏ء في ذاته، يعرف اللّه و انه مصدر كل شي‏ء، فقر مطلق يتعلق بغنى مطلقة: «يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ»- «فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ».

ثم الوجه من كل شي‏ء ما يواجه به شيئا أو يواجه إليه، فتختلف وجوهه حسب اختلاف كيان المواجه و المواجه إليه.

فإذا كان المواجه إليه من عالم المادة فوجه الإنسان الموجّه إليه هو بعده المادي، سواء الوجه المعروف منه كعضو بين الأعضاء ك «اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى‏ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً» (12: 93).

ام ظاهر المقاديم من بدنه كما يتجه إلى القبلة «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» (3: 144)، ام البدن كله حيث يواجه حريقا شاملا يحرقه ظاهرا و باطنا، فكما وجه النار هنا هو كلها كذلك وجه الإنسان المحترق بالنار هو كله، و وجه الأرض ككل هو ظاهر الكرة الأرضية، و هو بوجه أخص‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 163

الأفق الذي أنت فيه حيث تواجهها بعين مجردة أو مسلحة.

و قد يعني وجه الشي‏ء أوّله لأنه في أوّل المواجهة، كوجه لنار: «آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ» (3: 72).

و إذا كان الموجّه إليه أمرا معنويا كعلم أو عقيدة أو شرعة و دين فالوجه إليه هو المعنوي من المواجه، و أحرى مصداق له هو اللّه‏ «بَلى‏ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ» (3: 112) و العبد كله، بظاهره و باطنه وجه للّه حيث يواجهه بعلمه و قدرته، و وجه إلى اللّه، حيث يتجه اليه بكله، بجسمه و روحه و عقله و صدره و قلبه و لبه و فؤاده.

إذا فللوجه وجوه حسب مختلف الوجوه، فالوجه المقام‏ «لِلدِّينِ حَنِيفاً» هو الإنسان ببعديه، بظاهر الحواس الخمس، و باطن المدركات الست روحا ككل، و عقلا ثم صدرا ثم قلبا ثم لبا ثم فؤادا، فانها المراتب المتدرجة المتفاضلة لادراكات الروح و معتقداته و اتجاهاته.

و هنا الفؤاد أعمق أعماق الروح المتكامل حيث يتفأد بنور المعرفة و اليقين كما للرسول الصادق الأمين: «ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى‏. أَ فَتُمارُونَهُ عَلى‏ ما يَرى‏. وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى‏. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى‏. عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى‏. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى‏» (53: 11- 16).

هذه وجوه سبعة للإنسان يجب ان يقيمها «لِلدِّينِ حَنِيفاً» ابتداء ب‏ «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها».

تجب إقامتها، دون توجيهها غير مقامه، حيث الروح الخامل، و العقل المتكاسل، و الصدر الضيق الشاغل، و القلب المقلوب القاحل، و اللّب او الفؤاد غير المتكامل، لا توجّه للدين إلّا أن تبوء بخسار، و كما الحسّ و هو الخطوة الأولى و البلد الأوّل من هذه الرحلة في بلاد العرفات، لا يأتي بغير قيامه إلّا بالبوار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 164

إلى هنا، و قد عرفت نفسك و أحببته مشيا على صراط مستقيم دون إكباب على وجهك، ثم عرفت وجهك بوجوهه و إقامته فيها، يجب ان تعرف «الدين» المتوجّه إليه كخامسة الخطوات فما هو الدين؟

الدين في أصله هو الطاعة، و هو هنا طاعة اللّه لأعلى مراتب التسليم، فهو الإسلام، و لا إسلام إلّا بالتوحيد فهو التوحيد، و لا توحيد إلّا بولاية اللّه تكوينا و تشريعا، بدء وعودا، و ولايته عبودية و «إلى هاهنا التوحيد» حيث يشمل دين التوحيد و التوحيد الدين: اصول الدين بفروعه.

و إلى سادسة هي عشيرة العشرة «حنيفا» فلتكن حنيفا مائلا عن الضلالة الى الاستقامة في معرفة نفسك و حبها و وجهها و إقامتها و الدين المتّجه إليه، حيث الجنف في ايّ من هذه يخسرك في رحلتك، و الحنف يربحك فيها، و مهما كان الإنسان حنيفا بذاته فقد يقصّر أو يقصر فيبدل حنفه إلى جنف:

«الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً» ثم و بصيغة سائغة واجب الحنافة ان تكون في هذه الرحلة عشيرة لعشرة كاملة بين العرفات السبع و الوجوه السبعة، باستثناء الحنافة نفسها لأن حنافتها تحصيل للحاصل اللهم إلّا كشفا عن غطاءها حيث تحسب الجنف حنفا إذ يحسب ضلاله هدى! و باستثناء الفطرة لأنها حنيفة في ذاتها، و الوجه فانه منقسم الى سبعة محسوبة في العشرة، و وجه الروح فانه و جهان من الوجوه السبعة، فهذه العشرة العشيرة مع الحنافة هي الروح: 1- بمعرفته، 2- و حبه و هما وجه الروح، 3- و إقامته، 4- و معرفة الدين، 5- و وجه الحس، 6- و العقل، 7- و الصدر، 8- و القلب، 9- و اللب، 10- و الفؤاد.

تلك عشرة كاملة مكملة إذا كانت عشيرة الحنف مهما كانت درجات،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 165

ثم هي عشرة ناقصة ناقضة إذا كانت أسيرة الجنف و عشيرته، مهما كانت دركات.

درجات لتلك الكاملة، و دركات لهذه الناقصة، تأمرنا آية الفطرة ان نزودها كلها بحنف، و «ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ».

فمن حنف الحس بادراكاته الخمس ان يحس بالدنيا ورائها دون إخلاد عليها و نظرة قاصرة إليها، فالدنيا أمام الحس اثنتان على حد

المروي عن الامام علي (عليه السلام) «من ابصر بها بصرته و من أبصر إليها أعمته».

فجنف الحس ان يقصر استعماله في الشهوات فتصبح عينا لا تبصر و سمعا لا يسمع، كما و جنف القلب فأصحابها كما قال اللّه: «وَ لَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ» (7: 179).

و لأن القلب هو قلب الروح فيشمل صدرا قبله و لبا و فؤادا بعده و عقلا معها و الروح كأمها، و كذلك العين و السمع هما أهم الحواس الظاهرة، فالآية تشمل حنف الحواس الخمس الظاهرة و الإدراكات الست الباطنة.

و الحنافة من قضايا الفطرة الإنسانية في أعمق أعماق الإدراكات، و الجنف ليس مقصودا بنفسه إلّا لمن يخطأ اليه الحنف قاصرا أو مقصرا و كما

يروى عن الامام علي امير المؤمنين (عليه السلام) «إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع و أحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله و يتولى عليها رجال رجالا فلو أن الحق خلص لم يخف على ذي حجى و لو ان الباطل خلص لم يكن اختلاف و لكن يؤخذ من هذا ضغث و من هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معا فهناك استحوذا الشيطان على أولياءه و نجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 166

و من حنف النفس معرفتها كما هي حسب الطاقة البشرية، و من جنفها تجاهلها كأن النفس هي البدن، و هناك- إذا- حنف في حبها فحب اللّه، ام جنف في حبها فحب اللهو، و كذلك حنف إقامتها و جنفها، و حنف الدين و جنفه، و حنف الحس و جنفه.

و من حنف العقل ان يعقل ما يحق عقله: «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (3: 342).

و من جنفه إلّا يعقل: «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ» (3: 131) «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ» (8: 12).

أم يصرف عقله في خدمة: الشيطنات و الحيونات‏ «وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى‏ أَ فَلا تَعْقِلُونَ» (28: 60).

و من حنف الصدر انشراحه لتقبّل الحق المعقول: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ» (6: 125).

و من جفنه ضيقه: «وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً» (125) أو شرحه بالكفر و هو ضيقه عن الايمان.

و من حنف القلب وعيه و سلمه‏ «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» (26: 89).

و من جنفه تقلّبه عن قلب الإنسان الى قلب حيوان و هو طبعه‏ «كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ» (40: 35).

و من حنف اللب ذكره الدائب دون غفلة «وَ ما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ» (2: 269).

و من جنفه أن يكون لباب الحيوان و الشيطان، خاويا عن لب الذكر و الايمان.

و من حنف الفؤاد تفئوده بنور اليقين: «ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى‏»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 167

(53: 11) و تثبّته بانباء الحق: «وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ» (11: 120) «كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا» (25: 32).

و من جنفه تفؤده بنيران الجهالات: «نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ. الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ» (104: 7).

ان الإنسان أيا كان يدرك بوجه الحس المحسوسات، و بوجه العقل يدرك المعقولات ببرهان و دون برهان كالمشهودات العقلية و ضرورياتها، و بوجه الصدر يصدرها ليعتقدها، و بوجه القلب يطمئن بها، و بوجه اللب يزيل أقشارها و اغشاءها و يبقي ألبابها، و بوجه الفؤاد يتفأد تفدية لها، فلا يبقي مجالا في لبّه لها.

نفس حنيفة بوجه حنيف و اقامة حنيفة لدين حنيف، تسلك صراطها المستقيم دون زلة و لا ضلة، ابتداء من‏ «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» و إنهاء الى شرعة اللّه التي كلف الناس بها و «ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ».

فالعقل هنا يأخذ الدين بيديه و كلتا يديه يمين، بيد اولى تأخذ من الفطرة، و بثانية تأخذ من الشرعة، ثم تنقل ما أخذت الى الصدر متكاملا، ثم الى القلب فأكمل، ثم اللب فأفضل، ثم الفؤاد و هو أكمل الأفضل و أفضل الأكمل، حيث لا يبقى في لب القلب إلّا شعلة النور المعرفية، متجاهلا عما سوى اللّه، متدليا باللّه‏ «ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى. فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى‏»! و لأن هذه الوجوه السبع درجات، و تلك العرفات السبع درجات.

فالنتيجة الحاصلة للسالك الى اللّه درجات حب الدرجات، من ادنى الايمان الى أعلاه و إلى العصمة، و الى أعلاها الخاصة بالرسول الأقدس محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و اهليه الطاهرين (عليهم السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 168

هناك وجه للدين و هو شرعة الدين، و هنا وجه الى الدين و هو مشرعة الدين: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» و كما ان دين الشرعة معصوم كذلك دين التكوين الشرعة معصوم، لا اختلاف و لا تخلف في احكامها.

إذا- فإلى أحضان الفطرة و أحكامها، لنقيم وجوهنا إليها للدين حنيفا، و ليكن اللّه معنا.

حب الكمال المطلق‏

إنّ الإنسان أيا كان يحب الكمال المطلق الذي لا حدّ له، و لأنه لا يجده في نفسه، فهو دائب السعي و الجد للوصول اليه، دون أية وقفة في جده و سعيه، و لأن هذا الكون كله محدود و ناقص، و كله فقير مفتاق، فلا يجد بغيته الأصيلة فيه، و هو متأكد أن ليس يجدها فيه على أية حال، فلو لا ان هناك في الكون كمالا مطلقا و هو لا يجده بتا في هذا الكون، فكيف لا تخمد نار حبه و تفؤّد فؤاده للوصول اليه، فلا فتور للفطرة في حب الكمال المطلق.

انه- قطعا و بيقين- يحب الكمال المطلق، و هو لا يجده قطعا و يقينا في هذا الكون المحسوس و كله محدود، فليكن ذلك الكائن اللّامحدود موجودا وراء الحس و المادة، و هو يحدّد الحدود، و يفيض على المحدود الفقير الفقير في ذاته على أية حال، و هذه هي فطرة المعرفة و دين المعرفة للّه.

و هذه ضابطة سارية قاطعة ان واقع الحب يقتضي واقع المحبوب، إلا حبا خاطئا بتخيّل وجود المحبوب أو إمكانيته، فإذا تأكد من استحالة المحبوب زال حبه إذ لا يعقل حسب المستحيل.

و الإنسان المحب للكمال المطلق اللّامحدود حين يتأكد أنه مستحيل في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 169

الكون المادي، نراه لا يزول حبه و لا يزال محبا كما كان، و هذا يكشف عن واقع المحبوب وراء عالم المادة دون جدال و لا هوادة.

و لأن الكمال المطلق يقتضي كأصول صفاته الذاتية، الحياة السرمدية، و العلم غير المحدود المطلق عن كل حد و حدود، و القدرة اللّامحدودة بحدود، فهذه الثلاث ايضا محبوبة فطرية لأنها من لزامات الكمال المطلق، كما ان الحياة السرمدية هي محط العلم و القدرة اللّانهائية.

ثم و كل واحدة منها محبوبة فطرية ذاتية، فلا تجد من الناس أحدا إلّا و يحب هذه الثلاث حبا دائبا لا فتور فيه و لا فطور، و لأنه لا يجدها في هذا الكون المحسوس المحدود، و هو متأكد أنها مستحيلة الوجود له و لسواه من كائن محدود «30» و مع ذلك لا تفتر فطرته في حبّها ذاتية، فلتكن موجودة لمحبوبه الأول الكامل المطلق اللانهائي و هو اللّه تعالى شأنه.

حبّ عريق في الفطرة، عميق مندغم في ذاتها دون فترة، أولا يكشف عن وجود محبوبه، و لو أخطأت الفطرة في هكذا حب عريق دائب، فليعش الإنسان أيا كان حياته كله اخطاء و اخطاء، و ليخطأ عقله على طول الخط، ما دامت فطرته المعصومة عن الخطأ خاطئة في هكذا محبوب، و بأحرى الأخطاء في حواسه و كل إدراكاته ما دامت فطرته و هي الأصيلة في كيانه، و القاعدة الأصيلة في انسانيته، هي خاطئة فيما تحبه ذاتية دون تبدّل و لا تبديل، و لكن‏ «لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ».

ان العقلاء يرون عقولهم حجة مصيبة على أخطاءها، و كذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(30) و ذلك لأن اللامحدود من وجود و كمالاته لا يحل في المحدود من جسم، و هذا دليل فطري على انه تعالى مجرد عن المادة و خواصها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 170

حواسهم رغم أخطاءها، أ فلا يرون- بعد- أن فطرهم مصيبة و لا يختلفون فيها و لا يتخلفون عنها؟

إذا فدين الفطرة تدين له البشرية عن بكرتها دون خلاف، و هكذا يكون كتاب اللّه: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها».

و من ثم حكم ثان- كما الأول- للفطرة، ان المحبوب واحد لا شريك له، حيث لا يتعلق قلب الإنسان أيا كان، ملحدا أو مشركا أو موحدا، لا يتعلق- على أية حال- إلّا بنقطة واحدة و لا سيما إذا انقطعت الأسباب، و حارت دون الخطر المحدق كلّ الألباب، كما و آيات ركوب البحر الملتطم بأمواجه، و الضر المحيط على الإنسان بأفواجه، تدل على ذلك الحكم الفطري، و منها الآية التالية آية الفطرة كمثال ماثل من احكامها: «وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» (32- 34) و كم لها من نظير في سائر القرآن مثالا من أحكام ثابتة عدة للفطرة، لا نكير لها بين الناس أجمعين، و هي حجة اللّه على الناس بينهم و بينه مهما أنكروها أمام الناس بغية استمرارية حياة الشهوة و حرية الحيونة: «وَ ما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ. ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ» (16: 54) «وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ» (39: 8)- «فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى‏ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» (39: 49).

و مثال ثان لحكم التوحيد حسب الفطرة: «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَ فَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 171

عاصِفٌ وَ جاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ 22 فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (10: 23)- «وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ. فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» (29: 66)- «وَ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَ كانَ الْإِنْسانُ كَفُوراً» (17: 67).

آيات سبع مما تدل على ذلك الحكم الفطري، أن الإنسان في أعمق أعماق كيانه منعطف الى نقطة واحدة من الكمال اللّامحدود، لا ينعطف إليها بطبيعة الحال، إلّا عند ما تقطعت الأسباب التي يعيشها و يظن انها هي التي تعيّشه و تنفعه أو تضره، فيشركها بربه، ام و ينكر ربه مؤلّها إياها ملحدا بربه.

و لو لا هنا إلّا ذلك الحكم الحكيم ل «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» لكفي برهانا صارخا من عمق ذاته أن‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» فان الاعتراف بأصل وجود اللّه مطوي فيها دون هوادة.

و من ثم العقل حيث يتبني الفطرة و سائر الآيات أنفسية و آفاقية، يكمل المعرفة التوحيدية ببراهين تفصيلية هي كتفسير لإجمال ما في الفطرة، ثم الشرعة الإلهية حيث يتبناهما، تشرح كلمة التوحيد بتفاصيل حكيمة معصومة، ملائمة للفطرة اوليا و للعقل ثانويا، إذا فثلّت الدين الحنيف القيم، كله صارخ بأن‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 172

فالشرعة تصوّب إجمال حكم الفطرة و تخطّئ البعض من أحكام العقل المتخلفة عن الفطرة، و ترشده على ضوء الفطرة إلى صراط مستقيم.

و من حكم العقل استحالة التعدد في المطلق، و لا سيما الذي لا حدّ له، حيث التعدد بحاجة ماسة الى ميزة بين المتعددين، هي الفصل المايز الفاصل بينهما، و ما يز الزمان و المكان و الحدود المادية الأخرى مسلوب عن ذلك الكامل المطلق، و مايزة الصفات ذاتية و فعلية مستحيلة في غير المحدودين، فانها إما صفة كمال أو نقص، و الثاني يناقض كما له فضلا عن اللانهائي، و الكمال لكلّ دون الآخر يحكم بنقص الآخر فهما- إذا- ناقصان.

و كيف يمكن التعدد في المطلق اللّامحدود، و لا يمكن في محدوده، فمطلق الماء دون أية قيود و حدود و ألوان ليس إلّا واحدا، و الماء في ذلك الإطلاق محدود في واقعه، فالمطلق اللّامحدود مستحيل التعدد من بعدين اثنين.

و حكم ثالث تحكم فيه بالحياة الآخرة هو حب الحياة اللانهائية لنفسه، و هذا يختلف عن حب الحياة السرمدية المستحيلة له، حيث الفطرة تحب مطلق الكمال كما تحب الكمال المطلق، و الثاني منفصل عن ذاته، مستحيل لذاته، و الأول محبوب لذاته في ذاته و منه الحياة الأبدية، ففي حين تعلم كلّ نفس انها ذائقة الموت، و مع ذلك لا فتور في فطرته لحب الحياة الأبدية، فلو كان موته فوته، دون حياة بعده، لكان محبوبه تخيّلا لا واقع له، و الحب الفطري المندغم في الذات يحيل عدم المحبوب، و يفرض وجوده، و إذ لا أبدية في الحياة الدنيا فلتكن بعدها و هي حياة الحساب.

و لئن سألت: إذا كانت الحياة محبوبة الذات فلما ذا ينتحر البعض رغم حب الحياة؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 173

قلنا: و ذلك دليل آخر على حب الحياة، فلا أحد يرجّح الموت على الحياة إلّا لحب الذات بحياة مريحة، و اما الحياة الهرجة المحرجة المريجة، فلا يتصبّر عليها إلّا كل ذو حظ عظيم من معرفة الحياة بعد الممات، ثم قليلو المعرفة، و الناكرون للحياة بعد الموت، هؤلاء قد يفضّلون الموت على شقوة الحياة، حبا لراحة الحياة و بغضا لشقوتها، ثم و كافة المحاولات للإنسان تهدف الى حياة مريحة مستمرة كأطول ما يمكن، فلا أحد- إذا- إلّا و يحب الحياة بأبديتها.

و مما يؤيد ذلك الحكم حكم الفطرة بحب استدامة الصيت و الاسم بعد الموت، فلو كان الموت فوتا لفترت الفطرة في حكمها او نفدت فيه، و نحن نرى المعترف بالحياة بعد الموت و الناكر لها يحبان ذلك الصيت كما يحبان الأبدية، دون فتور لهذا الحب أو ذاك، مع العلم بواقع الموت، فلو لا الحياة بعد الموت، فلا موقع لذلك الحب! و لا سيما لمنكر الحياة بعد الموت، فما يفيده صيته و تردّد اسمه بخير على الألسن بعد موته إذا كان موته فوته، فمن ذا الذي يحظو ببقاء اسمه لو لا حياته بعد موته؟

هذا حكم الفطرة، و ثم العقل يحكم بلزوم الحياة بعد الموت قضية علمه تعالى و عدله فليجازي المحسن و المسي‏ء، و إذ لا جزاء في الدنيا فليكن في الأخرى، تداوما و تفصيلا لحكم الفطرة.

ثم الشرعة المعصومة فيها كل تفاصيل ذلك الحكم الفطري و العقلي، مخطئة أخطاء العقل، مقررة صوابه و حكم الفطرة.

و حكم رابع للفطرة وجوب احترام المحبوب الكامل الحاضر المقتدر العالم المنعم المنتقم، و كل هذه السبع موجودة للّه الواحد القهار لأعلى القمم، و لا بد أن يحترم كما يشاء و يرضى و لا سبيل الى معرفة مشية و رضاه في كيف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 174

يحترم و يعبد إلّا بوحيه، و إذ لا يوحي إلينا أجمع فليوح إلى بعض الصالحين من عباده المخلصين، و هذه هي النبوة العامة، الأصل الثالث من اصول الدين الحنيف القيم.

فلأنه تعالى هو الكامل لغير النهاية، فليكن محبوبا لغير النهاية، و قضية الحب احترام المحبوب قدر الحب حتى في غيبه فكيف إذا كان حاضرا ناظرا فانه قضية العلم المطلق، و كيف إذا كان قديرا على كل شي‏ء؟ فانه قضية الكمال المطلق كما العلم! و كيف إذا كان منعما؟ «وَ ما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ» و من ثم إذا كان منتقما بعدله بين خليقته.

ثم الفطرة تحب مطلق المعرفة كما تحب المعرفة المطلقة و معرفة المطلق و هو اللّه تعالى شأنه، و من ثم العبودية لذلك المطلق استكمالا للإنسان، ثم العدالة تعديلا لكيانه و سائر الإنسان.

حب المعرفة يجذبه إلى معرفة اللّه و توحيده، و حب المعدلة تعرّفه أنه لا بد من حياة الحساب بعد الموت ليظهر فيه عدل اللّه تعالى إذ لم يظهر تماما يوم الدنيا لأنها يوم التكليف الاختبار الاختيار، و حب العبودية تدفعه إلى التفتيش عن كيف يعبد ربه و لا سبيل له إلا الوحي.

فهذه الأصول الثلاثة المعرفية كلها مندغمة في الفطرة إذا أزيلت عنها حجب الظلمة، و استفرغت لاتجاه الإنسان بوجوهه لها و إليها حنيفا في عشرة كاملة، و «ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ».

ما من انسان إلّا و يحب التخضع لحد و العبودية للأكمل منه، فهل يجد أكمل من اللّه و أفضل أو من يساميه في محتده فيعبده دونه او يشركه به؟

ذلك هو الميثاق المأخوذ على ذرية بني آدم كما تتحدث عنها آية الذرية، و هي ذرية الروح لمكان المعرفة «أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى‏» «مِنْ ظُهُورِهِمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 175

ذُرِّيَّتَهُمْ» لا تعني إلّا ظهور الأرواح و هي أصلابها الأعماق، و هي الأصول الفطرية التي تتبناها الأرواح.

فكما للجسم ظهر الصلب و هو النطفة الجرثومية التي هي اصل الجسم، كذلك للروح ظهر الصلب و هو الفطرة الجرثومية التي هي اصل الروح، و هما البعدان الأولان لأيّ انسان! و إليكم تفاصيل الدرجات السبع لأحكام الفطرة، حيث تتدرج الست منها من حب الكمال المطلق الذي لا حدّ له.

سبق ان تحدثنا عن حب الكمال المطلق و على ضوءه معرفة الخالق و توحيده و «هل الدين إلا الحب»؟

1- ثم حب ذلك المطلق اللانهائي تفرض احترامه على أية حال دون اي اخترام، و احترام الكامل- أيا كان- هو من الحقائق الفطرية بالنسبة لأي كامل باي كمال، حاضرا و غائبا، مقتدرا و عاجزا، عالما و جاهلا، منعما أو متنعما، منتقما ان لم تحترمه أو غير منتقم، فما جوابك في الهول المطلع حين يسألك ربك: ألم أكن كاملا و أكمل من سائر الكون، فكيف احترمت كل كامل و اخترمت خالقهم؟

2- ثم احترام المحبوب فطري حتى ان فقدت الست الأخرى، فما جوابك حين تسأل: ألم أكن محبوبك، واجدا للست الأخرى أكمل و أحرى من سائر الكون، فكيف احترمت كل محبوب و اخترمتني و انا فوق كل محبوب؟

3- ثم احترام المقتدر فطري إذا كان عادلا حتى ان فقدت الست الأخرى، فما جوابك حين تسأل: الم أكن مقتدرا عدلا و أفضل من سائر الكون، فكيف احترمت كل مقتدر سواي و اخترمتني؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 176

4- ثم احترام العالم فطري حتى إذا فقدت الست الأخرى، فما جوابك حين تسأل: الم أكن عالما و اعلم من سائر الكون؟ فكيف احترمت كل عالم سواي و اخترمتني؟

5- ثم احترام المنعم فطري حتى إذا فقدت الست الأخرى فما جوابك حين تسأل: الم أكن منعما عليك و علي كل المنعمين عليك، فكيف احترمت كل منعم عليك و اخترمتني؟. ثم احترام المنتقم- إلى- و اخترمتني.

7- ثم احترام الحاضر- أيا كان- فطري، حتى إذا كان عدوا لك، و حتى إذا كان صورة منه أو تمثال، لا يتجاوز حضوره عالم الخيال، فما جوابك حين تسأل: ألم أكن معك حاضرا حضور العلم‏ «وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» حاضرا عندك أكثر من حضورك أنت لنفسك،

«اعبد ربك كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ما جوابك حين يسألك ربك، الم أكن كاملا محبوبا مقتدرا عالما منعما منتقما و حاضرا عندك، و أفضل في كل ذلك لغير النهاية من غيري و لو جمع السبعة، فكيف احترمتهم و احترمتني؟.

ان جواب المخلصين من عباد اللّه هو إخلاص العبادة للّه على درجاتهم، بل ليسوا ليسألوا كمن سواهم! ثم جواب المؤمنين فيما قصروا في كبيرة أو صغيرة: أننا كنا غافلين، مهما كنا في غفلتنا مقصرين:

«رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ إِسْرافَنا فِي أَمْرِنا ..» (3: 147) اعتذارا مقبولا لمن تركوا كبائر ما ينهون عنه: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً» (4: 31).

ثم لمن يستشفع فيشفع له عفوا في قسم من الكبائر، ثم لمن لا شفاعة و له بقية من الايمان عقوبة الدنيا ثم البرزخ ثم القيامة ثم إلى رحمة اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 177

و من مقال المذنبين من المؤمنين ما قاله آدم و زوجه‏ «قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ» (7: 23).

ثم لا جواب لغيرهما من مطلق الكافرين، منافقين ام اهل كتاب منسوخ، ام مشركين ام ملحدين، حيث الأحكام الفطرية تشمل الناس أجمعين، لا يفلت منها فالت.

فيا ويلنا من هول المطّلع حين يستجوبنا ربنا عما اخترمناه، حينما احترمنا سواه من خلقه و هم غيّب، و إذا كانوا حضورا فهم بحضرته صغار صغار.

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» فانها مشرّعة لمعرفة الشرعة الإلهية و تصديقها، و ما هذه الشرائع إلّا شراحا لأحكام الفطرة، و قد يعتبرها القرآن ذكريات لما في الفطرة حيث حججت فاستغفلت، فآيات القرآن ذكريات لآيات الفطرة و اين آيات من آيات و ان كانت كلها معصومة لأنها مما كتب اللّه.

فآيات ذكر اللّه في كتاب الشرعة توحي بأصل المعرفة المحجوبة في الفطرة «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَ اشْكُرُوا لِي وَ لا تَكْفُرُونِ» (2: 152) و لا ذكر إلّا بعد نسيان، كما لا نسيان إلّا عن كائن سابق.

كما و آيات ذكر الإنسان بخلقه و لم يك شيئا توحي بأصل المعرفة أن اللّه خالقه:

«أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً» (19: 63).

و آيات ذكر الإنسان بنعم اللّه السابغة توحي باعترافه المنسي المتغافل المتجاهل:

«وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» (2: 231) «فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» (7: 74).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 178

ثم و الشرعة الإلهية جملة و تفصيلا، أصولا و فروعا، ليست إلّا ذكرى، و لا الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) إلّا مذكرا: «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ» (50: 45) «فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى‏» (87: 9) و أخيرا:

«فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ» (88: 22) و لا تذكير إلّا بماله اصل سابق سابغ مغفول، فلتكن الشرعة كائنة في الفطرة مغفولة.

لذلك يسمى كتاب الشرعة ذكرا «ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ» (3: 58) «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ» (15: 9) «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. لِمَنْ شاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ» (81: 28) «وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَ فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ» (21: 50) «إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ» (36: 11) كذلك و كل كتاب سماوي ذكر: «ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ..» (21: 3).

كما و ان رسوله ذكر يحمل ذلك الذكر: «فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ ..» (65: 10) «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ» (36: 69).

يذكر الذكر في القرآن بمختلف صيغة و موارده زهاء (267) مرة مما يبرهن واضحة ان كتاب التدوين الشرعة نسخة كاملة عن كتاب التكوين الفطرة، مهما بان البون بينهما جملة و تفصيلا.

فلنقرء كتاب الفطرة بإقامة الوجه إليها حنفاء لكي تتسهل لنا قراءة كتاب الشرعة، نقرء كتاب الفطرة بحنف في بنوده العشرة.

ففي إقامة وجه الحس بوجوهه الخمسة، المفروض إصلاح الحس دون إخلاد فيها إلى الأرض و اتباع الهوى، فليعرف بفطرياته السبع انه في استعمال حواسه أمام محبوب كامل مقتدر عالم منعم منتقم حاضر، فليكن حاذرا متحضرا في صلاحه على أية حال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 179

و في اقامة وجه العقل الى الدين حنيفا لا بد من مراجعة الفطرة في احكامها، كيلا يخطأ أو يقصر أو يقصّر في تعقله، و لينظر إلى آيات اللّه آفاقية و انفسية على غرار الفطرة.

و في اقامة وجه القلب الى الدين حنيفا لا بد من قطع العلائق العالقة الحالقة الدنيوية لكي تتجلى فيه نور المعرفة، و هذه الثلاث هي اصول وجوه الإنسان، حيث القلب قلب بين الصدر قبله و اللب و الفؤاد بعده، و هذه حالاته و درجاته.

و بذلك نرى ربطا عريقا عميقا بين كتاب الفطرة و كتاب الشرعة و كلاهما من صنع اللّه وفقا لناموس الكون.

فالاعتراف بالربوبية الوحيدة فطرة غير وهيدة في الكيان الانساني، أودعها اللّه تعالى في هذه الكينونة الغالية، فالرسالات- إذا- ليست إلا تذكيرات لها، و تحذيرات، لمن ينحرفون عنها و ينجرفون، فهم- إذا- يحتاجون إلى تذكيرات و تحذيرات، فالتوحيد إذا ميثاق معقود بين فطرت الناس و خالق الناس منذ كينونتهم الأولى، فلا حجة لهم في نقض ذلك الميثاق و حتى لو لم يبعث إليهم الرسل مبشرين و منذرين، و لكن رحمته تعالى اقتضت ألّا يكلهم إلى فطرهم إذ قد تنحرف حين تحجب، و لا إلى عقولهم إذ تنجرف حتى إذا لم تحجب، فلتلك معصومة في أصلها، و هذه ليست معصومة.

مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ‏ 31.

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ‏ .. مُنِيبِينَ إِلَيْهِ»- إقامة بادئة من رسول الهدى، ناحية منحى كل المرسل إليهم ك «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ» (65: 1) و «فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ» (11: 112). و الإنابة هي الرجوع بنوبات متتاليات، و إقامة الوجه الى الدين حنيفا بحاجة في كمالها إلى حالة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 180

الإنابة الى اللّه كما و «منيبين» حال من «أقم» بتأويل الجمع كما قلناه ام لأنه يعني الجمع على الأبدال، «فأقم» أنت يا رسول الهدى، و كل من يأهل لهذا الخطاب، أم «أقم» وَ مَنْ تابَ مَعَكَ».

و ليس فقط «مُنِيبِينَ إِلَيْهِ» بالوجوه الباطنة ام بوجه القال، بل و بوجوه الأعمال: «و اتقوه» و لكي تكمل الصلاة في هذه الإقامة الإنابة الاتقاء:

«وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ» فانها خير الصلات الى اللّه‏ «وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» المفرّقين دينهم بين اللّه و ما اتخذوها شركاء للّه:

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ‏ 32.

تفريق الدين و هو الطاعة للّه عز و جل، يقابل إقامته له لا شريك له:

«شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ..» (42: 13)- «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْ‏ءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ» (6: 159).

ف «المشركين» هنا ليسوا فقط الوثنيين، بل و أهل الكتاب المفرقون دينهم هم داخلون هنا في زمرتهم، فان إقامة الوجه للدين حنيفا بإتابة و اتقاء و إقام الصلاة، هذه تناحر و تفرق الدين، فانه خلاف الفطرة و الشرعة الإلهية، و لا يرضى اللّه من عباده شيعا متفرقين في دينه، و لا يحكم في عصر واحد إلّا شرعة واحدة من الدين، و هذا هو إقامة الدين، قياما له في كل زمن بشرعة يشرعها اللّه منه.

و المفرقون في الدين هم أحزاب و ليسوا متشرعين بشرعة الدين الموحدة بين كافة المكلفين: «كُلُّ حِزْبٍ‏- منهم- بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» و لا فرح لديّن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 181

إلّا بما شرّعه اللّه لا ما فرقه هو من دين اللّه، و هؤلاء كما المشركون تبنّوا دينهم على أهوائهم بغير علم و هم يعلمون، متجاهلين عن حكم الفطرة و العقل و الدين، و لأن الأهواء مختلفة، و الجهالات متفرقة، فهم لذلك فرقوا دينهم بكل فرقة فرقة فرقة، و شيعة شيعة، و حزبا حزبا «كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ»- «وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» (6: 153).

إنه لا تنتهي أنماط الشرك و سبله إلى نهاية إذ لا نهاية للأهواء الجاهلة في هوساتها، و الصراط المستقيم هو إقامة الدين بشرعة واحدة، مهما اختلفت بعض التصورات الفرعية في بعض الفروعات على ضوء الاجتهادات السليمة فانها لا تضر بوحدة الشرعة في إقامة الدين، كما أن مختلف الواجبات و المحرمات حسب مختلف الظروف و الحالات لا تضرّ بها، و إنما التنديد في هذه الآية و اضرابها بمن يتفرقون في أصل الدين عن هوى جاهلة، دون اختلاف الاجتهادات في البعض من فروعها عن هدى كاملة، سنادا إلى الكتاب و السنة، اللهم إلّا اجتهادات منتخلّفة عن حجة الكتاب و ثابت السنة قاصرة أم مقصرة.

و من جلوات الفطرة بأحكامها حالات الضرّ و تقطّع الأسباب إذ لا أمل فيما كانوا يأملون أو يعملون:

وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ‏ 33.

«فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ. لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» (29: 66).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 182

و هذه اندفاعة و انابة إلى اللّه فطريا بتيارات الضر الطائرات أحيانا، إذ لا يجد الإنسان عندها ملجأ إلّا اللّه الذي كان ناكره او مشركا به قبلها، فهنا «دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ» اتجاها ضاربا بنوبات متتالية و صرخات مدوية لا تنقطع.

«ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً» تكشف ضرهم‏ «إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ» و هم الأكثرية الساحقة «بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ» سواه قائلين: هذه صدفة طيبة، ام لو لا فلان لما كشف عني ضري، أماذا من خربطات القيلات التي هي ويلات على أصحابها، و ترى ما هو موقف «منه» هنا؟ هل هي: من اللّه؟ و لا ريب في ان رحمة اللّه هي من اللّه لا سواه، و لا سيما أن القائل هو اللّه، فقد تلمح «منه» كأن هناك رحمات من غير اللّه يؤتيها اللّه لمن مسّه ضر، ويكأن اللّه ليست عنده رحمة فيستدينها ممن سواه! «منه» قد لا يعني من اللّه، بل هو من ضر مسّه، ليعلم انها رحمة خاصة بهذا الضر دون مطلق الرحمة التي لا ينالها إلّا الأقربون، و إنما رحمة من ضرهم، تخلصهم عنه، فقد تكون- على خاصتها- رحمة سلبية- فقط- هي ازالة الضر الخاص.

فهناك من الضر زحمة بإيجابه و رحمة بسلبه «فإذا أذاقهم منه (الضر) رحمة» تسلبه ...

و قد تعني «منه»- اضافة إلى الضر- اللّه سبحانه، رحمة من اللّه من ضرّ، و لا ضير ان يكون ضمن المعنى و على هامشه، إذ لا تلمح- إذا- ما لمحته أولا، بل و قد يعنى الثاني أصالة كما الأول كما «.. وَ إِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها ..» (42: 48).

و «منا» هي لبيان أن الرحمة ليست مستحقة للإنسان أيا كان، فانما هي فضل من اللّه دونما استحقاق لأهله، بل هو إمتحان كما الضر إمتحان.

إذا فأصل المعني في «رحمة منه» هو الرحمة من اللّه، مهما كانت بازالة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 183

ضر مسّه أم سواها.

و لما ذا «إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ» بعد الانابة و ذوق رحمة منه؟:

لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ‏ 34.

لا يعني إشراكهم عند الرحمة انقلاب الفطرة عن اللّه الى سواه، فانما هو غفلة عامدة، و غفوة عائدة، مصلحية الحفاظ على إشراكهم باللّه‏ «لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ» بعد ما آمنوا، كفرانا فكفرا، و هنا يوجّه إليهم خطاب العتاب. «فتمتعوا» بما أذقناكم من رحمة تمتّع الحيوان و أحون، و هذا نهي صارم بصيغة الأمر، يوجّه إلى من لا يجديه نهي و لا أمر حين يتخلف عن فطرته و عقليته و شرعته، تجاهلا عن كل ذلك كأنه لا يعلم‏ «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» في البرزخ و القيامة ام و هنا في الرجعة او قبلها «تعلمون» عين اليقين و حق اليقين، برؤية العذاب و ذوقه بما كنتم تكفرون.

في العنكبوت «ليتمتعوا» بعد «ليكفروا» و هنا «فتمتعوا» بيان لموقف هذا الأمر، انهم يشركون بغية الكفر و التمتع، فليؤمروا بما ابتغوا كنهي صارم بصيغة الأمر إذ لا أسماع تصغي و لا قلوب تعي‏ «ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ».

أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ‏ 35.

أ تدلهم فطرتهم أو عقليتهم أو شرعة اللّه إلى اشراكهم؟ «أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً» آخر غير سلطان التكوين فطرة و عقلية، و سلطان التشريع في كل شرعة «فهو» السلطان المتخلف عن مثلث السلطان‏ «يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ» فما هو ذلك السلطان؟! أم هل يجوز أن ينزل عليهم سلطانين متناقضين في التوحيد و الإشراك، ام لهم سبيل الى نكران مثلث السلطان الدال على التوحيد، و لا سيما فطرت اللّه التي فطر الناس عليها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 184

وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ‏ 36.

«رحمة» هنا علّها أعم مما هناك، فانها مطلق الرحمة و تلك «رحمة منه» و قد تكون خاصة بإزاحة الضّر، و «فَرِحُوا بِها» مقابل «يقنطون» يتضمن الأمل، فالناس هنا هم الآملون في إذاقة الرحمة، القانطون في اصابة السيئة بما قدمت أنفسهم.

تراها كيف تلائم المعاكسة في الآية السابقة القائلة عن الناس أنهم حين يمسهم الضر ينيبون الى ربهم و لزامها الأمل و حين ذوق الرحمة مشركون و لزامه القنوط؟

هنا «رَحْمَةً فَرِحُوا بِها» تعم الفرح المرح، و قد يتضمن الإشراك باللّه، و غيره الجامع أحيانا مع ايمان دون تمام، و هناك «رحمة منه» هي المزيلة للضر و هنا فريق منهم يشركون لا كلهم، ثم و إصابة السيئة حيث تقنطهم قد تجمع القنوط القاحل بنكران اللّه، و أخرى القنوط الذي يدفعه للإنابة إلى اللّه لكي يزول بزوال أسبابه.

ثم الناس هنا غير الناس هناك فإنهم مختلفون في إذاقة الرحمة و إصابة الضر بمعاكسة، «مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلى‏ حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى‏ وَجْهِهِ» (22: 11) و الناس هنا مثالهم كما «.. وَ إِنَّا إِذا أَذَقْنَا الْإِنْسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسانَ كَفُورٌ» (52: 48). و منهم من يعاكس هؤلاء، و الآية الأولى مثالهم كما «وَ إِذا أَنْعَمْنا عَلَى الْإِنْسانِ أَعْرَضَ وَ نَأى‏ بِجانِبِهِ وَ إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعاءٍ عَرِيضٍ» (41: 51) و منهم من هم على سواء في الحالتين، راضين بمرضات اللّه و مثلهم: «لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلى‏ ما فاتَكُمْ وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ» (57: 23).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 185

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ‏ 37.

بسط الرزق و قدره أيا كان إنما هما بمشيئة اللّه حسب الحكمة العالية الربانية كما يراها اللّه، و في كلّ من البسط و القدر «لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» باللّه، أنه لا يبسط أو يقدر رزقه إلّا بحكمة امتحانا أو امتهانا، و في كلّ ابتلاء، بل البلاء في خضمّ الرزق أبلى و أشجى من قدره.

و الواو هنا قد تعطف الى ما تغافلوا عنه و هو: إن لم يروا معاكسة في الرزق و قدره بين المؤمنين و سواهم، بسطا لهم في الأكثر و قدرا للمؤمنين، و ليس في ذلك حط لقدرهم أولاء و رفع لقدر هؤلاء، فإن لم يروا «أَ وَ لَمْ يَرَوْا» بصورة طليقة بين القبيليين‏ «أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ» مؤمنا و كافرا على قلة اهتمام في طلبه و جهله بموارده «و يقدر» لمن يشاء على كثرة اهتمامه و علمه بموارده‏ «إِنَّ فِي ذلِكَ» الاختلاف الظاهر في بسط الرزق و قدره «لآيات» تدل على قدرة حكيمة و إرادة طليقة وراء القدرات و المحاولات.

ثم البسط و القدر هنا لا يخصان حقل التكوين بل و التشريع ايضا حيث يفضّل اللّه بعضا على بعض في الرزق إيتاء و إنفاقا و كما:

فَآتِ ذَا الْقُرْبى‏ حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ‏ 38.

آيتان تامرانه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بإيتاء ذي القربى حقه أولاهما في الأسرى: «وَ آتِ ذَا الْقُرْبى‏ حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ وَ لا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً» (26) و قد قدمنا فيها أن «ذا القربى» هو صاحب القرابة الأدنى الى رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): نسبيا و رساليا، حقّ المال و حقّ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 186

الحال، إمرة للإمام علي و فدكا لفاطمة عليهما السلام و قد آتاهما «31».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(31) و مما

ورد في شأن نزولها ما ذكره ملا معين الكاشفي في معارج النبوة (1: 227) لما نزل جبرئيل الى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بقوله‏ «وَ آتِ ذَا الْقُرْبى‏ حَقَّهُ» قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): من ذو القربى و ما حقه؟ قال: هو فاطمة فأعطها فدك.

و

في مجمع الزوائد عن أبي سعيد قال: لما نزلت دعا النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فاطمة فأعطاها فدك، كما أخرجه عنه البزار و ابو يعلي و ابن أبي حاتم و ابن مردويه، و من وجه عام في القربى اخرج الثعلبي في تفسيره روى عن السدي عن أبي الديلمي عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: نحن ذو القربى.

أقول: قد اوردنا أحاديث من طرق إخواننا السنة حول قصة فدك في تفسير الآية «وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ» في سورة النمل فلا نعيدها هنا، و انما نذكر نموذجا مما رواه أصحابنا الإمامية، منها ما

في تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن عثمان بن عيسى و حماد بن عثمان عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: لما بويع لأبي بكر و استقام له الأمر على جميع المهاجرين و الأنصار بعث إلى فدك من أخرج وكيل فاطمة بنت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) منها فجاءت فاطمة عليها السلام الى أبي بكر فقالت: يا با بكر منعتني ميراثي من رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و أخرجت وكيلي من فدك و قد جعلها لي رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بأمر اللّه عز و جل؟ فقال لها: هاتي على ذلك شهودا فجاءت بأم ايمن فقالت: لا اشهد حتى احتج يا أبا بكر عليك بما قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فقالت: أنشدك يا أبا بكر الست تعلم ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال: ام ايمن امرأة من أهل الجنة؟ قال: بلى قالت:

فأشهد بان اللّه أوحى إلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) «وَ آتِ ذَا الْقُرْبى‏ حَقَّهُ» فجعل فدك لفاطمة بأمر اللّه و جاء على فشهد بمثل ذلك فكتب لها كتابا و دفعه أليها فدخل عمر فقال: ما هذا الكتاب؟ فقال ابو بكر: ان فاطمة ادعت في فدك و شهدت لها ام ايمن و علي فكتبت لها بفدك، فأخذ عمر الكتاب من فاطمة فمزقه و قال: هذا في‏ء المسلمين، و قال: أوس بن الحدثان و عائشة و حفصة يشهدون على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) انه قال: انا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة، و ان عليا زوجها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 187

و تراها كيف تعني الحقين و هما مدنيتان و هي مكية؟ قد تكون هي و صاحبتها مكية إعلانا من قبل ان يؤتي ذا قرباه حقه وقته مهما كان مدنيا،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يجرّ الى نفسه و ام ايمن فهي امرأة صالحة لو كان معها غيرها لنظرنا فيه، فخرجت فاطمة عليها السلام من عندها باكية حزينة فلما كان بعد هذا جاء علي (عليه السلام) الى أبي بكر و هو في المسجد و حوله المهاجرون و الأنصار فقال: يا با بكر لم منعت فاطمة من ميراثها من رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و قد ملكته في حياة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فقال ابو بكر: هذا في‏ء المسلمين فان أقامت شهودا ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) جعل لها و الا فلا حق لها فيه، فقال امير المؤمنين (عليه السلام) تحكم فينا بخلاف حكم اللّه في المسلمين؟ قال: لا، قال: فان كان في يد المسلمين شي‏ء يملكونه و ادعيت انا فيه من تسأل البينة؟ قال: إياك كنت اسأل البينة على ما تدعيه على المسلمين، قال: و إذا كان في يدي شي‏ء فادعى فيه المسلمون فتسألني البينة على ما في يدي و قد ملكته في حياة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و بعده و لم تسأل المسلمين البينة على ما ادعوا علي شهودا كما سألتني على ما ادعيت عليهم شهودا؟

فسكت ابو بكر ثم قال عمر: يا علي دعنا من كلامك فانا لا نقوى على حجتك فان أتيت شهودا عدولا و إلا فهو في‏ء المسلمين لا حق لك و لا لفاطمة فيه، فقال امير المؤمنين (عليه السلام) يا أبا بكر تقرأ كتاب اللّه؟ قال: نعم، قال: فاخبرني عن قول اللّه تعالى: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» فيمن نزلت، فينا ام في غيرها؟ قال: بل فيكم، قال: فلو ان شاهدين شهدا على فاطمة بفاحشة ما كنت صانعا؟ قال: كنت أقيم عليها الحد كما أقيم على سائر المسلمين، قال: كنت إذا عند اللّه من الكافرين، قال: و لم؟ قال: لأنك رددت شهادة اللّه لها بالطهارة و قبلت شهادة الناس عليها كما رددت حكم اللّه و حكم رسوله ان جعل لها فدكا و قبضته في حياته (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ثم قبلت شهادة اعرابي بائل على عقبيه مثل أوس بن الحارث عليها و أخذت منها فدك، و زعمت انه في‏ء المسلمين و قد قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) البينة على المدعي و اليمين على من أدعى عليه، قال: فدمدم الناس و بكى بعضهم فقالوا: صدق و اللّه علي (عليه السلام) و رجع علي الى منزله قال: فدخلت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 188

ثم نزلت في المدينة ثانية، أم فسرت فيها بالحقين و أضرابهما، ام هي مدنية و لا تنافيها مكية السورة ككلّ، و أمثالها غير قليل.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فاطمة عليها السلام المسجد و طافت بقبر أبيها (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و هي تبكي و تقول:

انا فقدناك فقد الأرض و ابلها\* و اختل قومك فاشهدهم و لا تغب قد كان بعدك انباء و هنبثة\* لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب قد كان جبريل بالآيات يونسنا\* فغاب عنا فكل الخير محتجب و كنت بدرا منيرا يستضاء به\* عليك تنزل من ذي العزة الكتب تهضمتنا رجال و استخف بنا\* إذ غبت عنا فنحن اليوم مغتصب و كل اهل له قربى و منزلة\* عند الإله على الأدنين مقترب أبدت رجال لنا نجوى صدورهم\* لما مضيت و حالت دونك الترب فقد رزينا بما لم يرزه أحد\* من البرية لا عجم و لا عرب فقد رزئنا به محضا خليقته\* صافي الضرائب و الأعراق و النسب فأنت خير عباد اللّه كلهم\* و اصدق الناس حين الصدق و الكذب سيعلم المتولي الظلم حامتنا\* يوم القيامة أنى كيف ينقلب قال: فرجع ابو بكر الى منزله و بعث الى عمر فدعاه ثم قال: اما رأيت مجلس عليّ بنا اليوم؟ و اللّه لئن قعد مقعدا مثله ليفسدن علينا أمرنا فما الرأي؟ قال عمر: الرأي ان نأمر بقتله، قال: فمن يقتله؟ قال: خالد بن الوليد، فبعثا الى خالد فأتاهما فقالا:

نريد ان نحملك على امر عظيم، قال: احملاني على ما شئتما و لو قتل علي بن أبي طالب قالا: فهو ذاك، قال خالد: متى اقتله؟ قال ابو بكر: إذا حضر المسجد فقم بجنبه في الصلاة فإذا انا سلمت فقم اليه فاضرب عنقه، قال: نعم، فسمعت اسماء بنت عميس ذلك و كانت تحت أبي بكر فقالت لجاريتها: اذهبي الى منزل علي و فاطمة فاقرئيهما السلام و قولي لعلي (عليه السلام): ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين. فجاءت الجارية إليهما فقالت لعلي (عليه السلام) إن اسماء بنت عميس تقرأ عليكما السلام و تقول لك: «إِنَّ الْمَلَأَ ....» فقال علي (عليه السلام): ان اللّه يحول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 189

و «حقه» قد تلمح بحق ثابت لا قبل له، و هو حق القرابة روحية رسالية كالإمرة بعده أم سواها كفدك و سواه من حق لفاطمة (عليها السلام) ثم‏ «وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ» تعني حقوقهم أيا كانوا و أيان، ثم و من واجهة أخرى تامر الآية كافة المخاطبين بإيتاء ذي القربى حقه و المسكين و ابن السبيل.

و «ذلك» البعيد المدى من إيتاء الحق «خير» قبال الشر و هو ترك الإيتاء «لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ» في الحياة الدنيا، دون وجهها الظاهر الملهي الملغي وجه اللّه‏ «وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» شقا لمزرعة الحياة فإنتاجا منها، كما الفلّاح يشقّ، فأولئك هم الناجون الناجحون، و لأن الإيتاء هنا طليق فليكن كذلك طليقا في الوجه العام فيشمل الزكاة كأهم الإيتاءات كما في الآية التالية، ترغيبا فيها بأضعاف، و ترهيبا عن الربا بتضعيفه:

وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ‏ 39.

هنا «من ربا» هي الزيادة أيّا كانت لمكان «من» فتشمل كل زيادة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بينهم و بين ما يريدون، ثم قام و تهيأ للصلاة و حضر المسجد و وقف خلف أبي بكر و صلى لنفسه و خالد بن الوليد بجنبه و معه السيف فلما جلس ابو بكر في التشهد ندم على ما قال و خاف الفتنة و شدة علي (عليه السلام) و بأسه فلم يزل متفكرا لا يجسر ان يسلم حتى ظن الناس انه قد سهى ثم التفت الىّ خالد فقال: يا خالد ما الذي أمرك به؟ قال: امرني بضرب عنقك، قال: او كنت فاعلا؟ قال: اي و اللّه لو لا أنه قال لي لا تفعل لقتلتك بعد التسليم، قال: فأخذه علي فضرب به الأرض و اجتمع الناس عليه فقال عمر: يقتله الساعة و رب الكعبة، فقال الناس: يا أبا الحسن اللّه اللّه بحق صاحب هذا القبر فخلى عنه، قال: فالتفت إلى عمر فأخذ بتلابيبه و قال: يا ابن صهاك لو لا عهد من رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و كتاب من اللّه عز و جل سبق لعلمت أينا أضعف ناصرا و اقل عددا».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 190

مؤتاة لتزيد في أموال الناس، سواء أ كانت الربا المحرمة ام المحللة، فحين لا يقصد مؤتيها ليربوا في أموال الناس، بل يقصد تمشية حاله بالقرض الربوي دون ضرورة و اضطرار كان محظورا، فضلا عما إذا ينوي ليربوا في أموال الناس قصدا إلى تضخيم الرأسمالية المحرمة و دولة المال بين الأغنياء فانه أشد محظورا و أشجى.

و من الربا المحرمة دون هذه إيتاء الزكاة لغير أهليها من الأثرياء و غير المحاويج، «ليربو في أموالهم» و إن قصد وجه اللّه لو صح منه هذا القصد.

و منها إيتاء الزكاة لأهليها المحاويج دون اتجاه فيه لوجه اللّه فانه لا يسقط حق الزكاة لفقدان قصد الوجه، و غير ما يقصد فيه‏ «لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ» منها، داخلة في حظر الآية و سواه في سواها مما تشترط الفقر و قصد الوجه في صالح الزكاة.

و من الربا المحلّلة

«أن يقرض الرجل أخاه قرضا لأن يزيده و يعوضه بأكثر مما يأخذ بلا شرط بينهما فان أعطاه اكثر مما اخذه على غير شرط بينهما فهو مباح له و ليس له عند الله ثواب فيما أقرضه ..» «32».

و منها

«هديتك الى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منها فذلك ربا يوكل» «33».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(32)

نور الثقلين 4: 189 عن تفسير القمي بسند عن حفص بن غياث قال قال ابو عبد اللّه (عليه السلام) الربا ربائان أحدهما حلال و الآخر حرام فاما الحلال فهو ان يقرض ... و هو قوله: فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ» و اما الحرام فالرجل يقرض قرضا و يشترط ان يرد اكثر مما اخذه فهذا هو الحرام.

(33) المصدر عن التهذيب بسند عن ابراهيم بن عمر عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية «قال هو ...» و

فيه عن الكافي بسند عن ابراهيم بن عمر اليماني عن أبي عبد اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 191

و منها الهدية دون عوض للأثرياء دون ابتغاء وجه اللّه، بل ليوجّه اليه وجوههم و يزيد في أموالهم، و هذه الأخيرة تشملها الآية نصا، و الأوليان تأويلا حيث القصد فيهما ليس ليربوا في أموال المؤتى إليهم، بل في أموال المؤتي، توسيعا للناس الى المؤتين تأويلا.

و قد تعم الربا كل زيادة مالية سواء أ كانت زيادة دون مقابل في معاملة كالربا المحرمة المعروفة، ام زيادة أيّ من الثمن و المثمن أو العمل و أجرته على بعض بشرط، فمحرمة ايضا مهما كانت دون الربا المصطلحة.

أم أموالا زائدة على حاجيات الحياة، و هي العفو في: «يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ» (3: 219) فإيتاء هذه الزيادة لوجه اللّه و كما أمر اللّه إضعاف للمال‏ «فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ» و ايتاءها ليربوا- فقط- في أموال الناس‏ «فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ» إذ هو خلو عن وجه اللّه، و ما يؤتى لوجه اللّه من ربا المال: الزائد فرضا أو نفلا، هو زكاة «وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ».

كما أن ما يؤتى بغير وجه اللّه حلا أو حراما هو ربا «وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ» إذ لا اجر فيه عند اللّه.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ‏ 40.

«اللّه» هنا مبتدء خبره‏ «الَّذِي‏ ... يُحْيِيكُمْ» تعريفا به في مربّعه الشامل للبدء و العود و ما بينهما، و ضلع الخلق من هذا المربع تتبناه الأضلاع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(عليه السلام) قال‏ الربا ربائان ربأ يؤكل و ربا لا يؤكل فأما الذي يؤكل فهديتك ..

و هو قول اللّه عز و جل‏ «وَ ما آتَيْتُمْ ..» و أما الذي لا يؤكل فهو الذي نهى اللّه عنه و أوعد عليه النار.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 192

الأخرى، فالرزق هو من لزامات الخلق الحكيم، و هو مرحلة ثانية من الخلق، و الإماتة هي خلق الانفصال بين الروح و البدن، و الإحياء هو خلق ثان في الأخرى لرزق ثان فيها هو من خلفيّات الحياة الأولى.

ذلك عرض خاطف للرحمتين الرحمانية و الرحيمية يحلق على كافة الرحمات الإلهية، «و رزقكم» لا تعني- فقط- الرزق المادي فانه أدناه، بل و الروحي فانه أعلاه، فكل هدى لأيّ خلق هي رزقه حسب الحاجيات و الدرجات و المتطلّبات: «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏» (20: 50) «هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ» أيا كان، عقلاء خيّرين كالعباد الصالحين، ام شريرين كالطواغيت، فضلا عن سواهم من أصنام و أوثان، فان «من» هنا تستغرق كل الشركاء المختلقة من دون اللّه، «هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ»:

و هنا «من الأولى تستغرق مربع الرحمة ككل، و الثانية تستغرق الأجزاء من كلّ، تدليلا على ألّا شريك له- فضلا عن مستعل- في اي خلق و رزق و إماتة و إحياء، فهذه الأربع هي قواعد عرش الربوبية، لا شريك له فيها «سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

و ترى الفساد الظاهر في البر و البحر هو ايضا من رزق اللّه ام من خلق الشيطان- إذا- فهو من شركاءه؟ كلا بل:

ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ‏ 41.

فلما تكسبه ايدي النسناس من الناس أثر حسب سنة التكوين كما للحسنات أثر، و لا تبرز هذه الآثار حسنة و سيئة ككل إلّا يوم الحساب، و هنا «ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ» بعضا منبها «بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ» لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 193

لأنها دار الجزاء الأوفى، و إنما «لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»: عما تكسبه أيديهم، فكما أن العذاب في الأخرى ليس إلّا نفس ما كسبت أيديهم من آثام كذلك يوم الدنيا.

فهنا اللّه لا يظهر فساد ما كسبت أيدي الناس لأنه ليس يوم الجزاء، و إنما «بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»- «وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ» (42: 30) عفوا هنا مؤقتا ثم يظهر في الأخرى ما لا يعفى عنه بمكفرات هنا.

و ليس ظلم الناس هنا- فقط- بالذي يفسد عليهم، بل و كل دابة «وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ما تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ» (16: 61).

هذه أبعاد ظلم الناس حيث لا تبقي دابة في الأرض و لا تذر إلّا قضت عليها لو لا تأخيرهم إلى أجل مسمى، و تأخير العذاب إمهال لمن يتذكر ببعضه هنا، و إملال على الطغاة و قد يأخذهم عذاب الاستئصال.

و ما كسبت ايدي الناس في كل حقل يظهر منه حقله، ثقافيا- عقائديا- سياسيا- اقتصاديا «34»، و إمرة علينا «35».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(34)

نور الثقلين 4: 190 عن القمي قال الصادق (عليه السلام) في الآية: حياة دواب البحر بالمطر فإذا كف المطر ظهر الفساد في البر و البحر و ذلك إذا كثرت الذنوب و المعاصي.

(35)

المصدر عن ميسر و عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (عليه السلام) في الآية قال: ذلك و الله يوم قالت الأنصار منا امير و منكم امير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 194

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ 42 فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ‏ 43.

اكثر الهلكى الغابرين كانوا مشركين، و الباقون موحدون، أهل كتاب و سواهم بما كانوا يتخلفون عن شرحة التوحيد، و لا سبيل للفرار عن سوء العاقبة هنا و في الأخرى إلّا إقامة الوجه للدين القيم و هو التوحيد الحق و حق التوحيد الذي تتبناه الفطرة و العقلية و الشرعة، كل تلو بعض و لصق بعض في تعاضد ثلاثي سامي.

«فَأَقِمْ‏ .. مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ» و هو يوم انقطاع التكليف، بدايته يوم الموت و نهايته يوم الأخرى، و لأن هذا التكليف قائم على كل مكلف الى يوم الدين، لم يكن ليخص أحد اليومين، فمن مات قبل القيامة «يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ» بادئ له من الموت، و من مات في قيامة الإماتة فيوماه يوم واحد، و هو على اية حال‏ «لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ».

و المردّ هو مصدر ميمي و اسم زمان و مكان، و «من» قد تعني كلا الابتدائية و التجاوز، فمثلث المردّ لذلك اليوم مسلوب «من اللّه» إذ لا يرد، و من غير اللّه «من اللّه» أن نحمله على المردّ.

«يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ» أصلها يتصدعون، و هو التفرق و التمزق، فلا تصدّع يوم الدنيا بما عملوا إذ لا تتفجر و تظهر بحقائقها النارية، فانما هو يوم بعد الموت برزخا بينه و بين الأخرى، و جزاء أوفى فيها: «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏. وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى‏. ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى‏» (53: 41).

فهنا يتصدعون بكل تصدّع و صداع في أنفسهم، و يتفرقون بعضهم عن بعض، و يتفرق الكل عن المؤمنين ففريق في الجنة و فريق في السعير.

مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ 44 لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ‏ 45.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 195

فانما كفر الكافر عليه في كل النشآت، كما صالح الصلحاء لأنفسهم حيث يجزون من فضل اللّه، و أولئك يعذبون من عدل اللّه‏ «إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ» فيبغضهم، إذ لا تخفى على ربنا خافية حتى يخلوا أحيانا من حب و بغض جهلا بالحال! فمن لا يحبه فهو يبغضه، و من لا يبغضه فهو يحبه.

و كما «كفر» تعم كفر العقيدة و العمل كذلك‏ «عَمِلَ صالِحاً» إذ لا يصلح عمل إلّا بإيمان.

و الإفراد في «عليه» لرعاية اللفظ «من» و الجمع في «يمهدون» لرعاية المعنّي منها، و لما ذا- بعد- لم يأتيا بصيغة واحدة إفرادا أو جمعا و اللفظ نفس اللفظ و المعنى نفس المعنى؟ قد يعني الإفراد في «عليه» التبعة الفردية في الكفر، و الجمع في «يمهدون» المهاد الجمعي في الايمان، فان أولاد المؤمنين- الصغار- يلحقون بهم في مهدهم، و لا يلحق أولاد الكفار بهم، كما و ذرية المؤمنين التابعين لهم بإيمان يلحقون بهم في درجتهم تكريما لهم: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ ما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْ‏ءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ» (52: 41).

فالرحمة لأنها قضية الفضل هي أعم من الغضب و هو قضية العدل، لا فحسب في الأخرى بل و ايضا في الأولى حيث يشمل برحمته كل مرزوق مؤمنا و كافرا و لا يأخذ بعذابه هنا إلّا الكافر فقد «سبقت رحمته غضبه» بكل سبق و في كل سباق‏ «36».

و من ءايته أن يرسل الرّياح مبشّرت و ليذيقكم‏

[سورة الروم (30): الآيات 46 الى 60]

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى‏ قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (48) وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (49) فَانْظُرْ إِلى‏ آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى‏ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (50)

وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (51) فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى‏ وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (52) وَ ما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (53) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (54) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (55)

وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى‏ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (56) فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57) وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (58) كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (59) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (60)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(36)

نور الثقلين 4: 191 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ان العمل الصالح ليسبق صاحبه الى الجنة فيمهد له كما يمهد لأحدكم خادمه فراشه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 197

وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ‏ 46.

«وَ مِنْ آياتِهِ» لرحمته الشاملة «أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ» برحمات:

ازالة للعفونات، و تلقيحا لشجرات، و تلحيقا للسحاب ركاما أم إثارة لها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 198

بسطا في السماء كيف يشاء، و تلطيفا للأجواء، و تبريدا للهواء، أماذا مما تخلّفه الرياح المبشرات‏ «وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ» فالإذاقة قلة، و «من» التبعيض قلة اخرى تجعلان غزير الأمطار قلة قليلة من رحمته، و لنعرف ما هي رحمته يوم الرحمة الأخرى.

«وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ» بالرياح‏ «وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» بجريان الفلك و الرياح‏ «وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» مرسل الرياح مبشرات، بهذه الرحمات و محققات لهذه العطيات.

و حين يرسل اللّه الرياح مبشرات لرحماته المادية للأولى أ فلا يرسل رياح الوحي مبشرات لرحماته الروحية التي تعيّشنا في النشأتين:

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلى‏ قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ‏ 47.

إن الرياح الروحية الرسالية المبشرة بكل الرحمات قد أتت بالبينات‏ «فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا» ثمرات الحياة قطعا لها قبل إيناعها، فتحويلا لها إلى نكبات، و أما الذين آمنوا «وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» في حقول الرسالات هنا و يوم يقوم الاشهاد: «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ» (11: 18).

و «كان» هنا تضرب إلى أعماق الماضي الرسالي بمستقبله، تأكيدا لاستمرارية النصر الرباني لهؤلاء الأكارم قدر ما ينصرون الدين و الدينين.

اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ‏ 48.

إثارة السحاب و بسطها في السماء كيف يشاء و جعله كسفا فترى الودق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 199

يخرج من خلاله، ذلك من مبشّرات الرياح المبشّرات، أفردت بالذكر فصلا بعد وصل لأنها أهم بشارات الرياح‏ «إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ».

فمن فاعليات الرياح انها تثير سحابا من المياه بما تحمله من الأبخرة المائية، فكما بقر الحرث تثيره، كذلك السحاب تثير حرث الأبخرة قلعا من الكتل المائية على وجه الأرض «فيبسطه» اللّه‏ «فِي السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ»: «وَ اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى‏ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ» (35: 9).

«وَ يَجْعَلُهُ كِسَفاً»: و يجعل اللّه السحاب المبسوط في السماء: كسفا:

قطعا ركاما فوق بعض: «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ» (24: 43).

و الودق هو بداية المطر، يخرج من خلال السحاب كأنها غرابيل، ثم يصبح الودق مطرا نزيرا ام غزيرا «فَإِذا أَصابَ» اللّه‏ «بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» برحمة الماء من السماء.

وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ‏ 49.

و ما هو المرجع لضمير الغائب في «من قبله»؟ أهو الودق و قد أغني عنه من قبل ب «من قبل»! و لا فصل بعيدا يقتضي التكرار! و ليس الإبلاس الإياس إلّا من قبل الرياح! أم إنه «السحاب»؟ فكذلك الأمر معنويا مهما صح لفظيا! ..

انه إرسال الرياح المؤوّل من‏ «يُرْسِلُ الرِّياحَ»-: و ان كانوا من قبل ان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 200

ينزل عليهم الودق من قبل إرساله الرياح لملبسين.

فَانْظُرْ إِلى‏ آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتى‏ وَ هُوَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ 50.

«فانظر» نظرة العبرة النبهة بصرا و بصيرة «إِلى‏ آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ» الودق المطر «كَيْفَ يُحْيِ» به‏ «الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها» كيفية متواترة مرئية ليل نهار، أن يضم رحمة السماء إلى رحمة الأرض ببذر، و كل الثلاث ميتة بمفرداتها، ثم تحصل الحياة بجمعيتها كما يشاء اللّه «إن ذلك» الرحمن الرحيم القدير «لمحيي الموتى» أيا كانت و أيان، و أهمها لإحياء يوم الحساب فإنه قضية عدله مهما كان سائر الإحياء في سائر الأحياء قضية فضله.

وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ‏ 51.

هذا الريح هو ريح العذاب حارا ام باردا يصفّر به الزرع عن اخضراره، و ترى «فرأوه» تعني الريح؟ و ليس لريح العذاب كما سواه لون! و لو كان و هو مصفر فصالح التعبير عنه «ريحا مصفرا- أو- اصفر»! و لم يوصف الريح فيما وصف بأي لون اللهم إلّا بفاعلية العذاب: «كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» (3: 117) «37».

مرجع الضمير هو الزرق أو مطلق النبات المعلوم من السياق‏ «أَرْسَلْنا رِيحاً» بعد إرسال الرياح «فرأوه»: النبات المخضّر بالمطر الحاصل عن إثارتها السحاب، رأوه مصفرا «لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ» كفرانا برحمته السابقة السابغة، ام و كفرا به.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ)) (10: 22) «قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ» (17: 69) «الرِّيحَ الْعَقِيمَ» (51: 41) «بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ» (69: 6))

. (37)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 201

ثم الإفراد في ريح العذاب قد يلمح بالعذاب، كما الأكثرية الواردة في القرآن تعنيه، بخلاف الجمع في رياح الرحمة فإنها لم تأت في عشرتها الكاملة إلّا للرحمة «38».

و علّ وجه الجمع في رياح الرحمة، أنها خليطة من مختلف الرياح، ام ريحا متكررا متواتر لكي يصلح لما يبشر به، و ريح العذاب أحياني، و أما ريحا الرحمة فدائبة، فهذه جمع يحلّق على كل زمان و مكان، و ذلك مفرد حيث لا يأتي إلّا الأحيان.

فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى‏ وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ 52 وَ ما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ‏ 53.

«الموتى» هنا هم موتى القلوب فالصمّ الأسماع و العمي الأبصار، حيث لا يعون و لا يسمعون و لا يبصرون‏ «خَتَمَ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِهِمْ وَ عَلى‏ سَمْعِهِمْ وَ عَلى‏ أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ ...» (2: 7) و ذلك ختم الجزاء يوم الدنيا دون الجزاء الختم فانه في الأخرى.

إن إسماع آيات اللّه ليس يؤثر إلّا في‏ «مَنْ يُؤْمِنُ بِآياتِنا» فإن سجيّته الايمان بها حين تواجهه، و هو يتحرى عنها، و لأقل تقدير لا يتجرأ عليها «فَهُمْ مُسْلِمُونَ» لها، مؤمنون بها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(38) في آيات عشر الرياح كلها للرحمة و في (18) آية ريح أو ريحا لا تجد الا مرة يتيمة «وَ جَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ» (10: 22) ام و ريح سليمان‏ «وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ» (21: 81) و هي ريح القوة و ليست ريح الرحمة العامة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 202

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ 54.

تعريف آخر باللّه و جاء مختلف حالات الإنسان من ضعف إلى قوة إلى ضعف و شيبة، و من القوة الحياة و من الضعف الممات، و الإنسان كما هو بين مختلف حالات سائر الضعف و القوة كذلك هو بين الموت و الحياة «يَخْلُقُ ما يَشاءُ» لا كما نشاء «و هو العلي القدير» بما يخلق.

«خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ» هو منّي فإنه ضعف في كيانه و ضعف في دفقه، ف «ضعف» مصدرا تلمح إلى مدى ضعف النطفة كأنها الضعف نفسه.

«ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً» أ منذ العلقة إلى المضغة إلى العظام إلى كسوتها لحما إلى إنشاءه خلقا آخر و إلى ...؟ و كل ذلك ضعف بعد ضعف! و قد تعني «قوة» بداية القوة و القيام على ساق للولائد، و «مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ» قد تعني الضعف فيما بين الضعف الأوّل و القوة الأولى.

فان «من ضعف في خلقكم» هو النطفة المخلوق منها الجنين، «مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ» تعني ضعف الجنين المخلوق من ضعف، و من ثم ف «ثم» هنا تفصل بين خلقه من ضعف و جعل قوة له بعد ضعف، فذلك الفاصل ضعف بعد ضعف.

فضعف المصدر ممثّل في تلك الخليّة الصغيرة الدقيقة التي ينشأ منها الجنين، و ضعف الصادر بينه و بين قوة هو الجنين بأطواره، ثم الطفل حتى يقوم على ساقه من ضلاعة التكوين.

و قوته بادئة من ذلك القيام كاستقلالية مّا في بعض الحاجيات مشربا و مأكلا و ملبسا، و قياما في حاجيات أخرى.

و هذه القوة باقية لحد الأربعين متزايدة، ثم تبدّل الى ضعف ثم شيبة، فالشيخوخة انحدارة إلى الطفولة بكل مظاهرها الضعيفة و لحد لا تعلمون شيئا و لا تقدرون على شي‏ء و هو أرذل العمر: «وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى‏ أَرْذَلِ الْعُمُرِ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 203

لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً» (22: 5).

«يَخْلُقُ اللَّهُ ما يَشاءُ» من ضعف و قوة و شيبة «وَ هُوَ الْعَلِيمُ» ما ذا يخلق وفق الحكمة العالية «القدير» بكل خلق.

فليس خلقكم «من ضعف» لضعفه قدرة و علما، و لا «جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً» لقوته علما و قدرة، بل إنها تحويلات إلى حالات حسب الحكمة العملية القديرة كما يشاء، و لا يفلت منها أحد من أبناء الفناء حيث تتعاور تلك الخليقة البشرية لتشهد انها مدبّرة كما يشاء اللّه العليم القدير.

أو ليس لهذه النشأة الحكيمة القاصدة استمرارية في نشأة أخرى هي مزرعة الأولى؟:

وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ‏ 55.

اللبث هنا هو لبث البرزخ، فانه الذي يسبق‏ «يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ» لا لبث الدنيا، ام هو مجموع اللبثين؟ استقلالا لحياة التكليف و التي بعدها قبل قيامة الساعة.

و إقسام المجرمين هناك‏ «ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ» إفك مبين كما هم في حياة التكليف‏ «كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ» صرفا عن وجه الحق الى غير وجهه، على طول خط الحياة الى قيام الساعة و لمّا يفيقوا عن غفوتهم و هم محشورون ليوم الدين! وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى‏ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ‏ 56.

«كِتابِ اللَّهِ» علّه كتاب التكوين التقدير الى جنب كتاب التشريع التدوين، فقد قدر اللّه و قرر لبثا برزخيا لكل من الأموات و إن ماتوا في قيامة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 204

الإماتة، كما أن آيات من القرآن تتحدث عن هذه الحياة الفاصلة بين الحياتين‏ «وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ».

«الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» بالكتاب «و الايمان» بما في الكتاب، هناك يكذبون المجرمين القائلين‏ «ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ» كما هنا، ام‏ «عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها» (79: 46) «يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ» (23: 116) أو «عشرا» (20: 104) يكذبونهم بقولهم‏ «لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى‏ يَوْمِ الْبَعْثِ» و قد يعني‏ «كِتابِ اللَّهِ» ما كتبه اللّه من الحياتين قبل الأخرى و هي‏ «يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ» الذي كنتم به تكذبون‏ «وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ» قبله «لا تعلمون».

أ تراهم كانوا لا يعلمون انهم سوف يبعثون و هم في البرزخ و قد ظهر لهم ما كان خفيا عليهم؟

هنا «كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ» ماض بعيد يضرب الى بعيد هو بالطبع حياة التكليف لا و البرزخية ايضا.

فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ‏ 57.

الاستعتاب هو طلب العتبى و هي العتاب و إزالته، فهم كما لا ينفعهم معذرتهم إن اعتذروا، لا يطلب منهم ان يعتبوا أنفسهم ام يزيلوا عتابهم، مهانة لهم و هوانا كأنهم جماد لا يشعرون.

وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ‏ 58.

إن الآية المثبتة للحق أصبحت عندهم مبطلة و الجائي بها مبطل، و هكذا يرتكس الظالمون في حمأة الغباوة الخانقة ان تنقلب آية الحق عندهم آية الباطل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 205

كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ‏ 59.

لقد طبع اللّه على قلوب هؤلاء الظالمين و أزاغها كما زاغت بتجاهل عارم قاحل لحد تقلّب الحق عندهم باطلا و الباطل حقا، حياة منكوسة مركوسة أرذل من الدواب و أضل.

«الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ» هنا هم الجاهلون المقصرون، لا القاصرون المستضعفون، و لا يطبع اللّه إلّا على قلوب خالية عن الهدى خاوية عن التقوى، مليئة من الطغوى‏ «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ».

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ‏ 60.

«فاصبر» يا رسول الهدى على قولتهم‏ «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ» و على فعلتهم المضادة لدعوتك فما أنت إلا نذير «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» في نصرتك:

«وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» و في عذابهم كما يشاء و يصلح‏ «وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ» استخفافا عن ثابت الإيمان الإسلام و الدعوة الصارمة.

هنا «فاصبر» توطين لخاطر الرسول و قلبه القريح الجريح، ثم و في تأويله قد يكون توهينا لسواه تهويلا بمستقبل العذاب كما فعله الإمام امير المؤمنين (عليه السلام) جوابا عن ابن الكوا «39».

و قاله ابو جعفر الباقر (عليه السلام) جوابا عن امره بالخروج المبكّر و لمّا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(39)

نور الثقلين 4: 192 عن تفسير القمي‏ كان علي بن أبي طالب (عليه السلام) يصلي و ابن الكوا خلفه و امير المؤمنين (عليه السلام) يقرء فقال ابن الكوّا «وَ لَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ‏ «فسكت امير المؤمنين (عليه السلام) حتى سكت ابن الكوا ثم عاد في قراءته حتى فعل ابن الكوا ثلاث مرات فلما كان في الثالثة قال امير المؤمنين (عليه السلام): «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 206

عن حينه ترحما على زيد «40». فهذا تنزيل و ذلك تأويل و لكلّ مجاله.

فالصبر أمام العراقيل في الطريق الشاق الطويل هو زاد المؤمنين، أن يثبتوا على الحق دون زعزعة و لا تلكع، صبرا يكون سبرا لأغوار الحوادث و المصائب التي قد تنقص من الإيمان بوعد اللّه فتنقض وثاق اللّه، لا صبر التخاذل و التنازل، و إنما صبر جميل يعني الاستقامة على الطريقة.

و هكذا تختم السورة كما بدأت بوعد النصر، تختم بالصبر انتظارا لانتصار بنصر الوعد و تحققه كما يراه اللّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(40)

المصدر عن الكافي‏ ان زيد بن علي بن الحسين دخل على أبي جعفر (عليه السلام) و معه كتب من أهل الكوفة يدعونه فيها الى أنفسهم و يخبرونه باجتماعهم و يأمرونه بالخروج فقال له ابو جعفر: هذه الكتب ابتداء منهم او جواب ما كتبت به إليهم و دعوتهم اليه؟

فقال: بل ابتداء من القوم لمعرفتهم بحقنا و بقرابتنا من رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و لما يجدون في كتاب اللّه عز و جل من وجوب مودتنا و فرض طاعتنا و لما نحن فيه من الضيق و الضنك و البلاء، فقال له ابو جعفر (عليه السلام) ان الطاعة مفروضة من اللّه عزّ و جل و سنة أمضاها في الأولين و كذلك يجريها في الآخرين و الطاعة لواحد منا و المودة للجميع و امر اللّه يجري لأوليائه بحكم موصول و قضاء مفصول و حتم مقضي و قدر مقدور و اجل مسمى لوقت معلوم‏ «وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ‏ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» فلا تعجل فإن اللّه لا يعجل لعجلة العباد و لا تسبقن اللّه فتعجلك البلية فتصرعك».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 207

سورة لقمان مكيّة و آياتها اربع و ثلاثون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 209

[سورة لقمان (31): الآيات 1 الى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

الم (1) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (2) هُدىً وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (3) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)

أُولئِكَ عَلى‏ هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (6) وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (8) خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9)

خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَ أَلْقى‏ فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (10) هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (11)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 210

سورة لقمان تحمل ثورة لقمان العقائدية و الخلقية بصورة العظة لابنه، و فيها ككلّ جولات ثلاث و جاه القلب البشرى بفطرته إذ يعلم اللّه مداخلها و مساربها و مآربها، و ما تغشى عليها غواش من دخان الأرض.

تبدأ الجولة الأولى من خلال النفس الإنسانية بأسلوب شيّق و مؤثّرات جادّة جديدة: «وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ ..» نموذجا عاليا من العظات الرسالية مهما لم يكن لقمان رسولا.

و الجولة الثانية بادئة بعرض كائنات من السماوات و الأرض: «أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ...».

و الجولة الثالثة هي مشهد الليل و النهار و الشمس و القمر: «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ...»

و في هذه الجولات الثلاث و ما بينهما جلوات عقلية و فطرية و علمية و حسية تتبنى الأصول الثلاثة كما هي طبيعة الحال في القرآن كله و لا سيما في السور المكية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 211

الم 1 تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ‏ 2.

«تلك» البعيدة الأغوار، النازلة في الزمن الرسولي، كهذه و ما مضت و تستقبل‏ «آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ»: حكيما عند اللّه قبل نزوله: «وَ إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» (43: 4) حكيما بنازله ليلة القدر، و حكيما في تفصيله: «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (11: 1).

و الحكمة في كلّ من الثلاث كما تناسبه، كالإجمال في الأوّلين ام ثالث التفصيل، و الإتقان في الكلّ عن اي تدخل و تسرّب من سواه، و الحكمة البلاغية لفظية و معنوية في كل الحقول، محلقة على كلّ العقول، بعيدة عن الذبول و الأفول، حاكمة حكيمة محكمة كأنها الحكيم نفسه، إذ برزت و ركزت فيها حكمة الرب الممكنة البروز ككلّ و دون إبقاء.

هُدىً وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ‏ 3 «الْكِتابِ الْحَكِيمِ» حالكونه «هدى» نفسها «و رحمة» نفسها حيث تجسدتا فيه حاملا كل الهدايات و الرحمات الإلهية للكلّ كفاعلية مطلقة، و «للمحسنين» كقابلية بفعلية الاهتداء و الرحمة، و التنوين فيهما يعني التعظيم البعيد عن الأفهام.

و «المحسنين» هم الذين يحسنون الايمان و عمل الايمان على ضوء «الْكِتابِ الْحَكِيمِ»:

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ‏ 4.

فإقام الصلاة عمودا للدين مثال لكافة الصلات الربانية بينهم و بين اللّه فانها معراج المؤمن، و إيتاء الزكاة من كل الوهبات الربانية لعباد اللّه، يحلّق على كل الصلات الخلقية، ثم‏ «وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» تؤصّل صلتهم باللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 212

و بخلق اللّه و تربطها من المبدء إلى المعاد، فقد أحسنوا كل الصّلات العقائدية و العملية، المتمثلة في إقام الصلاة و إيتاء الزكاة، ناحية منحى مرضات اللّه و الى يوم اللّه.

أُولئِكَ عَلى‏ هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ‏ 5.

«على» هنا تسيطرهم «على هدى» عظيمة واسعة ناصعة «من ربهم» لا ضلال فيها و لا كلال، و بطبيعة الحال «و أولئك» دون سواهم‏ «هُمُ الْمُفْلِحُونَ» إذ يفلحون و يشقّون طريق الهدى في البحر الملتطم بسفن النجاة، و يفلجون عمّال الردى و عواملها في هذه الطريقة الشاقة الطويلة.

هؤلاء الأكارم هم من‏ «الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا بِالْآخِرَةِ» (4: 74) «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى‏ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ» (9: 111)- «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ ...» (2: 207) كما:

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ‏ 6.

«الحديث» هنا هو كل ما حدث من قول أو فعل أو مزيج منهما، فقد يكون ذكرا للّه، أو لهوا عن اللّه، ام عوانا بين ذلك خلوا عن اي ذكر أو لهو، و لهو الحديث، المضلّ عن سبيل اللّه و هو ذكره، بأن يتخذ هزوا، ذلك هو الضلال البعيد.

«اللهو» حرام في كل حقوله و ألوانه، فانه ككلّ ما يشغل الإنسان عما يهمه و يعنيه، كما اللهوة هي ما يشغل الرحى مما يطرح فيه.

إذا فاللهو دركات حسب درجات ما يهم الإنسان و يعنيه، و أسفلها اللهو عن اللّه و عن ذكر اللّه، و عن يوم اللّه، و عما يتوجب على العبد او يحرم عليه و جاه اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 213

و له اسباب عدّة من معدّة و غير معدّة، فالأولى كالتكاثر: «أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ» (102: 1) و الأمل: «ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَ يَتَمَتَّعُوا وَ يُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» (15: 3) و منه لهو الحديث ككل، فانها من المعدة، و من غير المعدة الأموال و الأولاد: «لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» (63: 9) و التجارة و البيع: «رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَ لا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ» (24: 37) و الحياة الدنيا ككل: «وَ مَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ» (6: 32).

فالمعدّة من اللهو محرمة على أية حال، و غير المعدة كالحياة الدنيا بوسائلها غير محرمة إلّا أن تلهي، فإنما الأصل هو الإلهاء- بالفعل- عما يعنى للإنسان كإنسان و ما يعنيه كمؤمن باللّه.

و المفروض في لهو الحديث أن يرفض بكل أساليبه و ألوانه كمفتاح أوّل لرفض المحرمات كلها «1» و فرض الواجبات كلها، حيث الملاهي بجوارح و جوانح تتخطى إلى القلوب، فإذا ألهت القلوب الغت كل ما تعني الإنسان و يعنيها الإنسان من إيجابيات و سلبيات تتبنى الإنسان كإنسان و بأحرى كحامل إيمان: «لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَ فَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» (21: 3).

و أنحس بلهو يشترى، و أنحس منه: «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ» ثم ثالث: «وَ يَتَّخِذَها هُزُواً» «2» فذلك مربع من النحوسة الواصلة إلى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 159- اخرج ابن أبي الدنيا و البيهقي عن أبي عثمان الليثي قال قال يزيد بن الوليد يا بني امية إياكم و الغناء فانه ينقص الحياء و يزيد في الشهوة و يهدم المروءة و انه لينوب عن الخمر و يفعل ما يفعل المسكر فان كنتم لا بد فاعلين فجنبوه النساء فان الغناء داعية الزنا.

(2)

في المجمع روى عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) انه قال- في الآية- هو الطعن في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 214

«عَذابٌ مُهِينٌ».

فليست حرمة اللهو لتختص بما يشترى و يضل و يهزء، و إنما ذلك أسفل دركات الحرمة فيه، و كل ما يلهي، او ما شأنه ان يلهي، فهو محرم في شرعة اللّه من غناء تلهي أو رقص يلهي أماذا من الملهيات، و أما ما يذكّر اللّه من أصوات حسنة أو أعمال فراجحة، و ما لا يذكّر و لا يلهي فعوان يباح، إلّا ألّا يعني غرضا عاقلا فلغو لا يباح إلّا للأطفال.

فالغناء المفسر به قول الزور «1» و اللهو «2» ليس محرما ككل حيث التغني‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الحق و الاستهزاء به و ما كان ابو جهل و أصحابه يجيئون به إذ قال: يا معاشر قريش ألا أطعمكم من الزقوم الذي يخوفكم به صاحبكم؟ ثم أرسل الى زبد و تمر فقال: هذا هو الزقوم الذي يخوفكم به، قال: و منه الغناء.

(1). كما في صحيحه الشحام و موثقه أبي بصير و مرسله ابن أبي عمر المرويات عن فروع الكافي، و حسنة هشام المحكية عن تفسير القمي و رواية عبد الأعلى المحكية عن معاني الأخبار و الثلاثة الأولى في الوسائل الباب 99 ح 2- 9- 8 و الرابعة نفس الباب ح 26 و الخامسة فيه ح 20 و

في الدر المنثور 5: 159- اخرج ابن أبي الدنيا و البيهقي في سننه عن ابن مسعود قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل،

و

فيه اخرج ابن أبي الدنيا و ابن مردويه عن أبي امامة ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال: ما رفع احد صوته بغناء إلا بعث اللّه اليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك،

أقول: يعني الغناء الملهي.

(2) كما في صحيحة ابن مسلم و رواية مهران بن محمد و الوشاء و رواية عبد الأعلى السابقة، و الثلاثة الأول في الوسائل ب 99 ح 6- 11 و 16 و

في نور الثقلين 4: 193 عن معاني الأخبار بسند متصل عن يحيى ابن عيادة عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قلت قوله عز و جل: وَ مِنَ النَّاسِ ..» قال: منه الغناء.

و

فيه عن الكافي بسند متصل عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليهما السلام قال سمعته يقول: الغناء مما أوعد اللّه عز و جل عليه النار و تلا هذه الآية و مثله عن أبي عبد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 215

بالقرآن محبور، و سائر التغني بذكر اللّه مشكور، كما

يروى عن رسول الهدى‏ «تغنوا بالقرآن فانه من لم يتغن بالقرآن فليس منا».

فصرف الوقت في التعرف الى معنى الغناء، المختلف فيه اللغة و الأقوال، قد يكون نفسه من لهو الحديث، حيث الأصل المحرم في الغناء و غيره هو اللهو، فقد يحل الغناء كما في القرآن، و قد يحرم غير الغناء كما في الرقص الملهي و ما أشبهه، فبين اللهو و الغناء- إذا- عموم من وجه.

فمن لهو الحديث ما يلهي بنفس الحديث دون غناءه كالقصص الأسطورة المزخرفة المقصوصة في المقاهي و سائر النوادي المناسبة لها و هي من شئون نزول الآية «1» و منه ما يلهى بغنائه سواء أ كان معناه ملهيا مثله أم لم يكن، كما من الغناء ما لا يلهي، ككل ما لا يحمل المعاني او الحالات الملهية، أمّا يحمل المعاني المذكّرة كالغناء بالقرآن و سائر المعارف الإلهية من مواعظ شعرية أو منثورة أمّاهيه.

و اشتراء لهو الحديث يعم اشتراء القينات‏ «2» و آلاتها (7) و اشتراء نفس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اللّه: الغناء مما قال اللّه: ...

و

فيه عن الحسن بن هارون قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: الغناء مجلس لا ينظر اللّه الى اهله و هو مما قال اللّه عز و جل: و من الناس.

(1).

نور الثقلين 4: 194 عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليهما السلام‏ في الآية فهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة من بني عبد الدار بن قصي و كان النضر ذا رواية لأحاديث الناس و أشعارهم يقول اللّه عز و جل: وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ».

(2)

الدر المنثور 5: 159 اخرج جماعة عن أبي امامة عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال: لا تبيعوا القينات و لا تشروهن و لا تعلموهن و لا خير في تجارة فيهن و ثمنهن حرام في مثل هذا أنزلت هذه الآية: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ..»

و

فيه عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 216

اللهو كأن يستأجر الملهي بحديثه أو غناءه و يدفع له ثمن‏ «1».

و «سبيل اللّه» هنا هي القرآن و نبي القرآن و كل ما منهما و إليهما من ذكرى، فإنهما الأصل في ذكر اللّه بما يذكّران اللّه، فكل ما يلهي عن «سبيل اللّه» و يضل في اى حقل من حقولها، كان محظورا، و لا سيما إذا كان مأخذا لاتخاذها هزوا.

ف «أولئك» الذين يشترون لهو الحديث إضلالا عن سبيل اللّه و اتخاذها هزوا «لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» هنا و يوم الدين، كما أهانوا سبيل اللّه ان فضّلوا عليها لهو الحديث. «2»

و اشتراء لهو الحديث قد لا يختص بالنقود و سائر الأثمان المعروفة، فقد يشتريه بماله، أو يشتريه بوقته و بحياته، يبذل تلك الأثمان الغالية لهذا الرخيص البخيس، و لما ذا يشتريه «ليضل» نفسه و سواه‏ «عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عائشة قالت قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ان اللّه حرم القينة و بيعها و ثمنها و تعليمها و الاستماع إليها ثم قرأ الآية.

(1).

المصدر 160- اخرج ابن أبي الدنيا عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: ما قدست امة فيها الربط.

(2)

المصدر 160- اخرج ابن أبي الدنيا عن عبد الرحمن بن عوف ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال: انما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند نغمة لهو و لعب و مزامير شيطان و صوت عند مصيبة خشن وجوه و شق جيوب و رنة شيطان،

و

فيه اخرج ابن أبي الدنيا و البيهقي عن نافع قال: كنت أسير مع عبد اللّه بن عمر في طريق فسمع زمارة راع فوضع إصبعيه في أذنيه ثم عدل عن الطريق فلم يزل يقول يا نافع أ تسمع؟ قلت: لا- فاخرج إصبعيه من أذنيه و قال: هكذا رأيت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) صنع،

و

فيه اخرج ابن مردويه عن عبد اللّه بن عمر انه سمع النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال‏ في هذه الآية «وَ مِنَ النَّاسِ ..» انما ذلك شراء الرجل اللعب و الباطل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 217

علم» منه و ممن يضل بإضلاله، جهل التجاهل بالقيم و الموازين، «وَ يَتَّخِذَها هُزُواً» كما كان يفعله المنافقون و المكذبون بآيات اللّه‏ «أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» كما أهانوا الضمير الإنساني و أهانوا الحق.

و ليست الآية لتحمل- فقط- تصويرا لحادث مضى في الجماعة الإسلامية الأولى و هو ان النضر بن الحارث كان يشتري الكتب المحتوية لأساطير الفرس و قصص أبطالهم و حروبهم ثم يجلس في طريق الذاهبين لسماع القرآن من رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) محاولا لجذبهم إلى لهو الحديث، انصرافا عن القرآن و رسوله و هما سبيل اللّه، حيث النص أعم، و «يشتري» مستقبل يضرب الى اعماق الزمن منذ نزول القرآن الى يوم الدين، في كل عصر و مصر يصبح لهو الحديث أيا كان معارضا لمدارسة القرآن كأصل، و دراسة الشرعة الإلهية ككل على ضوء القرآن، و الاستماع الى حملة رسالة القرآن.

فكما ان التسبّل بسبيل اللّه فرض طول الحياة الايمانية، كذلك لهو الحديث المضل عنها محرّم على أية حال، و هذه الآية تحمل أسفل دركاته اضلالا عن أفضل درجاتها.

وَ إِذا تُتْلى‏ عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ‏ 7.

و انها لقسمة ضيزى بين‏ «لَهْوَ الْحَدِيثِ» و «آياتنا» معاملة معهما معاكسة، منكوسة منحوسة مركوسة، ان يشتري لهو الحديث اضلالا عن آيات اللّه، ثم يولي عنها كأن لم يسمعها حين تتلى عليه‏ «فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ» و كما يستبشر بلهو الحديث المضل الهازئ.

و هنا نتأكد تماما ان ليس كل لهو تشمله الآية بهكذا تنديد شديد، مهما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 218

كان محرما على أية حال، فانما المعروف من آيات اللهو حرمته في المعدّ له، و حرمة الالتهاء بغير المعدّ له، فباختلاف الأشخاص و الحالات و الظروف و اختلاف المجالات يختلف اللهو في واقعه و حكمه، و دركات الحرمة فيما يلهي عن فرض ام في محظور، حيث اللهو مفتاح كل شرّ ايجابيا و سلبيا.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ 8 خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ‏ 9.

هنا نتأكد ان الايمان و عمل الصالحات يناحران لهو الحديث بكل التصرفات فيه، التهاء و الهاء، بيعا و اشتراء، فالمؤمنون يعيشون سبيل اللّه دون ان يلهيهم عنها أية زخرفة من زخارف الدنيا، و من أخطر اللهو هو لهو الإمرة و الرئاسة أعاذنا اللّه من شرها.

خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَ أَلْقى‏ فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ‏ 10.

لقد فصلنا القول في آية الرعد: «اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ..» (3) حول‏ «بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» فلا نعيد، و كذلك الرواسي الملقاة في الأرض في آياتها، و انها تعم الملقاة من البركانات جو الأرضية، و الأمواج سطح الأرضية، و الأحجار فوق الأرضية الساقطة عليها من كرات سماوية.

و «أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ» مما يدل على سبح الأرض في خضمّ الفضاء، فهي سفينة جوية بحاجة لاستقرارها الى رواس تربطها عن الميدان،

«وتد بالصخور ميدان ارضه».

ثم‏ «وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ» فيها لمحتان، إحداهما أن أرضنا تحمل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 219

من كل دابة في الكون نماذج، و الأخرى ان هناك في غير أرضنا دواب كما فيها، و قد دلت على التعميم آية الشورى: «وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَثَّ فِيهِما مِنْ دابَّةٍ وَ هُوَ عَلى‏ جَمْعِهِمْ إِذا يَشاءُ قَدِيرٌ».

كما «وَ أَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» تدل على أن الأزواج النابتة هنا نماذج عن كل الأزواج النابتة في غيرها من كرات عامرة.

فالسماوات على علوّها محبوكة مربوطة بالأرض بعمد لا ترونها، و من احتباكها نزول مائها إليها، و منه وجود النماذج من كل دوابها و أزواج النباتات فيها، مما يدل على تعميم قاصد واحد يربط كل الكائنات بعضها ببعض دون تفاوت و تهافت.

هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ‏ 11.

«فأروني» أمر تعجيز في مسرح خلق اللّه، فهل من خالق غير اللّه‏ «بَلِ الظَّالِمُونَ» المشركون باللّه هم غارقون‏ «فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» يبين ضلاله بهدي خلق اللّه فانها آيات بينات تبين أنها- فقط- للّه.

[سورة لقمان (31): الآيات 12 الى 19]

وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12) وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (13) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى‏ وَهْنٍ وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى‏ أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (15) يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (16)

يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلى‏ ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (18) وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (19)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 221

آيات ثمان تختص بحكمة لقمان التي تلقاها من ربه ثم ألقاها الى ابنه، تجمع من عظات الحكم جوامعها و لوامعها، فيها الحكمة الحكيمة للعبد و جاه اللّه، و وجاه خلق اللّه أمرا لهم بالمعروف عند اللّه، و نهيا عن المنكر لدى اللّه، و صبرا على ما أصاب في مسرح العبودية و الدعوة إلى اللّه، و قصدا في المشي بين خلق اللّه.

وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ 12.

«لقد» تأكيدان و «نا» الدالة على جمعية الصفات ثالثهما، تؤكد هذه الثلاث الحكمة المؤتاة للقمان، المختصرة في‏ «أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ» بيانا لهذه الحكمة الجامعة العالية، و قد تكون هي حكمة الشكر و شكر الحكمة، حيث الشكر هو وضع النعم مواضعها التي يرضاها المنعم.

و الشكر مقابل الكفر يعم الإيمان بكل قضاياه، كما الكفر يعمه و الكفران بكل رزاياه، فهي- إذا- حكمة فطرية و عقلية و نفسية في كل حقولها، إضافة إلى حكمة عملية، هما يقضيان على كافة التفسخات العارمة الذاهبة بالإنسان مذاهب الكفر و الكفران.

و اصل الحكمة هو

«الفهم و العقل» «1»

و لقد

«كان رجلا قويا في امر الله، متورعا في الله، ساكتا مستكينا، عميق النظر، طويل الفكر، حديد النظر، مستغن بالعبر ... و يعتبر و يتعلم ما يغلب به على نفسه، و يجاهد به هواه، و يحترز به من الشيطان، و كان يداوي قلبه بالفكر، و يداوي نفسه بالعبر، و كان لا يظعن إلا فيما يعنيه، فبذلك أوتي الحكمة، و منح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 195 في أصول الكافي عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام‏ يا هشام ان الله قال: و لقد آتينا لقمان لحكمة- قال: الفهم و العقل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 222

العصمة ..» «1»

«كان عبدا كثير التفكر، حسن الظن، كثير الصمت، أحب الله فأحبه الله تعالى فمن عليه بالحكمة ... فنام نومة فغط بالحكمة غطا فانتبه فتكلم بها ...» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر تفسير القمي حدثني أبي عن القاسم بن محمد عن سليمان بن داود المنقري عن حماد قال‏ سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن لقمان و حكمته التي ذكرها اللّه عز و جل فقال: اما و اللّه ما اوتي لقمان الحكمة بحسب و لا مال و لا أهل و لا بسط في جسم و لا جمال و لكنه كان رجلا قويا .. لم ينم نهارا قط و لم يره احد من الناس على بول و لا غائط و لا اغتسال لشدة تستره و عموق نظره و تحفظه في امره و لم يضحك من شي‏ء قط مخافة الإثم و لم يغضب قط و لم يمازح إنسانا قط و لم يفرح بشي‏ء أتاه من امر الدنيا و لا حزن منها على شي‏ء قط ...

(2)

الدر المنثور 5: 161- اخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي مسلم الخولاني قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ان لقمان كان عبدا .. نودي بالخلافة قبل داود (عليه السلام) فقيل له يا لقمان هل لك ان يجعلك اللّه خليفة تحكم بين الناس بالحق؟ قال لقمان: ان اجبرني ربي عز و جل قبلت فاني اعلم ان فعل ذلك اعانني و علمني و عصمني و ان خيّرت قبلت العافية و لم اسأل البلاء، فقالت الملائكة يا لقمان لم؟ قال: لأن الحاكم باشد المنازل و اكدرها يغشاه الظلم من كل مكان فيخذل او يعان فان أصاب فبالحرى ان ينجو و ان اخطأ اخطأ طريق الجنة و من يكون في الدنيا ذليلا خير من ان يكون شريفا ضائعا، و من يختار الدنيا على الآخرة فاتته الدنيا و لا يصير إلى ملك الآخرة، فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام ... ثم نودي داود (عليه السلام) بعده بالخلافة فقبلها لوم يشترط شرط لقمان فأهوى في الخطيئة فصفح اللّه عنه و تجاوز و كان لقمان يوازره بعلمه و حكمته فقال داود (عليه السلام) طوبى لك يا لقمان أوتيت الحكمة فصرفت عنك البلية و أوتي داود الخلافة فابتلي بالذنب و الفتنة».

أقول: لا بأس بهذا الحديث إلا في نسبة الذنب و الخطيئة و عدم الحكمة إلى داود فانها من المختلقات الاسرائيلية. فان داود (عليه السلام) اوتي الحكمة كما أوتيها لقمان:

«وَ قَتَلَ داوُدُ جالُوتَ وَ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ» (2: 251) «وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 223

و لقد أتت «الحكمة» في الذكر الحكيم عشرين مرة، هي في هذه المرة اليتيمة عطية ربانية للقمان و لم يكن من النبيين، فقد أوتي الحكمة البالغة دون رسالة، مما يدل على عظم موقفه تجاه اللّه، و لم يكن إلّا عبدا حبشيا فأصبح من سادات السودان‏ «1».

و الشكر درجات ارفعها ان يعرف الشاكر النعمة و يعترف بعجزه عن أداء شكرها،

«من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه فقد ادى شكورها»

و قد

«اوحى الله عز و جل الى موسى (عليه السلام) يا موسى اشكرني حق شكري، فقال: يا رب و كيف أشكرك حق شكرك و ليس من شكر أشكرك به إلا و أنت أنعمت به علي؟ قال: يا موسى! الآن شكرتني حين علمت أن ذلك مني» «2».

و كما الحكمة هي بين معرفية و عملية، كذلك الشكر المفسر لها معرفي و عملي، أن يحلّق الشكر على الشاكر ككلّ، فلا تبقى من قالاته و حالاته و فعالاته إلا ترسيمات لمرضاة اللّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ» (38: 20) كما و ان الحكمة هي من العطيات الربانية لكافة النبيين: «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ...» (3: 81) و ان قول لقمان للملائكة: فإني اعلم ان فعل ذلك اعانني و علمني و عصمني» دليل العصمة لمن اوتي الحكمة من النبيين.

(1).

المصدر اخرج ابن عساكر عن عبد الرحمن بن يزيد عن جابر قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): سادات السودان اربعة لقمان الحبشي و النجاشي و بلال و مهجع‏

و

فيه قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) اتخذوا السودان فان ثلاثة منهم سادات اهل الجنة لقمان الحكيم و النجاشي و بلال المؤذن.

(2) نور الثقلين 4: 201- ح 1 و 2 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 224

وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ‏ 13.

عظة لا بقة لائقة من والد حكيم لولده، بادئة بالسلب: «لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ» و خلفيّته الإيجاب و هو توحيد اللّه، فهي عبارة اخرى عن‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» تحقيقا لها حقيقا بولد الحكيم و هو يعظه بحكمة اللّه التي آتاه.

و ليست مجرد عظة، بل هي معلّلة بأقوى البراهين البيّنة «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» ظلم يبتدء من الإنسان المشرك نفسه أن يعبد أكرم خلق اللّه خلقا خسيسا كوثن أو صنم أو حيوان، ام خلقا مثله في الحاجة المحلّقة على الخلق كله، كملك او نبي او ولي و هم أنفسهم يوحدون اللّه و ينهون عن أن يشرك باللّه.

ثم ظلم للحق أن يسوّى بين الخالق و المخلوق، ثم يفضّل المخلوق على الخالق، بأن يختص عبوديته للخلق و يترك الخالق، و ظلم في كافة الموازين و المقاييس ان يشرك باللّه العظيم، إذا فهو ظلم عظيم لا يساوى باي ظلم، و لبعده في عظمه‏ «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ».

و لأن عظة الوالد ولده غير متهمة إذ لا ارأف منه به، تعرض في هذه الإذاعة القرآنية استئصالا لكل ريبة تعتري ألدّاء المشركين زمن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) أن ليس وراءها انتزاع سلطان منهم و تفضل عليهم.

لذلك نرى الآيتين التاليتين تأتيان كجملة معترضة بين عظات لقمان لابنه، عرضا لمدى حق الوالدين على الأولاد و فرضا لطاعتهما و شكرهما بعد شكر اللّه إلّا في الإشراك باللّه، فان هذا الظلم العظيم لا يقبل حلولا حتى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 225

بين أقرب الأقارب الوالدين و الأولاد.

وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى‏ وَهْنٍ وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ 14.

لقد فصلنا القول حول هذه الوصية بطيات آيات لها لا سيما آية الأسرى، و هذه الآية هي اليتيمة في خصوص الأم حيث اختصت بذكرى اتعاب لها و أشغاب ليست للوالد مثلها و لها نظيرة في‏ «وَ إِنْ جاهَداكَ ..»

(29: 8).

«حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى‏ وَهْنٍ» و هو الضعف الحمل لذلك الحمل، و علّ الأوّل هو منذ الحمل حتى الوضع، فانه كله ضعف مهما اختلفت مراحله، و الثاني هو منذ الوضع حتى قيامه على ساقه، و الحد المتوسط هو العامان للرضاعة.

«و فصاله» عن الرضاعة، و عن ثاني الوهنين «في عامين» و هما أكثر زمن للرضاعة، و بما أن‏ «حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً» نتعرف إلى أقل الحمل و هو ستة أشهر، و «في» هنا ظرفا ل «فصاله» تقرر أن انفصال الرضاعة هو ضمن عامين، لا- فقط- في منتهاهما، بل خلالهما، البادئ من بداية العام الثاني، و الحدّ المعتدل منه الشهر التاسع قضية الجمع بين «في عامين» و «ثَلاثُونَ شَهْراً» لمن يكون حمله تسعة أشهر، فلا فصال- إذا- قبلها إلّا عند العسر أو الحرج، فحقّ للولد أن يرتضع عامين إلّا ثلاثة أشهر.

«وَ وَصَّيْنَا ... أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ» اشكر لي أن خلقتك و جعلت حبك في قلوبهما لحدّ التضحية في صالحك صغيرا أو كبيرا، و اشكر «لوالديك» ان تحمّلا كلّ عب‏ء في سبيل تحويل هذه الأمانة الربانية «وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ» فأسألك عن واجب الشكر لي و لهما

«فمن لم يشكر والديه لم يشكر الله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 226

تعالى» «1»

فإنهما منعمان عليك بعد اللّه‏

«و من لم يشكر المنعم من المخلوقين لم يشكر الله عز و جل» «2»

و الأم بطبيعة الحال لها الحق الأوفر للعب‏ء الأكثر.

الشكر للوالدين هنا هو الحسن و الإحسان المأمور به في آيات اخرى بحقهما، و لا سيما الأم المتحملة في حمله أكثر من الوالد فلها حق أكثر منه:

«و اما حق أمك فأن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل احد أحدا، و أعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطي أحد أحدا، و وقتك بجميع جوارحها و لم تبال أن تجوع و تطعمك و تعطش و تسقيك و تعرى و تكسوك و تضحى و تظلك و تهجر النوم لأحلك و وقتك الحر و البرد فانك لا تطيق شكرها إلا بعون الله و توفيقه، و اما حق أبيك فان تعلم أنه أصلك فانك لولاه لم تكن فمهما رأيت من نفسك ما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه فاحمد الله و اشكره على قدر ذلك و لا قوة إلا بالله» «3».

و قد

«جاء رجل الى النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال يا رسول الله من أبر؟ قال: أمك قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟

قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أباك» «4».

و علّ الأم تزيد عن الأب مرتين لوهنيها في حمل الولد.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين عن العيون باسناده إلى الرضا (عليه السلام) حديث طويل و فيه يقول: و امر بالشكر له و للوالدين فمن ..

(2) المصدر بإسناده الى محمود بن أبي البلاد قال سمعت الرضا (عليه السلام) يقول: ..

(3) المصدر في الفقيه في الحقوق المروية عن زين العابدين (عليه السلام) ...

(4) المصدر عن تفسير القمي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال جاء رجل .. و

فيه عنه قال‏ جاء رجل و سأل النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) عن بر الوالدين فقال: ابرر أمك ابرر أمك ابرر أمك، ابرر أباك ابرر أباك ابرر أباك و بدء بالأم قبل الأب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 227

و للوالدين تأويل انهما الرسول و علي صلى اللّه عليهما و آلهما فإنهما أبوا هذه الأمة، و كذلك كل العلماء الربانيين، فان حق الوالدية الروحية التربوية فوق الجسمية الولادية «1».

ذلك، و كما اللّه لا يشكر حقه مهما بلغ الشكر مبلغه القمة، كذلك الوالدان، إلّا ان يعترف بالعجز عن أداء شكره و شكرهما، و هو الحق الحقيق بالأجر.

و

قد يروى‏ «ان رجلا كان في الطواف حاملا أمه يطوف بها فسأل النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) هل أديت حقها؟ قال: لا و لا بزفرة واحدة» «2».

ذلك، و لأن الأصل في حقوقهما هو اللّه الخالق لهما و إياكم منهما، الجاعل حبكم في قلوبهما، الآمر بشكرهما، فلا تناحر- إذا- بين حق اللّه و حقوقهما، و لا حق لهما إلّا في طول الخط من حق اللّه دون مشاقة، ف:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر عن الكافي بسند متصل عن الأصبغ بن نباتة انه سأل امير المؤمنين (عليه السلام) عن قوله تعالى: ان اشكر لي و لوالديك اليّ المصير؟ فقال: الوالدان اللذان أوجب اللّه لهما الشكر هما اللذان ولدا العلم و ورثا الحكم و امر الناس بطاعتهما ثم قال اللّه: «إلى المصير» فمصير العبّاد الى اللّه و الدليل على ذلك الولدان ثم عطف القول على ابن حنتمة و صاحبه فقال في الخاص و العام‏ «وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى‏ أَنْ تُشْرِكَ بِي» تقول في الوصية و تعدل عمن أمرت بطاعته «فلا تطعهما» و لا تسمع قولهما ثم عطف القول على الوالدين فقال: «وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً» يقول: عرف الناس فضلهما و ادع الى سبيلهما و ذلك قوله‏ «وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ» فقال: الى الله ثم إلينا فاتقوا الله و لا تعصوا الوالدين فان رضاهما رضا الله و سخطهما سخط الله».

(2) رواه الحافظ ابو بكر البزاز في مسنده باسناده عن بريد عن أبيه ان رجلا ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 228

وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى‏ أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ‏ 15.

«وَ إِنْ جاهَداكَ» جهدهما في جحدهما توحيد اللّه، و قدر ما كل جهودهما «عَلى‏ أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» و بطبيعة الحال ليس لأي إنسان علم بشريك للّه «فلا تطعهما»- فقط- في حقل الضلال، و اما العشرة الحيوية الدنيوية، غير المناحرة لتوحيد اللّه‏ «صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً» كما كنت،

«بر الوالدين واجب و إن كانا مشركين و لا طاعة لهما في معصية الله و لا لغيرهما فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» «1»

و ليس يختص «فلا تطعهما» في الإشراك باللّه كعبادة وثن، بل في معصية اللّه ككل، بل و كل معصية للّه اشراك باللّه، فانه واحد في ان يطاع كما هو واحد بسائر شئون الألوهية و الربوبية، لا شريك له على أية حال و في كافة حقول المعرفة و العبودية و الطاعة، مهما اختلفت دركات الإشراك به كما تختلف درجات توحيده‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 203 عن العيون في باب ما كتبه الرضا (عليه السلام) للمأمون من محض الإسلام و شرايع الدين: .. و

فيه (204) محاسن البرقي باسناده عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) حديث طويل و فيه يقول: أطيعوا آباءكم فيما امروكم و لا تطيعوهم في معاصي اللّه.

(2) و

في المناقب‏ مرّ الحسين بن علي عليهما السلام على عبد الرحمن بن عمرو بن العاص فقال عبد اللّه: من أحب ان ينظر إلى أحب اهل الأرض الى السماء فلينظر الى هذا المجتاز و ما كلمته منذ ليالي صفين، فأتى به ابو سعيد الخدري الى الحسين (عليه السلام) فقال له الحسين (عليه السلام) أ تعلم اني أحب اهل الأرض الى اهل السماء و تقاتلني و أبي يوم صفين؟ و اللّه ان أبي لخير مني، فاستعذر و قال: ان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال لي: أطع أباك فقال له الحسين (عليه السلام) اما سمعت قول اللّه عز و جل: وَ إِنْ جاهَداكَ عَلى‏ أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما» و قال رسول اللّه (صلّى اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 229

اجل و ان‏

«بر الوالدين من حسن معرفة العبد باللّه، إذ لا عبادة اسرع بلوغا بصاحبها الى رضا اللّه تعالى من حرمة الوالدين المسلمين لوجه اللّه، لأن حق الوالدين مشتق من حق اللّه تعالى إذا كانا على منهاج الدين و السنة، و لا يكونان يمنعان الولد من طاعة اللّه تعالى الى معصيته، و من اليقين الى الشك، و من الزهد الى الدنيا، و لا يدعو انه الى خلاف ذلك، فإذا كانا كذلك فمعصيتهما طاعة و طاعتهما معصية قال اللّه‏ «وَ إِنْ جاهَداكَ ..» و اما في باب العشرة فدارهما و احتمل أذاهما نحو ما احتملا عليك في حال صغرك و لا تضيّق عليهما مما قد وسع اللّه عليك من الحال و الجلوس و لا تحوّل بوجهك عنهما و لا ترفع صوتك فوق أصواتهما فان تعظيمهما من اللّه تعالى و قل لهما بأحسن القول و ألطفه‏ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ‏» «1».

فعلى أية حال‏ «صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ» والدين و غيرهما، و لا تتبع سبيل من صدّ عني والدين و غيرهما فان‏ «إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ» لا إلى سواي‏ «فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» وجاه اللّه و خلقه.

يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ 16.

«إنها» تعني أن الطاعة في الإشراك باللّه و ان كانت للوالدين، مما تلمح ان الوصية بالوالدين كما هنا هي من نصائح لقمان، مهما كانت هنا كجملة معترضة بين وصاياه، و ما أجمله ترتيبا رتيبا في أسلوب البيان! و هذه الآية إنذار صارم عن الطاعة في الإشراك باللّه، فضلا عنها مستقلة لغير اللّه، فالإشراك على اية حال مسئول عنه، قصورا أو تقصيرا،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عليه و آله و سلّم): انما الطاعة بالمعروف، و قوله: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

(1). نور الثقلين 4: 202 عن مصباح الشريعة قال الصادق (عليه السلام):

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 230

تقليدا و سواه.

ثم‏ «مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ» تصوير عن أدنى الشرك و «فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ» عن أخفاه ثم‏ «أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ» عن أبعده، و ذلك مثلث من صغار الشرك في أبعاده، فضلا عن كباره في كل أبعاده‏

«اتقوا المحقرات من الذنوب فان لها طالبا، لا يقولن أحدكم أذنب و أستغفر الله إن اللّه يقول‏ «إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ..» «1».

و «يَأْتِ بِهَا اللَّهُ» تصريحة بين نظائرها أن الإشراك باللّه سرا و إعلانا مما يؤتى به بنفسه يوم القيامة: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً» (3: 30) حيث تعم عمل القلب و القالب و السر و العلن: «إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ» لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ» (34: 3).

و ما أتمها أداء و أجملها إيقاعا تصويرا عن الطاعة صالحة و طالحة ب «حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ» صغيرة كأصغر ما كان يعرفه الإنسان‏ «فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ» صلبة لا سبيل إليها كالعادة «أَوْ فِي السَّماواتِ» في خضمّ الأجواء الشاسعة التي يبدو فيها النجم الكبير نقطة سابحة ام لا تبدو و لو بالعيون المسلحة «أَوْ فِي الْأَرْضِ» ضائعة في أعماقها، و مع كل ذلك الخفاء «يَأْتِ بِهَا اللَّهُ» دونما انفلات عن علم اللّه و قدرته.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر روى العياشي بالإسناد عن ابن مسكان عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: اتقوا ...» أقول: يأت بها اللّه قطعي بالنسبة لمن مات مشركا، ثم من مات مذنبا دون توبة و لا شفاعة، فالمعاصي المكفرة لا يأتي بها اللّه فان التائب عن الذنب كمن لا ذنب له.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 231

يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلى‏ ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ 17.

أوامر أربعة تتبنّى شخصية المؤمن كشخص أولا و كداعية ثانيا، و صمودا في كلا البعدين، ف «أقم الصلاة» هي في الحق إقامة لكافة الصلات المعرفية الايمانية و العملية باللّه، ثم‏ «وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ» تشمل الدعوة إلى كافة الخيرات الفردية و الجماعية، كما «وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ» تعم كافة المنكرات.

و لأن إقام الصلاة بحقها، ثم و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، تحول دونها عراقيل و صدمات، لذلك‏ «وَ اصْبِرْ عَلى‏ ما أَصابَكَ» في صالح الإيمان و عمله، دون تزعزع عن قواعده، و لا تلكع و انكسار في سواعده «إن ذلك» التكليف الصارم و الصبر على تحقيقه‏ «مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ».

و إذا كان الصبر على المصاب في فرائض الايمان من عزم الأمور، فليس الأمن عن الضرر من شروطات الجواز أو الوجوب في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، إلّا إذا كان الضرر فيه أهم من الضرر في تركه فمرفوض، أم يتكافئان فغير مفروض.

فالضابطة العامة في هذين الفرضين فرض الصبر على ما أصابك إلّا فيما يستثنى بأهمية ام مكافئة، و كما الدفاع و القتال في سبيل اللّه لا يشترط في وجوبهما الأمن عن الضرر كضابطة، كذلك و بأحرى، الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و هما اقل تعرضا للضرر «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 205 عن الخصال فيما علم امير المؤمنين (عليه السلام) أصحابه من الأربعمأة باب ائمروا بالمعروف و انهوا عن المنكر و اصبروا على ما أصابكم، و فيه عن اصول الكافي عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: الجنة محفوفة بالمكاره و الصبر فمن صبر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 232

وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ 18.

من مظاهر الاختيال و الفخر تصعير الخد للناس، و المشي في الأرض مرحا، و تصعير الخد للناس هو إمالة العنق عن النظر إليهم استكبارا، كأنهم لا شي‏ء و هو فقط كل شي‏ء، فإن الصعر داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها، و المرح هو كثرة الفرح بمال او منال: «وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَ لَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولًا» (17: 37) «1» و هذا المشي الردي‏ء هو المشي في تخايل و نفخة و قلة مبالات بالناس، و قد يعني تصعير الخد للناس ليّ العنق لهم تذللا و استكانة، ام هما معنيّان حيث يحملهما تصعير الخد، فان ليّ العنق و إمالته قد يعني الاختيال، و اخرى الإذلال و كلاهما منهيان.

و «لا يحب» من اللّه يعني البغض، إذ لا تخفى عليه خافية حبيبة أو بغيضة، فإذا لا يحب فهو- إذا- يبغض، و

قد يروى عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قوله: من مشى على الأرض اختيالا لعنته الأرض و من تحتها و من فوقها «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

على المكاره في الدنيا دخل الجنة و جهنم محفوفة باللذات و الشهوات فمن اعطى نفسه لذتها و شهوتها دخل النار»

و

فيه عن المجمع عن علي (عليه السلام) «و اصبر على ما أصابك من المشقة في الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر».

. (1).

المصدر في المجمع عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية لا تمل وجهك من الناس بكل و لا تعرض عمن يكلمك استخفافا به.

(2) المصدر في كتاب ثواب الأعمال باسناده الى ابن فضال عمن حدثه عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): و

فيه عنه قال ابو جعفر (عليه السلام) قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ويل لمن يختال في الأرض معارض جبار السماوات و الأرض.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 233

وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ 19.

القصد في المشي هو الاعتدال في المشي و المشية الحيوية و تمشية الأمور، مجانبا حد الإفراط و التفريط فان خير الأمور أوسطها، فالمشية القاصدة الى الأهداف الصالحة بكل بساطة و انطلاق هي التي توصل إليها دون تلكّا و انحياق،

«سرعة المشي يذهب ببهاء المؤمن» «1»

و من القصد في المشي- ككل- هو المشي القاصد الحق على أية حال، و هو الاعتدال العدل في مشي الإنسان كإنسان‏ «2».

و من القصد في المشي في انطلاقته الغض من الصوت دون رفع صارخ و لا خفض هامس، و المنكر بينهما هو الصارخ فوق الحاجة إلّا إذ اقتضت الضرورة، أم فيه رجاحة كأن يكون داعيا أو يقرأ القرآن‏ «3» فليس القصد من الصوت في كلام و سواه إلا تفهيم المخاطب، فليكم قدر الحاجة من سماعه لا زائدا و لا ناقصا، فالناقص حماقة و الزائد حماقة اخرى بل هي أحمق‏ «إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 208 في كتاب الخصال عن أبي الحسن (عليه السلام) قال: ...

(2)

عن الكافي ابو عمر و الزبيري عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في حديث: ان اللّه تبارك و تعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم و قسمه عليها و فرقه فيها و فرض على الرجلين ان لا يمشي بهما الى شي‏ء من معاصي اللّه و فرض عليهما المشي الى ما يرضى اللّه عز و جل فقال: و لا تمش في الأرض مرحا انك لن تخرق الأرض و لن تبلغ الجبال طولا- و قال: و اقصد في مشيك و اغضض من صوتك ان أنكر الأصوات لصوت الحمير.

(3)

المصدر عن المجمع و روي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية قال: هي العطسة المرتفعة القبيحة و الرجل يرفع صوته بالحديث رفعا قبيحا إلا ان يكون داعيا أو يقرأ القرآن.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 234

فالغض من الصوت أدب صارح، و رفعه سوء أدب قارح، إساءة إلى صاحبه كأن لا يحسب صوته صوتا، و إلى مخاطبه كان يحسبه أصم أو لا يفهم، فلذلك يشبه بصوت الحمير في كونه أنكر الأصوات، و لكن اين حمير من حمير، الحيوان تعلي صوتها قصورا بلا نية سوء، و حمير الإنسان تعلي تقصيرا و بنية سوء، ام قصورا عن تقصير مهما لم ينو سوء.

و من الغض من الصوت- بل هو أهمه- غضه عما لا يحل، أن يربط الإنسان لسانه عما لا يعنيه، فيجعل لسانه وراء قلبه، دون ان يجعل قلبه وراء لسانه.

هذه عظات غرة، سلبية و ايجابية، فردية و جماعية، تأتي في القرآن من لقمان (عليه السلام) كأصول عظاته لابنه و سواه، و قد يروى عنه عظات أخرى نذكر قسما منها هنا كما يناسب الفرقان:

«قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ان لقمان قال لابنه يا بني عليك بمجالس العلماء و استمع كلام الحكماء فان الله يحيي القلب الميت بنور الحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر» «1».

و

قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) عنه (عليه السلام) كان يقول: إن الله إذا استودع شيئا حفظه» «2».

و

قال (عليه السلام) لابنه يا بني لا تكونن أعجز من هذا الديك الذي يصوت بالأسحار و أنت نائم على فراشك» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 162- اخرج الطبراني و الرامهرمزي في الأمثال عن أبي امامة قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم):

(2) المصدر اخرج احمد و الحكيم الترمذي و الحاكم في الكنى و البيهقي في شعب الايمان عن ابن عمر عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ..

(3) المصدر اخرج البيهقي عن الحسن ان لقمان (عليه السلام) قال لابنه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 235

و

قيل للقمان: ما الذي أجمعت عليه من حكمتك؟ قال: «لا أتكلف ما قد كفيته و لا أضيع ما وليته» «1».

«فوعظ لقمان ابنه بآثار حتى تفطّره و انشق و كان فيما وعظه به أن قال: يا بني إنك منذ سقطت الى الدنيا استدبرتها و استقبلت الآخرة فدار أنت إليها تسير أقرب إليك من دار أنت عنها متباعد، يا بني جالس العلماء و زاحمهم بركبتيك، و لا تجادلهم فيمنعوك، و خذ من الدنيا بلاغا و لا ترفضها فتكون عيالا على الناس، و لا تدخل فيها دخولا يضر بآخرتك، و صم صوما يقطع شهوتك و لا تصم صياما يمنعك من الصلاة فان الصلاة أحب الى اللّه من الصيام، يا بني ان الدنيا بحر عميق قد هلك فيها عالم كثير، فاجعل سفينتك فيها الايمان، و اجعل شراعها التوكل، و اجعل زادك فيها تقوى اللّه، فان نجوت فبرحمة اللّه و إن هلكت فبذنوبك، يا بني إن تأدبت صغيرا انتفعت به كثيرا، و من عنى بالأدب اهتم به و من اهتم به تكلف علمه، و من تكلف علمه اشتد له طلبه، و من اشتد طلبه أدرك منفعته، فاتخذه عادة فانك تخلف في سلفك، و ينتفع به من خلفك، و يرتجيك فيه راغب، و يخشى صولتك راهب، و إياك و الكسل عنه بالطلب لغيره، فان غلبت على الدنيا فلا تغلبن على الآخرة، و إذا فاتك طلب العلم في مظانه فقد غلبت على الآخرة، و اجعل في أيامك و لياليك و ساعاتك نصيبا في العلم فانك لن تجد له تضييعا أشد من تركه، و لا تمارين فيه لجوجا، و لا تجادلن فقيها، و لا تعادين سلطانا، و لا تماشين ظلوما و لا تصادقنه، و لا تصاحبن فاسقا ناطقا، و لا تصاحبن متهما، و اخزن علمك كما تخزن ورقك.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). قرب الاسناد هارون بن صدقة عن جعفر عن أبيه عليهما السلام قيل للقمان: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 236

يا بني خف اللّه عز و جل خوفا لو أتيت القيامة ببر الثقلين خفت أن يعذبك، و ارج اللّه رجاء لو وافيت القيامة بإثم الثقلين رجوت أن يغفر اللّه لك، فقال له ابنه: يا أبت كيف أطيق هذا و انما لي قلب واحد؟ فقال له لقمان: يا بني لو استخرج قلب المؤمن يوجد فيه نوران نور للخوف و نور للرجاء لو وزنا لما رجح أحدهما على الآخر بمثقال ذرة، فمن يؤمن باللّه يصدق ما قال اللّه عز و جل، و من يصدق ما قال اللّه يفعل ما أمر اللّه، و من لم يفعل ما أمر اللّه لم يصدق ما قال اللّه فان هذه الأخلاق يشهد بعضها لبعض، فمن يؤمن باللّه ايمانا صادقا يعمل للّه خالصا ناصحا فقد آمن باللّه صادقا، و من أطاع اللّه خافه، و من خافه فقد أحبه، و من أحبه فقد اتبع أمره، و من اتبع امره استوجب جنته و مرضاته، و من لم يتبع رضوان اللّه فقد هان عليه سخطه، نعوذ باللّه من سخطه، يا بني لا تركن إلى الدنيا و لا تشغل قلبك بها فما خلق اللّه خلقا هو أهون عليه منها، ألا ترى انه لم يجعل نعيمها ثواب المطيعين، و لم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين» «1».

و قال يا بني: إن تك في شك من الموت فارفع عن نفسك النوم و لن تستطيع ذلك، و إن كنت في شك من البعث فارفع عن نفسك الانتباه و لن تستطيع ذلك فانك إذا فكرت في هذا علمت أن نفسك بيد غيرك، و إنما النوم بمنزلة الموت و إنما اليقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 198 عن تفسير القمي حدثني أبي عن القاسم بن محمد عن سليمان بن داود المنقري عن حماد قال سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن لقمان و حكمته التي ذكرها اللّه عز و جل؟ فقال:- ذكرنا الشطر الأول من كلامه بداية البحث عن عظات لقمان- ثم قال ابو عبد اللّه (عليه السلام) في قول اللّه عز و جل‏ «وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ ...» قال: فوعظ ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 237

و قال: يا بني لا تقترب فيكون ابعد لك و لا تبعد فتهان، كل دابة تحب مثلها و ابن آدم لا يحب مثله، لا تنشر بزك إلّا عند باغيه و كما ليس بين الكبش و الذئب خلة كذلك ليس بين البار و الفاجر خلة، من يقترب من الزفت تعلق به بعضه كذلك من يشارك الفاجر يتعلم من طرقه، من يحب المراء يشتم، من يدخل مدخل السوء يتهم، و من يقارن قرين السوء لا يسلم، و من لا يملك لسانه يندم.

و قال يا بني صاحب مأة و لا تعاد واحدا، يا بني إنما هو خلاقك و خلقك، فخلاقك دينك و خلقك بينك و بين الناس فلا تبغضن إليهم و تعلّم محاسن الأخالق.

يا بني كن عبدا للأخيار و لا تكن ولدا للأشرار، يا بني أد الأمانة تسلم دنياك و آخرتك و كن أمينا فان اللّه لا يحب الخائنين، يا بني لا تر الناس أنك تخشى اللّه و قلبك فاجر» «1».

و قال: «يا بني إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم فلم يبق ما جمعوا و لم يبق من جمعوا له و إنما أنت عبد مستأجر قد أمرت بعمل و وعدت عليه أجرا فأوف عملك و استوف أجرك و لا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتى سمنت فكان حتفها عند سمنها، و لكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها فتركتها و لم ترجع إليها آخر الدهر، أخربها و لا تعمرها فانك لم تؤمر بعمارتها، و اعلم انك ستسأل غدا إذا وقفت بين يدي الله عز و جل عن أربع: شبابك فيما أبليته، و عمرك فيما أفنيته، و ما لك مما اكتسبته و فيما أنفقته، فتأهب لذلك و أعد له جوابا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). البحار عن قصص الأنبياء باسناده عن جابر عن أبي جعفر عليهما السلام قال:

و كان فيما وعظ به لقمان ابنه ان قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 238

و لا تأس على ما فاتك من الدنيا فإن قليل الدنيا لا يدوم بقاءه، و كثيرها لا يؤمن بلاءه، فخذ حذرك و جد في أمرك، و اكشف الغطاء عن وجهك، و تعرض لمعروف ربك، و جدد التوبة في قلبك، و اكمش في فراقك قبل أن يقصد قصدك، و يقضي قضاءك، و يحال بينك و بين ما تريد» «1».

[سورة لقمان (31): الآيات 20 الى 34]

أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ (20) وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى‏ عَذابِ السَّعِيرِ (21) وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى‏ وَ إِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (22) وَ مَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (23) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى‏ عَذابٍ غَلِيظٍ (24)

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (25) لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (26) وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (27) ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29)

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (30) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31) وَ إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32) يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ اخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (34)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في الكافي باسناده عن يحيى بن عقبة الأزدي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال:

كان فيما وعظ به لقمان لابنه: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 240

أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ 20.

«الم تروا» خطاب التنبيه لكل راء من المكلفين من الجنة و الناس أمن سواهما أجمعين، و لا دليل على اختصاصه بالمشركين لمكان اطلاق العموم و عموم الإطلاق، ثم‏ «وَ مِنَ النَّاسِ» حيث تستثني جماعة من هؤلاء توكّد واقع العموم.

«أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ ..» لفتة مكرورة في الذكر الحكيم، ذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع و هو شهيد، و رغم تكرارها هنا و هناك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 241

بمختلف المناسبات ترى جديدة في كل مرة، جادة نحو تذكير الإنسان النسيان.

و «كم» هنا كما في «تروا» هم كافة المكلفين- و علّهم- في كل الأرضين، دون هذه فحسب، و التسخير له تعني لمسة من الملكية و شطرة من الغاية المعنيّة للخلق كله، مما يقرر لنا إمكانية الانتفاع من الكون كله، مما في السماوات و ما في الأرض كلّه.

و هذه الآية لا نظيرة لها بهذه الشمولية إلّا ما في الجاثية: «وَ سَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (13) «1».

لا تعني «لكم» ان اللّه جعلنا مسخّرين للكائنات، و إنما «سخر لكم» بتسبيل السبل العقلية و العلمية كفاعليات، و السبل القانونية الكونية كقابليات، حتى نتمكن من مختلف الانتفاعات مما في الأرض و ما في السماوات، مهما اختص قسم منها بخوارق العادات الخاصة برسل اللّه و من إليهم، ثم:

«وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً» و الإسباغ هو التوفير و الإتمام، فلا تفريط من ربنا فيما أنعم علينا من نعمه مهما فرطنا نحن في جنبه! ثم‏ «ظاهِرَةً وَ باطِنَةً» حالان من «نعمه» و النعم الظاهرة ككل هي المادية المرئية بمحاولة و دون محاولة، فالباطنة- إذا- هي الروحية من فطرية و عقلية و فكرة و شرعة ربانية.

ثم و من الظاهرة

«ما سوى من خلقك و أما الباطنة فما ستر من عورتك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير الآية في الجاثية من الفرقان يغنيك عما نختصره هنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 242

و لو أبداها لقلاك أهلك‏ «1»

مهما كانتا من الظاهرة في التقسيم الشامل.

كما الإسلام و هو من الباطنة هو من النعم الظاهرة إذ هو ظاهر لكل من يتحرى عنه كما من الباطنة ما ستر من مساوي عملك» «2» و من الباطنة الظاهرة ما هي ظاهرة لكل المسلمين ك «النبي و ما جاء به من معرفة الله عز و جل و توحيده، و منها ما هي غير ظاهر للكل كولاية أهل البيت عليهم السلام‏ «3».

ثم و من الولاية نفسها ما هي ظاهرة كالإمام الظاهر، و ما هي باطنة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 167- اخرج البيهقي في شعب الايمان عن عطاء قال سألت ابن عباس عن الآية قال هذه من كنوز علي قال سألت رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: اما الظاهرة فما سوى ...»

(2)

المصدر اخرج ابن مردويه و البيهقي و الديلمي و ابن النجار عن ابن عباس قال‏ سألت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) عن الآية قال: اما الظاهرة فالإسلام و ما سوى من خلقك و ما أسبغ عليك من رزقه و اما الباطنة فما ستر من مساوي عملك يا ابن عباس ان اللّه تعالى يقول ثلاث جعلتهن للمؤمن صلاة المؤمنين عليه من بعده و جعلت له ثلث ماله اكفر عنه من خطاياه و سترت عليه من مساوي عمله فلم افضحه بشي‏ء منها و لو ابديتها لنبذه اهله فمن سواهم.

(3)

نور الثقلين 4: 212 في تفسير القمي بسند متصل عن جابر قال: قال رجل عند أبي جعفر عليهما السلام: «وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ ...» قال: اما النعمة الظاهرة فالنبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و ما جاء به من معرفة اللّه عز و جل و توحيده، و اما النعمة الباطنة فولايتنا اهل البيت و عقد مودتنا فاعتقد و اللّه قوم هذه النعمة الظاهرة و الباطنة، و اعتقدها قوم ظاهرة و لم يعتقدوها باطنة فانزل اللّه‏ «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ» ففرح رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) عند نزولها انه لم يقبل اللّه تبارك و تعالى ايمانهم إلا بعقد ولايتنا و محبتنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 243

كالإمام الغائب‏ «1» و على أية حال فالظهور و البطون هما من الأمور النسبية و هذه تفاسير بمصاديق من النعم الظاهرة و الباطنة، و التفسير بالمفهوم هو كالأول، كل ما ظهر لكل ناظر هو الظاهرة، و كل ما هو غير ذلك هو الباطنة، و لكن الثانية ليست بالتي لا تظهر ام لا تعرف مهما لم تظهر، و نعم اللّه ظاهرة و باطنة لا تحصى‏ «2» «وَ مِنَ النَّاسِ» و هم النسناس منهم «من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر محمد بن مسلم و حماد بن زياد عن الكاظم (عليه السلام) قال: الظاهرة الامام الظاهر و الباطنة الامام الغائب.

(2)

نور الثقلين 4: 213 في امالي الطوسي باسناده إلى أبي جعفر عليهما السلام قال: حدثني عبد اللّه بن عباس و جابر بن عبد اللّه الأنصاري قالوا اتينا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في مسجده في رهط من أصحابه فيهم ابو بكر و ابو عبيدة و عمر و عثمان و عبد الرحمن و رجلان من قراء الصحابة- الى قوله حاكيا عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): و قد أوحى إلى ربي جل و تعالى ان أذكركم بالنعمة و أنذركم بما اقتص عليكم من كتابه و املى‏ «وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ..» ثم قال لهم: قولوا الآن قو لكم ما اوّل نعمة رغبكم اللّه و بلاكم بها؟ فخاض القوم جميعا فذكروا نعم اللّه التي أنعم عليهم و أحسن إليهم بها من المعاش و الرياش و الذرية و الأزواج الى ساير ما بلاهم اللّه عز و جل من أنعمه الظاهرة فلما امسك القوم اقبل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) على عليّ (عليه السلام) فقال يا أبا الحسن قل فقد قال أصحابك، فقال: و كيف بالقول فداك أبي و امي و انما هو انا اللّه بك؟ قال: و مع ذلك فهات قل ما اوّل نعمة أبلاك اللّه عز و جل و أنعم عليك بها؟ قال: ان خلقني جل ثناءه و لم أك شيئا مذكورا، قال: صدقت فما الثانية؟ قال: أحسن بي إذ خلقني فجعلني حيا لا مواتا، قال: صدقت فما الثالثة؟

قال: أن انشأني فله الحمد في احسن صورة و اعدل تركيب، قال: صدقت فما الرابعة؟

قال: أن جعلني متفكرا راعيا لا بلها ساهيا، قال: صدقت فما الخامسة؟ قال: ان جعل لي شواعر أدرك ما ابتغيت بها و جعل لي سراجا منيرا، قال: صدقت فما السادسة؟ قال:

ان هداني اللّه لدينه و لم يضلني عن سبيله، قال: صدقت فما السابعة؟ قال: ان جعل لي مردا في حياة لا انقطاع لها، قال: صدقت- الى قوله- ان سخر لي سماءه و ارضه و ما فيهما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 244

يُجادِلُ فِي اللَّهِ» جدالا سيئا نكرانا له أم إشراكا به أو إنكارا لوحيه و اليوم الآخر «بغير علم» فطري أو عقلي أو تجريبي أماذا من علم ذاتي «و لا هدى» رسالية أماهيه كحجة ربانية من المكتسب أم و أخيرا، «وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ» و هو كتاب الوحي الذي ينير الدرب على السالكين إلى اللّه إسباغا لسائر الحجج آفاقية و انفسية، و قد فصلناها في آية الحج: «وَ مِنَ النَّاسِ‏ ...

مُنِيرٍ».

و هذا هو الجدال بالتي هي أسوء ألّا يملك أية برهنة ذاتية أو كسبية إلّا تعنتا على الحق و تعندا للحق:

وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى‏ عَذابِ السَّعِيرِ 21.

«ما أَنْزَلَ اللَّهُ» حيث يصاحبه علم و هدى و كتاب منير متروك عندهم إلى‏ «ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا» الذي لا يحمل أيّة حجة إلّا التقليد الأعمى‏ «أَ وَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ» هؤلاء الآباء و إياهم‏ «إِلى‏ عَذابِ السَّعِيرِ» فان أخطر الوسائل الشيطانية و أشرها هو الحمل على تقليد الآباء القدامى- فقط- بحجة انهم آباء، و المقلّد الأول في هذه السلسلة هو الشيطان الداعي إلى عذاب السعير، لمسة موعظة موقظة مخيفة، بعد تلكم الأدلة العظيمة اللطيفة، تأخذ بازمة القلوب غير المقلوبة، قارعة للقلوب المقلوبة، حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و ما بينهما من خلقه ... قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فما بعدها؟ قال: كثرت نعم اللّه يا نبي اللّه فطابت‏ «وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوها» فتبسم رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و قال ليهنئك الحكمة ليهنئك العلم يا أبا الحسن فأنت وارث علمي و المبين لأمتي ما اختلفت فيه من بعدي من أحبك لدينك و أخذ بسبيلك فهو ممن هدي الى صراط مستقيم و من رغب عن هواك و أبغضك و تخلاك لقى الله يوم القيامة لا خلاق له ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 245

يجادل أصحابها في اللّه دون اي اسناد إلى علم أو هدى أو كتاب منير من اللّه.

وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى‏ وَ إِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ 22.

«وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً ..» (4: 125) «بَلى‏ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ (2: 112).

هذه و اضرابها تحمل الإسلام المطلق أو إسلام الوجه للّه، و آيتنا «يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ» مما يجعلها يتيمة في آيات الإسلام، و قد يكون إسلام الوجه إلى اللّه كتقدمه لإسلام الوجه للّه.

و اشمل الوجه هنا للوجه المسلم إلى اللّه هو وجه الفطرة و العقل و العلم فانه الدين القيم كما في آية الفطرة، فلما اسلم وجهه إلى اللّه هكذا يسلم وجهه للّه بوجه الشرعة الربانية، و كل ذلك مصحوبا بالإحسان‏ «وَ هُوَ مُحْسِنٌ» في إسلام وجهه، تزويدا لإسلامه في وجوهه المعرفية بالوجوه العلمية «فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى‏» في هذا السبيل‏ «وَ إِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ» هنا و يوم يقوم الأشهاد.

فحذار حذار، إن الرحلة شاقة و طويلة، حافلة بالشبكات و الأخطار، و لا زاد فيه إلا إسلام الوجه للّه، و لا راحلة إلا الإحسان في اللّه، و ليعرف السالك إلى اللّه أن خطر الوجدان ليس أقل من خطر الحرمان، و خطر السّراء ليس بأهون من خطر الضراء.

وَ مَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ 23 نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى‏ عَذابٍ غَلِيظٍ 24.

و لما ذا «فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ»؟ أ تأسفا عليه؟ و قد أديت ما عليك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 246

فكذبوك! أم زعم أنهم سابقونا؟ «إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ» لا مفلت لهم عنا حين يرجعون «فننبئهم» إنباء الإخبار علميا و واقعيا لما يرون العذاب‏ «بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ» لا يعزب عنه مثقال ذرة!.

«نمتعهم» هنا «قليلا» و كل متع الدنيا قليلة مهما كانت كثيرة غزيرة «ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ» بما عملوا «إِلى‏ عَذابٍ غَلِيظٍ» هو في الحق أعمالهم أنفسهم.

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ‏ 25.

«هم» المسئول عنهم هنا هم المشركون المعترفون أن اللّه هو خالق السماوات و الأرض، «قُلِ الْحَمْدُ» كله للّه الذي يعترف بتوحيد خالقيته المشركون و «الْحَمْدُ لِلَّهِ» الذي يملك كافة البراهين آفاقية و انفسية على توحيده و «الْحَمْدُ لِلَّهِ» على وضوح الحق للحق المتعالي عن كل شائبة و شاكلة.

«بل» هم يخالفون اعترافهم هذا بما يشركون، فقليل منهم يعلمون الحق و هم منكرون و «أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ» جهلا عن تقصير في تقاليد آباءهم و كبرائهم، فالكل- إذا- مقصرون، حيث الإشراك باللّه في العبودية مع الاعتراف بتوحيد الخالقية مما لا يقبل القصور المطلق.

لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ 26.

«للّه» لا سواه ملكا و ملكا، علما و قدرة، بداية و نهاية و على أية حال كل‏ «ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» لأنه الخالق لهما دون سواه، و ل‏ «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» غني في ان «للّه ...» «حميد» في هذه السلطة الملكية و المالكية.

وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 247

أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ‏ 27.

«قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً» (18: 109).

لقد تحدثنا عن الثانية في الأسرى بما قد يكفي تفسيرا للأولى و فيها زيادة عنها كالتصريح بأقلام شجرة الأرض، و سبعة أبحر إضافة إلى البحر، و الثانية خلو عنهما إلّا ضعف البحر و هنا اربعة اضعاف، مما يؤكد لنا انهما يمثلان الكثرة الكثيرة من الماء المداد، و لم يذكر فيهما كاتب للكلمات، و علّه اشارة إلى انه يحلّق على الجنة و الناس أجمعين ان لو كانوا كلهم كاتبين و بأية سرعة ممكنة.

و كما لم يذكر فيهما الأوراق المكتوب عليها، لمحة إلى كل بساط الأرض بكل ما يمكن ان يكتب عليه، مهما كانت رءوس الأقلام كأدقّها، فالكلمات كأنعمها و أرقها.

ففي ذلك المربع ذي الزوايا الشاسعة الشاملة كلما بالإمكان كونه موادا من البحر الحبر و زيادة، و أقلاما و كاتبين و مكتوبا عليه، يقول اللّه‏ «ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ» و هناك‏ «لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي».

و بالنظر إلى كل قلم في مدى امكانية الكتابة به، و كل كاتب كما يمكن ان يكتب، و كل مكتوب عليه من أجزاء الأرض و بسيطها، و مداد الأبحر الثمانية، نعرف سعة كلمات اللّه حيث لا تنفد بهذه الكتابات! في حين نعلم ان ليترا واحدا من الحبر قد يكتب به بقلم واحد و كاتب واحد و كراسات عدة في خمسين سنة ملايين الكلمات التي تشكل مكتبة ضخمة، فضلا عن ذلك المربع الشاسع الواسع! انه ينفذ حبر البحار و أقلام الأشجار و أعمار الكتّاب بكتاباتهم‏ «قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي» و «ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 248

و قد تعني الزيادتان في آية لقمان أن الكلمات فيها أكثر مما في الأسرى، زيادة كلمات اللّه على كلمات ربي، فانه اللّه قبل كونه ربا، و الربوبية صفة فعل فكلماتها محدودة طالما لا نحيط بها علما و لا إحصاء، و الألوهية تحلّق عليها بزيادة للذات و صفات الذات و لهما كلمات كما لصفات الفعل.

لا نقول إن كلمات ربي هي ربع كلمات اللّه لمكان سبعة أبحر إلى البحر هنا، و مثله هناك، فإنهما لا تمثلان إلّا الكثرة، إلّا ان الكثرة في كلمات اللّه اكثر بكثير من كلمات الرب، و هي فيهما لا تنفد مهما اتسعت البحور و كثرت الأقلام، فانها- أيضا- كلها من كلمات الرب فكيف تحلق على كل كلمات الرب فضلا عن كلمات اللّه!.

و كما الأقلام هنا تحلق على كل أشجار الأرض، كذلك البحر يعني كل بحارها ام و الأرضين السبع كلها، ام و بحار السماء أيضا.

هنا

يروى‏ ان أحبار يهود قالوا لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بالمدينة يا محمد أ رأيت قولك‏ «وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» إيانا تريد أم قومك؟ فقال: كلّا، فقالوا: الست تتلوا فيما جاءك أنا قد أوتينا التورات و فيها تبيان كل شي‏ء؟ فقال: إنها في علم اللّه قليل فانزل اللّه في ذلك:

«وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ ...» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 5: 167- اخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبي حاتم عن ابن عباس ان ... و

فيه اخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: اجتمعت اليهود في بيت فأرسلوا إلى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ان ائتنا فجاء فدخل عليهم فسألوه عن الرجم فقال:

اخبروني باعلمكم فأشاروا الى ابن صوريا الأعور قال: أنت أعلمهم؟ قال: انهم يزعمون ذاك قال فنشدتك بالمواثيق التي أخذت عليكم و بالتوراة التي أنزلت على موسى ما تجدون في التوراة؟ قال: لو لا انك نشدتني بما نشدتني به ما أخبرتك، أجد فيها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 249

فالكلمات- إذا- هي علم اللّه ذاتيا و صفاتيا و واقعيا، لفظيا و معنويا، تكوينيا و تشريعيا، و ليست لهذه المجموعة- ككل- حد و لا نهاية، مهما كانت نعمه حسب المنعم عليهم محدودة، و هي ايضا كما الكلمات لا تحصى، و قد تكفي كلمة «كن» مثالا لهذه السعة المعجزة، و لا سيما ما بالإمكان أن يتلون به، فلا حد لها محدودا و لا عدّ معدودا، فلو ان الأقلام كلها بثمانية أضعاف من مداد البحر كتبت هذه الكلمات لما نفذت‏ «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» و قضية عزته الطليقة و حكمته، هي اللامحدودية في كلماته الإلهية، و اللامحصورية في كلماته الربانية بحصار الكتابات التي هي ايضا بوسائلها و الكاتبين لها من كلمات الرب.

و علّ‏ «قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي» تلمح إلى أنها محدودة و لكنها لا تنفد، و لكن‏ «ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ» لا تلمح إلى نفادها، حيث النفي هنا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الرجم، فقضى عليهم النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فقالوا: صدقت يا محمد عندنا التوراة فيها حكم اللّه فكانوا فسب ذلك لا يظفرون من النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بشي‏ء قال فنزل على النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) «وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» فاجتمعوا في ذلك البيت فقال رئيسهم يا معشر اليهود لقد ظفرتم بمحمد فأرسلوا اليه فجاء فدخل عليهم فقالوا يا محمد، أ لست أخبرتنا انه انزل عليك‏ «وَ كَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْراةُ فِيها حُكْمُ اللَّهِ» ثم تخبرنا انه انزل عليك‏ «وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» فهذا مختلف، فسكت النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و لم يردّ عليهم قليلا و لا كثيرا، قال و نزل على النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) «و لو ان ما في الأرض من شجرة أقلام و جميع خلق الله كتاب و هذا البحر يمد فيه سبعة أبحر مثله فمات هؤلاء الكتاب كلهم و كسرت هذه الأقلام كلها و يبست هذه البحور الثمانية و كلام الله كما هو لا ينقص و لكنكم أوتيتم التوراة فيها شي‏ء من حكم الله قليل فأرسل النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) فأتوه فقرأ عليهم هذه الآية فرجعوا مخصومين بشر».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 250

أعم من ذلك دونما هناك.

اجل، و كما يتوارى كل شي‏ء إلّا اللّه، كذلك تتوارى الأشجار و البحار، و تنزوي الأحياء و الأشياء و لا تتوارى كلمات اللّه‏ «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» كما لا يغلب في ذاته كذلك لا يغلب في كلماته.

ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ 28.

آية يتيمة بين آي المعاد تجعل خلق الجمع و بعثهم كنفس واحدة في خلقها و بعثها، و علّها إجابة فيما تعنيه عن السئوال: كيف يحشر الجميع و قد خلطت أجزاؤهم مع بعض، فضلّت كل نفس في الآخرين، كما قالوا:

«أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ. قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (32: 11).

فالجواب: «ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ» أمام الحيطة العلمية و القدرة الإلهية، إذ لا تضل نفس في انفس الآخرين عن علم رب العالمين مهما ضلّت عمن سواه، فكما أنه تعالى خلق كل نفس ثم يبعثها كما خلق، و هو أهون عليه، كذلك يبعثكم ليوم الجمع كما خلقكم أول مرة، و ذلك أهون عليه، «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ» أقوالكم «بصير» بأحوالكم روحية و جسمية، فلا يفلت عنه فالت و لا يعزب عن علمه عازب، فعلمه لازب كل معلوم، و قدرته لازبة كل مقدور.

إنه تعالى لا يختلف في خالقيته القليل و الكثير، و السهل و العسير، لأنه على كل شي‏ء قدير.

لقد «خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ» على توالي الدهور و الأنسال وفق الحكمة الربانية، ثم يبعثكم جميعا في ساعة واحدة قضية العدالة في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 251

الحكمة «1»، دون رحلات الأجنّة، و لا انتسالات مترتبة، فإنهما لدى اللّه سيّان، بل و البدء أيا كان أصعب- لو صح التعبير- و ليس إلا تنازلا في التعبير: «وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ».

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ 29.

هذه و تسع أخرى عشرة كاملة تحدث عن إيلاج الليل في النهار و إيلاج النهار في الليل، و هي تدل على كروية الأرض، لولاها لكانت الأرض كلها ليلا ام كلها نهارا فلا مجال لولوج كلّ في الآخر.

ثم‏ «وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ» في شروقات و غروبات مختلفة حسب مختلف ايام السنة، في الآفاق الأرضية، بما يتحقق معه الولوجان‏ «كُلٌّ يَجْرِي إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى» هو يوم القيامة الكبرى، أو ليس اللّه الذي يجريهما مع سائر الجاريات إلى أجل مسمى، ليجري المكلفين إلى أجلهم المسمى و هم أحق و أحرى؟ إذ «أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» فليجازكم بما عملتم قضية العدل، و إذ لا جزاء وافيا هنا فليكن هناك.

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ 30.

«ذلك» العظيم العظيم، الكثير الكثير من البراهين الساطعة من الآيات الآفاقية و الأنفسية التي تحلّق على الكائنات كلها، دالة على وجوده‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 216) عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية: بلغنا و اللّه اعلم انهم قالوا: يا محمد خلقنا أطوارا: نطفا ثم علقا ثم أنشأنا خلقا كما تزعم و نزعم انا نبعث في ساعة واحدة فقال اللّه: ما خلقكم و لا بعثكم الا كنفس واحدة «فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 252

تعالى و توحيده و كمال ربوبيته‏ «بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ» بكل ما للحق من معنى:

ثبوتا ضروريا لا بدء له و لا ختام، و ثبوتا لكل شئون الألوهية و الربوبية، و ثبوتا لكل استحقاقات و اختصاصات المعبودية.

و «ذلك» الصغير الصغير، الجافي الهزيل من كل دليل مما يدعون من دونه، إنه هو الباطل بكل معاني البطلان كونا و كيانا «وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ» فلا يسامى أو يساوى «الكبير» فلا يوازى.

فكل حق يملك من البرهان ما يحققه قدره، و كل باطل هو صفر اليد عن أي برهان يثبته، بل و يبطله، و لأن اللّه هو الحق المطلق، فحقّ للكائنات كلها ان تكون معسكر البراهين الدالة على حقه دون قصور و لا فتور.

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ 31.

«نعمت الله» هي التي تجري بها الفلك على طول الخط، من الرياح التي تجري السفن الشراعية، و من البترول و الكهرباء و سائر الوسائل المكتشفة، حيث الكلّ نعم اللّه، و العلم الكاشف لها من نعمت اللّه‏ «لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ» الدالة على حقه و «إن في ذلك» البعيد الغور «لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ».

و علّ الآيات هنا هي رقة الماء و خفة الفلك الثقيلة على الماء، و سببية الرياح لجريانها فوق الماء، و سائر الأسباب التي تكشف لكل صبار شكور، و من الآيات هي الفطرية البارزة «إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ ..».

ثم للصبر و الشكر واجهتان، صبر في البأساء و شكر في السرّاء و قد يعنيه‏

قوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): «الايمان نصفان نصف صبر و نصف شكر».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 253

ثم صبر في التروك و شكر في الأفعال كما يعنيه‏

قوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): «الصوم صبر و الأفعال شكر» «1».

وَ إِذا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ 32.

«وَ إِذا غَشِيَهُمْ» هؤلاء الراكبين في الفلك مؤمنين و مشركين «موج كالظلل» و هي السحب السوداء الحاملة العذاب كما في‏ «عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ»- «دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» قضية نبوع الفطرة عند تقطع الأسباب‏ «فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ» كقلة قليلة «مقتصد» في دعوته و دعاءه، باقيا على إخلاصه للّه مهما قل أو كثر «وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا» كهذه الفطرية، و اضرابها من عقلية و علمية و حسية أمّاهيه‏ «إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ»: غدّار «كفور»: ملي‏ء بالكفر و الكفران.

ف «منهم» هناك تلمح إلى قلة، و «كل ختار» هنا إلى كثرة و كما هي طبيعة الحال في الناس و حتى في المؤمنين منهم، مهما اختلف شرك عن شرك.

و يا للهول العظيم- و عوذا باللّه العظيم- موج يغشاهم كالظلل بسرادقه المحيطة بهم من كل جانب، و هم في الفلك كالريشة الحائرة في خضمّ البحر المائر، مما يعرّي النفوس عن كل حالة مشركة خاترة غادرة حيث تقطعت الأسباب، فيتجهون عنها إلى رب الأرباب.

هنا يفتح كتاب الفطرة شاءوا ام أبوا، انفتاحا اتوماتيكيا كما فطرهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). التفسير الكبير للفخر الرازي 25: 162 يرويهما عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 254

اللّه ليقرأوها قراءة خاشعة خاضعة، و يدعوا اللّه حق الدعوة الخالصة «فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ» قاصد قصد الفطرة، دون ان ينجرف بجارف الأمن و الرخاء، و منهم من يجحد ختارا كفورا.

هبهم هؤلاء الختارين الكفارين قد ينجون من ظلل البحار هنا، فمن ذا الذي ينجيهم عن ظلل الأخرى:

يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَ اخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ 33.

جزى عنه: كفى، و هنا قد يجزي والد عن ولده مالا أو حالا، ام يجزي مولود عن والده حالا او مالا، و في يوم القيامة لا جزاء من أحد و ان كان اقرب الأقارب كالوالد و الولد «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» لا حول عنه بأي حول و محاولة «فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا» ان تغفلكم عن الأخرى، ام تحسبوها كما الأولى قد يجزي أحد أحدا أو يجزى عنه‏ «وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ» و هو الشيطان الرجيم الذي يرأس كل نمرود و ليست الحياة الدنيا في حد ذاتها مذمومة، بل هي حسب ما يعامل معها إما حسنة و إما سيئة.

«اثبت الناس رأيا من لم يغره الناس من نفسه و لم تغره الدنيا بتشويقها» «1».

و خير تعريف عادل بالدنيا في قول فصل ما يروى من كلام امير المؤمنين (عليه السلام) لرجل سمعه يذم الدنيا من غير معرفة بما يجب ان يقول في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 217 عن الفقيه عن امير المؤمنين (عليه السلام) حديث طويل و فيه قال السائل: فاي الناس اثبت رأيا؟ قال: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 255

معناها:

الدنيا دار صدق لمن صدقها و دار عافية لمن فهم عنها، و دار غنى لمن تزود منها، مسجد أنبياء اللّه و مهبط وحيه، و مصلى ملائكته، و متجر أولياءه، اكتسبوا فيها الرحمة، و ربحوا فيها الجنة، فمن ذا يذمها و قد آذنت ببينها، و نادت بفراقها، و نعت نفسها فشوقت بسرورها الى السرور، و ببلاءها الى البلاء، تخويفا و تحذيرا و ترغيبا و ترهيبا، فيا ايها الذام للدنيا و المغتر بتغريرها متى غرتك؟ أ بمصارع آباءك في البلى، ام بمصارع أمهاتك تحت الثرى، كم عللت بكفيك و مرضت بيديك تبتغي لهم الشفاء، و تستوصف لهم الأطباء، و تلتمس لهم الدواء، لم تنفعهم بطلبك، و لم تشفعهم بشفاعتك، مثّلت لهم الدنيا مصرعك و مضجعك حيث لا ينفعك بكاءك، و لا يغني عنك احباءك» «1».

و

عن علي بن الحسين عليما السلام‏ «حب الدنيا رأس كل خطيئة و الدنيا دنيا آن: دنيا بلاغ و دنيا ملعونة».

إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ 34.

عرض لشطر من اختصاصات العلم و القدرة الربوبية دون اختصاص بها علما و قدرة، «يُنَزِّلُ الْغَيْثَ» نموذج من خاصة القدرة، و الأربعة الأخرى نماذج من خاصة العلم.

فليست الآية لتحصر اختصاصات العلم و القدرة بهذه الخمس و هناك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر عن ارشاد المفيد من كلام امير المؤمنين (عليه السلام) لرجل سمعه يذم الدنيا ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 256

مآت المآت من الاختصاصات- علميا و في القدرة- باللّه ذكرت بطيات آيات أخرى، فانما هذه الخمس اجابة عما سئل النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و كما في قصته الروح و اضرابها «1» فلا يصدق ما يفترى على رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) انه‏

«قال» أوتيت مفاتيح كل شي‏ء إلا الخمس: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ»

«2» فان غيب الذات و صفات الذات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 169- اخرج ابن المنذر عن عكرمة ان رجلا يقال له الوارث من بني مازن بن حفصة بن قيس غيلان جاء الى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فقال: يا محمد متى قيام الساعة، و قد أجدبت بلادنا فمتى تخصب و قد تركت امرأتي حبلى فمتى تلد و قد علمت ما كسبت اليوم فما ذا اكسب غدا و قد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت فنزلت هذه الآية،

و

فيه اخرج ابن مردويه عن سلمة ابن الأكوع قال‏ كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في قبة حمراء إذ جاء رجل على فرس فقال: من أنت؟ قال: انا رسول اللّه، قال: متى الساعة؟ قال: غيب و ما يعلم الغيب الا اللّه، قال: ما في بطن فرسي؟ قال: غيب و ما يعلم الغيب إلّا اللّه، قال: فمتى تمطر؟ قال: غيب و ما يعلم الغيب إلا اللّه.

(2) المصدر اخرج احمد و الطبراني عن ابن عمران النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال: .. و

فيه اخرج مثله ابن مردويه عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال: لم يعم على نبيكم (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) إلا الخمس من سرائر الغيب هذه الآية في آخر لقمان.

و

فيه اخرج احمد عن عامر او أبي عامر أو أبي مالك‏ ان النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) بينما هو جالس في مجلس فيه أصحابه جاء جبرئيل عليه السلام في غير صورته فحسب رجلا من المسلمين فسلم فرد عليه السلام ثم وضع يده على ركبتي النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و قال له يا رسول اللّه ما الإسلام؟ قال: ان تسلم وجهك للّه و تشهد ان لا إله إلا اللّه و ان محمدا عبده و رسوله و تقيم الصلاة و تؤتي الزكاة فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت، قال نعم ثم قال: ما الايمان؟ قال: ان تؤمن باللّه و اليوم الآخر و الملائكة و الكتاب و النبيين و الموت و الحياة بعد الموت و الجنة و النار و الحساب و الميزان و القدر خيره و شره، قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت؟ قال: نعم، ثم قال: ما الإحسان؟

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 257

و صفات الفعل و غيب المعجزات و كثير أمثالها لا يعلمها إلا اللّه و كما قال اللّه عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): «وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ» (7: 188) فليست هذه الخمس إلا قسما من الغيب لا كله.

و هكذا يفسّر ما

يروى عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) من قوله: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله ...» «1».

و الغيب هنا يعم غيب العلم و القدرة، فان‏ «يُنَزِّلُ الْغَيْثَ» مفتاحه الأوّل هو القدرة و على هامشه العلم.

و قد يعلم غير اللّه أشراطا من هذه الخمس و سواها بوحي الوحي أو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قال: ان تعبد اللّه كأنك تراه فان كنت لا تراه فهو يراك، قال: فإذا فعلت ذلك فقد أحسنت؟ قال: نعم، قال: فمتى الساعة يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): سبحان اللّه خمس لا يعلمها الا اللّه ان اللّه عنده ..

أقول: خمس هنا و في أمثاله يعني شطرا من المصاديق الظاهرة المسئول عنها كرارا، و لا يعني الحصر فيها فانه خلاف نصوص من القرآن.

و يشهد لهذا التوجه ما

فيه ايضا عن رجل من بني عامر قال‏ يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) هل بقي من العلم شي‏ء لا تعلمه؟ فقال: لقد علمني اللّه خيرا و ان من العلم ما لا يعلمه الا اللّه الخمس ان اللّه عنده علم الساعة ف «من» تبعيض فالآية بيان لبعض الغيب الخاص.

(1).

المصدر- اخرج الفريابي و البخاري و مسلم و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): ... لا يعلم ما في عند اللّه إلا اللّه و لا متى تقوم الساعة الا اللّه و لا يعلم ما في الأرحام إلّا اللّه و لا متى ينزل الغيث إلّا اللّه و ما تدري نفس باي ارض تموت إلا اللّه‏

أقول: متى ينزل غير مستفاد من ينزل الغيث» الا على هامش القدرة ف «ينزل» فعل و ليس- فقط- علما».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 258

العقل و العلم و الحس‏ «1» و الضابطة العامة هي اختصاص علم الغيب باللّه، اللهم إلّا غيب الوحي الرسالي حيث يحمل الأحكام الرسالية، و بعض من سائر الغيب ليس منها هذه الخمس و اضرابها المعدودة في الذكر الحكيم، فعلم الغيب الخارج عن واجب الوحي بحاجة إلى برهان ام ضرورة رسالية.

فالأحاديث القائلة ان عليا و الحسين عليهما السلام كانا يعلمان مضجعهما، بين مطروحة و مؤولة إلى إجمال دون تفصيل‏ «2» و كما

يروى عن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر اخرج ابن أبي شيبة و البخاري و مسلم و ابن أبي حاتم و ابن المنذر و ابن مردويه عن أبي هريرة ان رجلا قال يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) متى الساعة؟ قال: ما السمئول عنها بأعلم من السائل و لكن سأحدثكم بأشراطها إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها و إذا كانت الحفاة العراة رؤس الناس فذاك من أشراطها و إذا تطاول رعاء الغنم في البنيان فذلك من أشراطها في خمس من الغيب لا يعلمهن الا اللّه ثم تلا هذه الآية.

(2)

نور الثقلين 4: 220 في اصول الكافي بسند متصل عن الحسن بن الجهم قال‏ قلت للرضا (عليه السلام) امير المؤمنين (عليه السلام) قد عرف قاتله في الليلة التي يقتل فيها و الموضع الذي يقتل فيه و قوله لما سمع صياح الأوزّ في الدار: صوائح تتبعها نوائح، و قول ام كلثوم: صليت تلك الليلة داخل الدار و أمرت غيرك يصلي بالناس فأبى عليها و كثر دخوله و خروجه تلك الليلة بلا سلاح و قد عرف ان ابن ملجم لعنه اللّه قاتله بالسيف كان هذا مما لا يحسن تعرضه؟ فقال: ذلك كان و لكنه خيّر في تلك الليلة لتمضي مقادير اللّه عز و جل.

و

فيه عن مقتل الحسين لأبي مخنف: و ان الحسين لما نزل كربلاء و اخبر باسمها بكى بكاء شديدا و قال: ارض كرب و بلاء، قفوا و لا تبرحوا و حطوا و لا ترحلوا، فههنا و اللّه محط رحالنا و هاهنا و اللّه سفك دمائنا و هاهنا و اللّه تسبى حريمنا، و هاهنا و اللّه محل قبورنا، و هاهنا و اللّه محشرنا و منشرنا بهذا اعدني جدي رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و لا خلاف في وعده.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 259

أئمة الهدى‏ ان هذه الأشياء الخمسة لا يعلمها على التفصيل و التحقيق غيره تعالى.

فقد يعلم رسول او أمام او ولي بأي بلد يموت و لكنه ليس ليعلم مضجعه الخاص لمكان الإختصاص باللّه فانه من الخمس المذكورة في الآية.

فطالما يعلم إجمال الأرض التي فيها يموت، لا يعرف تفصيلها، ام يعرف ما في الأرحام- أذكر؟ أم أنثى؟ حي أو ميت؟ صغير أو كبير؟- بالوسائل الحديثة و لكن لا يعلم ما في الأرحام على التفصيل‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر في امالي الصدوق باسناده الى امير المؤمنين (عليه السلام) لما أراد المسير الى النهروان أتاه منجم فقال له: يا امير المؤمنين لا تسر في هذه الساعة و سر في ثلاث ساعات يمضين من النهار، فقال له امير المؤمنين (عليه السلام) و لم ذاك؟ قال: لأنك ان سرت في هذه الساعة أصابك و أصاب أصحابك أذى و ضر شديد، و ان سرت في الساعة التي امرتك ظفرت و ظهرت و أصبت كلما طلبت، فقال له امير المؤمنين (عليه السلام) تدري ما في بطن هذه الدابة اذكر ام أنثى؟ قال: ان حسبت علمت، قال له امير المؤمنين (عليه السلام) من صدقك على هذا القول كذب بالقرآن‏ «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ...»- «ما كان محمد يدعي ما ادعيت»

و

فيه عن نهج البلاغة يؤمي به الى وصف الأتراك: كأني أراهم قوما كأن وجوههم المجانّ المطرقة يلبسون السرق و الديباج، و يعتقبون الخيل العتاق و يكون استمرار قتل حتى يمشي المجروح على المقتول، و يكون المفلت أقل من المأسور فقال له بعض أصحابه: لقد أعطيت يا أمير المؤمنين (عليه السلام) علم الغيب؟ فضحك (عليه السلام) و قال للرجل- و كان كلبيا- يا أخا كلب ليس هو بعلم غيب، و انما هو تعلم من ذي علم و انما علم الغيب غيب الساعة و ما عدده اللّه سبحانه بقوله: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ..» فيعلم سبحانه ما في الأرحام من ذكر او أنثى و قبيح أو جميل و سخي او بخيل و شقي أو سعيد و من يكون للنار حطبا أو في الجنان للنبيين مرافقا فهذا علم الغيب الذي لا يعلمه الا اللّه و ما سوى ذلك فعلم علمه اللّه نبيه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و دعا لي ان يعيه صدري و يضطم عليه جوارحي»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 260

«الأرحام» هنا طليقة فلا تختص بأنثى الناس، بل الجنة و الناس و سائر ذوات الأرحام، من الحيوان و النبات بل و الجماد، بل و الأرض كلها فانها تحمل من صنوف الكائنات الحية و الميتة، و تحمل كل الميتات الإنسانية و سواها.

و العلم البالغ ما بلغ في معرفة الأجنة الإنسانية لا يحيط خبرا بما هو في الأرحام في كل لحظة و في كل طور من فيض و غيض: «اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى‏ وَ ما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَ ما تَزْدادُ» (13: 8).

ذلك العلم لم يصل الى ما ليس به جرم ظاهر و حجم، و لا نوعية من ذكورة و انوثة حين لا يملك أحد أن يعرف عن ذلك شيئا في اللحظة الأولى لاتحاد الخلية و البويضة، و لا ملامح الأجنة و خواصها و حالاتها و استعداداتها، و لا أنها تموت في الأرحام أم تولد حية، و لا ملامح الأرواح التي تحملها، و لا آماد أعمارها و لا ... إلّا طرفا ضئيلا بالوسائل الحديثة على أخطاءها أم بسائر الوسائل.

كذلك و تنزيل الغيث، مهما استطاع الإنسان بالمجهود العلمية ان يحصل على غيث صناعي أحيانا قليلة ضئيلة، و لكنما الغيث النازل من السحاب المسخر في جو السماء لا ينزله إلّا اللّه، و مهما عرف ناس بتجارب و مقاييس أشراط نزول الغيث و قربه، و لكنهم لا يقدرون على خلق الأسباب التي تنشئه.

و كذلك‏ «ما ذا تَكْسِبُ غَداً» من مكاسب روحية ام مادية كما و كيفا،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أقول: «ما سوى ذلك ...» مطروح او مخصوص بما سوى ذلك أضرابه من علم الغيب كما في صدر الحديث.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 261

نافعة ام ضارة، فانه كقرنائه غيب مغلق عمن سوى اللّه.

و «غدا» هنا تعم غد الدنيا و البرزخ و الأخرى، فلكلّ مكاسب مهما كانت مكاسب الأولى هي التي تكسب للآخرين.

و في رجعة اخرى الى الآية تحديدا لمواقع الخمسة كلا على حده: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ» تختص باللّه علم الساعة ككل، دون إبقاء منه لمن سواه اللّهم إلّا أشراطها «فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها ..» (45: 17).

«وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ» اختصاصا في القدرة على إنزال الغيث، فليس العلم بنزوله من مختصاته حسب النص، اللهم إلّا العلم بإنزاله الذي يساوق القدرة، فانه كما القدرة من مختصاته.

«وَ يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ» ككلّ بما فصلناه فليس ينافيه علم بما في الأرحام بوسائل مصطنعة أم دونها ام فوقها، فلم يقل «عنده علم ما في الأرحام» حتى يحلّق على كل علم بكل ما في الأرحام دون إبقاء، و انما «يَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ» استغراقا لكل علم، و بما ان علمه يساوق قدرته، فهو مختلف عن علم من سواه بشي‏ء مما في الأرحام ايضا فضلا عن كله.

«وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ» استغراقان في السلب يختصان هاتين الدرايتين باللّه، و أرض الموت هنا دون بلده تضيّق مكانه بخصوص المواضع التي تموت فيها كل نفس، فلا ينافيه ان يعلم الإمام الحسين ان مضجعه كربلاء دون المضجع الخاص فيها كما قال‏

«كأني باوصالي تتقطعها عسلان الفلوات بين النواويس و كربلاء».

ففي اختلاف التعبير سلبا و إيجابا، و حصرا محلقا و سواه، علما و سواه، اختلاف المعني من هذه الخمس، و ليست هي الخاصة باللّه علما او قدرة دون سواها كما فصلناه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 263

سورة السّجدة مكيّة و آياتها ثلاثون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 265

[سورة السجده (32): الآيات 1 الى 14]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

الم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (2) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (3) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا شَفِيعٍ أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ (4)

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (5) ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (6) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (9)

وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ (10) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (11) وَ لَوْ تَرى‏ إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (12) وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (13) فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (14)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 266

سورة السجدة تتسمى بها لأنها تحمل آية السجدة الواجبة، مفتتحة ب «الم» و هي الخامسة بين السور المفتتحة بها، رابعة من مكياتها، مما قد تربطها بها لوحدة الافتتاح.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 267

و هذه السورة تعالج قضية المبدء و المعاد بحجج لهما صارمة، دفعا لما يخلج القلوب من تخلفات عارمة، و فيها تبيان فوارق بين فريقي الايمان و الكفر، و هي تلتقي مع سائر المكيات في خطاب القلب البشري بخفاياه و دروبه و منحنياته، تخليصا له عن الخطرات و الخلجات المتخلفة عن أحكام الفطرة و العقلية السليمة.

و هي تعرض قضايا خمس، ابتداء بقضية الوحي و انتهاء إلى وحدة الوحي و الرسالة بين موسى و محمد، و بينهما قضية الألوهية، و البعث و المصير، و مشهد الإيمان و الكفر في النشأتين.

و هي من العزائم الأربع، تجب السجدة بقراءة أو استماع ام و سماع آيتها، و هل يجوز قراءتها في الفرائض فتؤخر سجدتها عن الصلاة

«فان السجود زيادة في المكتوبة»؟.

ام يسجد لها فيها قضية فور الأمر، و وجوبها يرفع محظور الزيادة في المكتوبة كما في زيادة ركن في الجماعة قضية التبعية؟.

ام تحرم قراءتها فيها فتبطل بها الفريضة قضية النهي عن العبادة؟.

ام لا تبطل حيث النهي ليس عن الصلاة، و إنما هو عن قراءة فيها؟.

هنا أحاديث متضاربة، يروي إخواننا عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) جوازها قولا واحدا «1» و يروى أصحابنا عن أئمة أهل البيت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 170 عن أبي هريرة قال‏ كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في الفجر يوم الجمعة الم تنزيل السجدة و هل أتى‏ و رواه مثله عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ابن عباس و ابن مسعود و عن ابن عمران النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) صلى الظهر فسجد فظنا انه قرأ الم تنزيل السجدة و رواه مثله البراء قال: سجدنا مع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في الظهر فظننا انه قرأ الم تنزيل السجدة

و

عن أبي العالية قال‏ كان اصحاب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) رمقوه في الظهر فخرر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 268

كلا الأمرين‏ «1» إذا فلا نتأكد حرمتها في الفريضة، و الأحوط تأخير سجدتها عن الصلاة، و هي ضمن الصلاة خلاف الاحتياط و إن كان الأشبه عدم بطلان الصلاة بها، فان الدالة من أحاديث النهي قلة غير قوية الأسناد، فلا تناحر الثّلة المروية من طريق الفريقين و كثيرة منها قوية الأسناد! و الشهرة ليست بنفسها برهانا شرعيا و لا الإجماع، اللهم إلّا الإطباق بشروطه و هو عادم هنا.

و محور النهي فيما ينهى عنها ان السجود زيادة في المكتوبة، و لا بأس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قراءته في الركعة الأولى من الظهر تنزيل السجدة.

و

من طريق أصحابنا حسنة الحلبي عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) انه سئل عن الرجل يقرء السجدة في آخر السورة؟ قال: يسجد ثم يقوم فيقرء فاتحة الكتاب ثم يركع و يسجد،

و

صحيحه محمد بن مسلم عند أحدهما قال: سألته عن الرجل يقرء السجدة فينساها حتى يركع و يسجد قال: يسجد إذا ذكر إذا كانت من العزائم،

و

صحيحة علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليهما السلام قال: سألته عن امام قوم قرء السجدة فأحدث قبل ان يسجد كيف يصنع؟ قال: يقدم غيره فيتشهد و يسجد و ينصرف هو قد تمت صلاتهم‏ (وسائل الشيعة على الترتيب في أبواب القراءة ب 37 ح 1 و 39: 1، 23 و 40: 5 و 6).

(1). الأمر الثاني ما

رواه زرارة عن أحدهما عليهما السلام قال: لا تقرء في المكتوبة بشي‏ء من العزائم فإن السجود زيادة في المكتوبة»

و

موثقة سماعة: من قرأ «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ» فإذا ختمها فليسجد فإذا قام فليقرء فاتحة الكتاب و ليركع و قال: إذا ابتليت بها مع امام لا يسجد فيجزيك الإيماء و الركوع و لا تقرء في الفريضة و اقرأ في التطوع‏

«و خبر علي بن جعفر المروي عن كتابه و عن قرب الإسناد و قد سأل أخاه موسى (عليه السلام) عن الرجل يقرء في الفريضة سورة و النجم و يركع و ذلك زيادة في الفريضة و لا يعود يقرء في الفريضة بسجدة». (الوسائل ب 40: 1 و 3- و ب 37 ح 2 صدره و ذيله ب 30: 2 و ب 40: 4).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 269

بهذه الزيادة لأن لها سببا، ثم إذا أخرنا السجدة الواجبة لم يبق مجال لمشكلة الزيادة، و لا يترك الاحتياط بترك قراءتها في فريضة.

تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ‏ 2.

علّ «الكتاب» هنا هو النازل على الرسول ليلة القدر بإحكام، ثم نزل عليه ثانيا بتفصيل: «كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (11: 1).

أم و هو الكتاب المفصل المنزل عليه و قد تشملهما «الكتاب» أم و ثالث هو الأول كوكنا و كيانا: «أم الكتاب»: «إِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» (43: 4).

«لا رَيْبَ فِيهِ» في أصله و لا في تنزيله‏ «مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ»- «تنزيل من رب العالمين- لا ريب فيه من رب العالمين» مهما شك فيه و في تنزيله المتجاهلون، فان الريب شك مسنود إلى برهان و لا برهان يسند إليه أيا كان يشكك الإنسان في وحي القرآن، بل البراهين كلها مجندة لا ثبات وحيه، لا مرد لها و لا ريب فيها.

و «تنزيل» مصدرا مبالغة بالغة أن ليس الكتاب المفصل إلّا نفس المحكم بصورة أخرى، فلم يحصل في ذلك التفصيل إلّا تنزيل تقريبا الى أفهام العالمين بعد غموضه في إحكامه.

و في «رب العالمين» تلميحة لامعة أن هذا الكتاب يحمل ربوبيته العالمية، عرضا لبعديها التكوينية و التشريعية دون إبقاء.

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ‏ 3.

أ يصدقون- بعد- بوحي القرآن‏ «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ» على اللّه، فهو كتاب من عنده ام اكتساب من كتب اخرى، ام تعلّم من ذي علم؟ «بل»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 270

إن قولة الافتراء لا تملك برهانا إلّا عليها، فانه دون ريب «هو الحق» كلّه «من ربك» الذي رباك، فكما انك كرسول لست صنيع نفسك أو الآخرين، كذلك ذلك الكتاب ليس صنيع أحد إلّا رب العالمين، صنيعان اثنان هما صنوان يبرهن كلّ لزميله، و يستدل به ككامل دليله، فالسمة الربانية بارزة في القرآن و رسول القرآن، لا يحتملان و لا يتحملان سمة خلقية أيا كان.

«هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ» دون إبقاء لحق إلّا و هو فيه‏ «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ» حيث هم و آباءهم عائشون زمن الفترة الرسالية: «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ» (36: 6) «فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا» (9: 97).

انهم قوم لدّ في أصلهم العربي و فصلهم عن المنذرين، فإذا استطاع رسول القرآن ان ينذر به هؤلاء الألداء الأشقياء فهو بإنذار من دونهم أحرى و أقوى.

إذا فليس هو- فقط- من الحق، بل هو الحق كلّه إذ بامكانه إنذار الألداء الذين لم يسبق لهم إنذار رسالي و لا رسولي، حيث عاشوا تيه الضلالة و المتاهة في ردح بعيد من الزمن ماله مثيل طول الزمن الرسالي في بعد الفترة بعد الشقاوة الأصلية.

و في الحق إن الحق كيانه الهدى لمن كان له قلب او القى السمع و هو شهيد، كلما ازداد الحق توسعا و عمقا ازدادت الهدى على ضوءه، و لأن القرآن هو كتاب الخلود في هديه فليكن مستغرقا الحق كله:

حقا في طبيعته و معناه و مغزاه و مرماه، تطابقة حقة بين أجزاءه دونما اختلاف، و اخرى بينه كله و قضية الفطرة و العقلية الإنسانية و حاجات العالمين أجمعين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 271

حقا بكونه ترجمانا بالغا لكل نواميس الكون، ترجمة قيمة مستقيمة كأنها هي الصورة الواقعية عن واقع الوجود.

حقا بما يحققه و يطبقه من صلات أصيلات بين العالمين و ما بينهم و ما حولهم من قوى، ما ظهر منها و ما بطن، دون اى تنافر و تفاوت و تهافت.

حقا يرسم منهاج الحياة لأعلى قممها المقصودة المرموقة، ملائما مواتيا كل طاقاتها و إمكاناتها، كل نزعاتها و حاجاتها، معالجا كل ما يعتورها من آفات و عاهات و ابتلاءات.

و حقا لا يزداد على تقدم العقل و العلم إلّا بهورا و ظهورا «بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ ..» و تراهم في هذه الفترة الخالية عن الإنذار، كانوا مكلفين دون شرعة تحكمهم، فيتساءلون إذا ناكرين موقفهم من فصيلة الرسالة:

«... رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزى‏» (20: 134) «رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً» (4: 165)؟.

انهم مهما لم يعيشوا الإنذار الرسولي في هذه الفترة لم يكونوا ليخلوا عن الإنذار الرسالي، ام و لأقل تقدير الإنذار الفطري و العقلي و هما قد يكفيان حجة للتوحيد الحق، و لأن الإنذار الرسولي أقوى من الرسالي، و هو ايضا أقوى من العقلي و الفطري، فلا يهلكون بعذاب في الفترة الرسولية و الرسالية، حيث الحجة ليست صارمة يستحقون بها العذاب حين يتخلفون: «وَ قالُوا لَوْ لا يَأْتِينا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى‏، وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْناهُمْ بِعَذابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقالُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَخْزى‏» (20: 134).

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 272

عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا شَفِيعٍ أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ‏ 4.

تعريف باللّه في خالقيته المدبرة لما خلق، توحيدا له في تدبير الخلق كما في الخلق رغم ما يزعمه المشركون انه هو الخالق و لشركائه التدبير.

و مثلث‏ «خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما» تعبير عن الكون المخلوق كله، و «سِتَّةِ أَيَّامٍ» هي الأوقات الستة للخلق و قد فصّلت في «فصّلت» و انها ليست من أيام هذه الأرض، لأنها مقياس زمني ناشئ عن دورتها، فأين هيه قبل خلقها و خلق السماوات، فهي من أيام اللّه التي لا يعلمها إلّا اللّه، اللهم إلّا شبحا بعيدا لنوعيته، دون حده و قدره.

و العرش المستوى عليه هنا هو عرش التدبير بكافة شئون الربوبية، و هو عوان بين العرش قبل هذا الخلق حين‏ «كانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ» (11: 7) و العرش بعد الدنيا «وَ يَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ» (69: 7) و العرش العوان هو عرش التدبير: «ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ» (10: 3) و منه إغشاء الليل النهار: «ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ» (7: 54) عرش الفعالية لما يريد: «ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ. فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ» (85: 16) و كذلك عرش العلم: «ثُمَّ اسْتَوى‏ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْها وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فِيها ..»

(57: 4).

و لأن الولاية هنا و الشفاعة هنا و هناك هي من شئون عرش التدبير الموحّد، إذا «ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ» يلي أمركم و امر الخلق كله لأنه هو ذو العرش «و لا شفيع» عنده في تكوين أو تشريع‏ «أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ» بعد ذكريات الفطرة و العقلية و الشرعة الربانية: أنه هو الولي و الشفيع لا سواه فانى تؤفكون و تصرفون، «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَ آياتِهِ يُؤْمِنُونَ»؟

و ترى كيف يكون اللّه هو نفسه شفيعا، فعند من يشفع إذا كلّ مشفوع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 273

له؟ و هو الذي يشفع عنده! «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» (2: 255)؟.

علّه لأن الشفعاء عنده لا يشفعون إلّا باذنه، إذا فهو الشفيع عنده باذنه، إذ «ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ» (10: 3) «لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ» (6: 70) «لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» (6: 51).

و الشفاعة- ككل- و هي انضمام سبب إلى آخر يكمله، إنها في تكوين و تشريع خاصة باللّه، لأنها من شئون عرش التدبير لكل شي‏ء، فقد يشفع اللّه اسما من أسماءه باسم آخر منها إتماما لتدبير ما يدبره، كشفع شارعيته بغافريته للتائبين، ام يشفع اسما منها بحالة لخلقه كشفع غناه بفقرهم، بل كل تدبيره لخلقه ولاية و شفاعة في كافة حقول الربوبية.

و من ذلك شفاعة العاصين، حيث يشفع عصيانهم بطاعة لهم، أم و بمقرب عنده، شفعا لهما بغافريته و إكرامه للمقربين، فتتحقق الشفاعة بحق المشفوع لهم.

إذا فلا مشكلة في شافعيته عنده حتى تؤول بما لا تتحمل، من تكلفات لفظية و معنوية تبعد عنها ساحة الذكر الحكيم.

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ‏ 5.

ذلك يوم التدبير ربوبيا يوم الدنيا، و هو واحد زمنه عند ربك‏ «وَ إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» (22: 47) و هو/ 355000 ضعفا بالنسبة ليوم عندنا، و علّ خمسين ألف المعارجي هو واحد الزمن الربوبي في تدبير الأخرى، و ألف السجدة كألف الحج هو واحد الزمن الربوبي يوم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 274

الدنيا، فقد «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ» ككل‏ «مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ» و هو أمر تدبير الأرض و من عليها «تم يعرج» ف «يدبر» التي تقابل «يعرج» مضمّن معنى النزول، أنه ينزل الأمر تدبيرا من السماء إلى الأرض‏ «ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ» ذلك الأمر، و عروجه كنزوله هما من تدبيره.

ثم «في يوم» هل هو زمن النزول و العروج جميعا فلكلّ نصف يوم؟

و هو ظاهر التعبير، أم هو فقط يوم النزول دون العروج؟ فلما ذا أخر إلى العروج! أم هو العروج دون النزول؟ كأنه هو!، فإن «يدبر» بيان لأمر التدبير المستمر يوم الدنيا، و «ثم» الدالة على التراخي يؤخر ذلك العروج عن كل التدبيرات في النشأة الأولى و هي يوم الدنيا، فقد يكون عروج أمر التدبير للربوبية الأولى‏ «فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» كموقف واحد من المواقف الخمسين يوم الأخرى‏ «1».

فكما أن يوم الدنيا لخلقها أيام: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ ..» (9: 36) و هو ستة أيام حسب التقسيم الداخلي لزمن الخلق، و كذلك يومها بعد خلقها أيام، فقد يكون يوم الأخرى- و بأحرى- أياما، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون.

و لأن يوم الأخرى ليست لها نهاية بالنسبة لأصحاب الجنة، فخمسون ألف سنة قد تختص بما قبل دخول كل من أهل الجنة و النار مثواه، و قد «تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» (70: 4) و هو واحد الزمن الربوبي المعارجي، المفصلة في المعارج.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 221 في تفسير القمي في الآية يعني الأمور التي يدبرها و الأمر و النهي الذي أمر به و اعمال العباد كل هذا يظهر يوم القيامة فيكون مقدار ذلك اليوم ألف سنة من سني الدنيا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 275

هنا و في الحج‏ «إِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» مهما اختلفت العندية هنا و هناك، ثم لا نجد في المعارج «عند ربك» مما يلمح أن يوما فيها خمسون يوما عند ربك‏ «1»، و قد جمعها «فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» يوم قد يعني منه الأيام الخمسون.

و كما أن الأيام الستة للخلق تختلف عن أيامنا، كذلك يوم العروج إلى اللّه و يوم المعارج، و على الجملة «يوم» كواحد الزمان «عند ربك» يختلف عن كل أيامنا في تقديراتنا الزمنية كما فصلت في تفسير المعارج.

و على أية حال فعروج امر التدبير إليه و فيه انهدام الكون أرضيا و سماويا يتطلب في العادة ألف سنة، و لكنه يحصل في يوم و هو واحد الزمان و هو الحركة الأصلية للمادة الأولية و كما فصلناها في المعارج.

فأمر اللّه ككل واحدة كلمح بالبصر: «وَ ما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ» (54: 50) ثم‏ «وَ ما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» (16: 77) و كأن هذه الواحدة هي يوم عند ربك كألف سنة مما تعدون» بيانا لنفاذ أمره و سرعته.

ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ‏ 6 «ذلك» اللّه العظيم، الخالق المدبر الحكيم، هو لا سواه‏ «عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ» على سواء، إذ لا غيب عندنا إلّا و هو شهادة عنده، و كثير من الشهادة عنده غيب عندنا و هو «العزيز» في علمه و قدرته «الحكيم» في قدرته‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 222 في أمالي الطوسي بأسناده إلى أبي عبد اللّه (عليه السلام) أنه قال في كلام طويل: فإن في القيامة خمسين موقفا كل موقف مثل ألف سنة مما تعدون ثم تلا هذه الآية «فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»

أقول و هذه الرواية متظافرة ذكرت في تفسير آية الحج و آية المعراج.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 276

و علمه و عزته، فإن الغيب أيا كان، ما لم يكن أو كان‏ «1»، و الشهادة على أية حال، كل ذلك عنده شهادة.

الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ‏ 7 «أَحْسَنَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلَقَهُ» أن‏ «أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى‏» (20: 50) فإنه من إحسان خلقه، كما أحسن كلا من الخلق و الهدى لكلّ ما خلق و هدى، فلا أحسن مما فعل و لا اتقن، و من ذلك: «وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ» و المبدء هو آدم الأوّل حيث خلق قفزة من طين، مهما خلق نسله من أصول طينية و لكنه دون قفزة حيث تحولت إلى ماء مهين.

أ ترى ليس في خلق اللّه قبيح و لا غير حسن؟ و ذلك ملموس! أم إنه ليس من خلق اللّه؟ و هو الذي‏ «أَعْطى‏ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلْقَهُ ...»، «خَلَقَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً» (25: 2).

ليس يعني‏ «أَحْسَنَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلَقَهُ» أنه خلق كل شي‏ء سواء في الحسن، و إنما هو إحسان لكل خلق على حدّه، فهو إتقان و إحكام‏ «2» لكل خلق حسب الحكمة الربانية بالظروف المواتية و الملابسات المقتضية.

فلكل جماد و نبات و حيوان و إنسان أو ملك و جان شاكلة روحية و جسدية أمّا هية، هي- ككل- قضية الحكمة كضابطة لكلّ، أم قضية الملابسات كالعور و العمى و الصم و الشلل أما ذا من عوارض هي حصيلة الكيفية الخاصة لأصول الولادة و كيفيتها و ما يطرء الولائد من طوارئ، فالخلق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 3: 281 عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في الآية الغيب ما لم يكن و الشهادة ما قد كان»

أقول ما لم يكن هو من أغيب الغيب كما و مما كان غيب، و ما قد كان ليس كله شهادة، و إنما جله.

(2)

الدر المنثور 5: 172- ابن عباس عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في الآية قال: أما إن است القردة ليست بحسنة و لكنه أحكم خلقها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 277

متقن على أية حال، فهو حسن من الخالق على أية حال، و النقائص الطارئة هي من خلفيات التخلفات الولادية قصورا أو تقصيرا.

ثم القبح بين سائر الخلق خلقيا أصليا ليس إلا نسبيا، فإذا كان العقرب و الحية و السرطان و قسم من سائر الحيوان قبيحا في نظرنا و منظرنا قياسا لها إلى أنفسنا، لم يلزمه واقع القبح لكلّ بين قبيله و مثيله، فعلّنا نحن الأناسي أيضا عندها كما هي عندنا، و كل حسب الواقع و الحكمة حسن متقن في خلقه و هداه كما أعطى اللّه، مهما كان الحسن في الخلق درجات و «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» رغم أنه‏ «بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ».

فالحكم بقبح أو غير الحسن لخلق من الخلق ليس إلّا نتيجة قصور النظر، أو القياس إلى الأحسن أو الحسن في المنظر، و ليس يختص واقع الحسن للخلق بمنظر الإنسان أو أيا كان من الناظرين القاصرين، و على ضوء تقدم العقل نحصل على محاسن في الخلق كنا نحسبها مقابح.

فمن الحسن الجامع للخلق ككل أنك‏ «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ» أجزاء كل خلق في كله، و افراد كل خلق في مجموعه، فلا تفاوت و لا تناحر هنا و هناك إلّا ما يخلقه المتخلفون من خلق اللّه، غير المتخلقين بأخلاق اللّه‏ «فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى‏ مِنْ فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خاسِئاً وَ هُوَ حَسِيرٌ» (67: 4).

فلأن الحسن في الخلق و هداه ليس إلّا على ضوء العلم المطلق و القدرة غير المحدودة و الحكمة العالية و الرحمة الشاملة دون نفاد في شي‏ء منها و لا كساد و لا بخل و ضنّة، فلا يعقل أن يحصل غير الحسن المتقن كما يصلح و أمكن، من اللّه العليم الحكيم القدير العلي الكبير.

«كُلُّ شَيْ‏ءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ» (13: 8) و معيار صالح لنظام الكون‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 278

ككلّ، دون إفراط و لا تفريط، من كل ذرة صغيرة إلى أكبر الأجرام، من خليّة ساذجة إلى أعقد الأجسام، ففي كلّ يتجلى كل إتقان و إحسان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ»! و من الحسن المزدوج خلقا و هدى أن كلا مصنوع ليؤدي دوره المقسوم في رواية الوجود، مزودا بمعدات صالحة ليؤدي دوره الآهل له تمام التأهيل، بتعجيل أو تأجيل، و لا خائن أخون في حمل الأمانة من الإنسان‏ «إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا»! ثم سائر الكائنات تؤدي دوراتها المقررة لها حسب مراتبها و إمكانياتها إلّا أن يعرقل المسير و يصد المصير من قبل شرير ليست عرقلته من خلق اللّه، بل هي اختلاقة منه قضية الإختيار.

العين المعاينة في غير عمى و عمه، و العقل الخبير و القلب البصير يتحلى من جمال الكون الكثير الكثير، ممنوحة برصيد ضخم من ذخائر الحسن و الجمال، مسكوبة في القلب بكل جلال و دلال، عائشة في ذلك المهرجان العظيم البديع، متملية آيات الإحسان و الإتقان في كل ما يدرك أو يحس و يلمس بالحواس من الخمس.

وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ 7، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ‏ 8.

بداية خلق الإنسان من طين، تقضي على نظرية أو فرضية النشوء و الارتقاء الداروينية أن الأنواع تسلسلت من الخلية الواحدة في أطوار متتالية إلى الإنسان، و أن هناك حلقات نشوء و ارتقاء متواصلة تجعل الإنسان في أصله المباشر الأوّل حيوانا بين القردة و الإنسان.

و هذا التطور المزعوم ضرب من المستحيل في سنة التكوين، فهناك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 279

عوامل وراثة كامنة في كل خلية تحتفظ بخصائص نوعها دون تفلّت و تبعثر، محتمّة أن تظل في دائرة النوع الذي نشأت منه دون تطوّر إلى نوع جديد، كما الاستقراء في حالات الخليّات تؤكد ذلك الحفاظ الصارم لنوعياتها في ذواتها.

فالقطّ أصله قط و سيظل- قط- قطاّ على طول الخط، و كذلك الكلب و الثور و الحصان و القرد و الإنسان، و لا يملك دارون في فرضيته القاحلة الجاهلة إلّا نفسه و أتباعه أنهم هم- فقط- من القرد، كما هم عاشوا في صورتهم الإنسانية قردا، و حتى إذا صح تبدل نوع إلى آخر أم و كان واقعا، فواقع خلق الإنسان الأوّل حسب النصوص القرآنية- و هذه منها- إنه بادى من طين، و لو كان تطورا من حيوان آخر أم من الخلية البسيطة الأولى لكان حقّ التعبير ذكره، و آيات خلقه صريحة أن بدءه من طين دون حيوان آخر أم شي‏ء سوى طين.

كما و أن خالجة خلق آدم كنسله هو من إنسان قبله، هذه خارجة عن صراح الآيات، و ما آية اصطفاءه آية انتساله من آخرين: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ» (3: 33) إذ يكتفى لاصطفائه أن كانت معه زوجه و ولده، ثم «العالمين» الشامل لهم منذ خلق آدم إلى يوم الدين يوسع نطاق اصطفاءه كزملاءه، فقد اصطفى الله منذ البداية إلى النهاية آدم و نوحا و آل إبراهيم و آل عمران على العالمين» و هم النبيون و المعصومون أجمعون، طيّا لأدوار الزمان و أنحاء المكان، جمعا بين العالمين ككل، و جمعا بني المصطفين عليهم ككل.

هنا «الإنسان» يعم أصله و نسله، و الفصل بين أصله و نسله أن أصله- و هو آدم الأول- بدء من طين‏ «ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 280

«ماءٍ مَهِينٍ» هو المني، و «سلالة» منه هي النطفة، و هي الدودة المنوية التي تتحول الى جنين، فليس الماء المهين بكله نسل الإنسان، بل سلالة منه هي النطفة الجرثومية.

و «نسله» هنا هو الانتسالات و التطورات الجنينية التي تخطوها سلالته إلى جنين كامل، المدلول عليها ب «سوّاه»:

ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ‏ 9 «ثم» هنا تراخي اكتمال الجنين جسديا من سلالته، فإنها تتحول إلى علقة إلى مضغة إلى عظام و إلى كسو العظام لحما- «وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ» هنا هو «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» هناك، و قد تعم «سوّاه» الإنسان ككل، أصله و نسله مهما اختلفت التسويتان، قفزة من طين في الأولى، و تطورات الجنين في الأخرى.

و لا تعني «من روحه» بعضا من روح اللّه نفسه، إذ ليس له روح و سواه من أجزاء كونية مخلوقة كخلقه، و ذلك النفخ ولادة و ليس خلقا! فإضافة الروح إلى نفسه المقدسة هي إضافة تشريفية، حيث الأرواح المخلوقة درجات، من نباتية إلى حيوانية إلى جنينية أما هيه إلى إنسانية، و هذه أعلاها و أرقاها، لحدّ تستحق الانتساب الخاص إلى اللّه، كأنها- فقط- هي الأرواح التي خلقها اللّه.

ثم و لا تقتضي الإضافة أدبيا كون المضاف جزء من المضاف إليه إلّا في زاوية واحدة من الأربع في الإضافات، من إضافة الشي‏ء إلى نفسه ك «نفسي» و الى كله ك «يدي» و إلى مغايره مخلوقا كنفسه ك «غلام زيد» أم خالقا له ك «روحه» فكيف تقدم زاوية إضافة الجزء إلى كله بين هذه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 281

الأربع، و البراهين الساطعة عقليا و نقليا تثبت أن: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ» و أنه‏ «لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ» و أنه «ليس هو في خلقه و لا خلقه فيه» فلا تجانس و لا تماثل بينه و بين خلقه أيا كان، روحا و سواه.

«وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ» .. «لكم» هناك «سواه» هناك تعم الإنسان ككل، حيث الإنسان أيا كان، هو قبل نفخ الروح ليست له هذه الثلاث إلّا وسائلها أذنا و عينا و قلبا، فلما «نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ» جعل به هذه الثلاث: السمع و الأبصار و الأفئدة- فالأولان هما من أهم النماذج في الإدراكات الحسية الخمس، و الأفئدة و هي القلوب المتفئدة، هي أهم الإدراكات الروحية، و هذه الثلاث هي التي تتبنّى إنسانية الإنسان الكاملة الكافلة لعروجه في درجاته، و خروجه عن دركاته، و أنتم مع كل هذه النعم السابغة: «قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» مهما كان من قصور أو تقصير.

وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ 10 قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ‏ 11.

«و قالوا» هؤلاء المشركون، الناكرون للوحي و الحشر «أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ ...»؟ هنا ضمير المتكلم مع الغير «نا- نا» و «هم» تعني شيئا واحدا و هو الإنسان بجزئيه روحا و جسما، فهم يستبعدون‏ «أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» وجدا كما كانوا تحولا عن ضلالهم في الأرض، كأنهم حين يضلّون عن أبصار الناضرين و علمهم، يضلون كذلك عن رب العالمين.

«ضللنا» هنا تعم كل الضلالات الحاصلة للموتى في جزئيهم بأجزائهما، عامة كتناثر الأجسام و رفات العظام، ضلالا عن البنية الإنسانية و الماهية الجسدانية، و ضلال الأرواح عن الأبدان انفصالها عنها، أم و فناءها كما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 282

يزعمون.

و خاصة أن تتبدل أجزاء للنباتات و الحيوانات و من طريقها إلى أجزاء أناسي آخرين، فقد يضلّ كلّ أجزاء الإنسان في أجزاء الآخرين فلا يحشر- إذا- بشخصه إلّا ضمن الآخرين، أم يضل بعض أجزاءه فيهم فلا حشر- لو كان- إلّا لبعضه، و قد يعبر عن الأخير بشبهة الآكل و المأكول: «أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ» و قد ضلت أجزاءنا أم نفدت في آخرين، فالضلال العام يقضي على الحشر العام، و حتى لو صح العام فالضلال الخاص يحرم البعض عن حشرهم فكيف إذا «خَلْقٍ جَدِيدٍ»؟

و الجواب أولا «بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ» حيث الإيمان بلقاء الرب، إيمانا بالقدرة الخلاقة فالإعادة له أهون من البدء، و بالحكمة العالية فالعود أوجب من البدء، و بتواتر الحياة و الموت في الأحياء و الميتات نباتية و حيوانية و إنسانية أما هيه من حجج الإيمان، كل ذلك برهان لا مرد له على إمكانية و ضرورة الحياة بعد الموت.

و جواب ثان: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ..» لا فحسب أن‏ «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها ..»

(39: 42) بل و «مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ..» ثم الملائكة الأعوان، فمنهم من يتوفون الطيبين‏ «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ» (16: 32) و آخرون يتوفون الظالمين: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ» (16: 28).

و ليس التوفّي هو الإماتة فحسب، بل هو الأخذ وافيا دون إبقاء بعلم و قدرة، في إماتة أم إنامة، أم رفع إلى السماء كما في المسيح‏ «إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رافِعُكَ إِلَيَّ» (3: 55).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 283

ففي توفي الموت إزهاق الأرواح عن الأبدان، دون أن تتفلت عن المتوفّين أو تضل عنهم بضلال عام أم خاص، فكل الأجزاء للكيان الإنساني محفوظة في علم ملك الموت و هي في قبضته أينما حلت و ضلت، و لا سيما الأجزاء الأصلية لكل إنسان التي فيها يحشرون، فإنها مهما ضلت في الأرض أو أصبحت أجزاء لآخرين، ليست لتضل عن ملك الموت، و لا لتصبح أجزاء اصلية لآخرين.

كل الأجزاء الإنسانية نفسية و جسمانية هي محفوظة محفوفة بعلم رب العالمين، مقبوضة بقدرته، فلا تعزب عن علمه و لا عن قدرته في النشآت الثلاث: دنيا و برزخا و عقبى، بل و «يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ» وكالة ربانية أن يتوفاكم: أخذا وافيا دون عزوب و لا غروب لكل أجزاءكم، فمهما ضلت عامة أو خاصة عنكم و عن الآخرين، ليست لتضلّ عن رب العالمين، بل و لا عن‏ «مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ» و لا عن الملائكة الأعوان، فاللّه هو المتوفي أصليا، و ملك الموت يتوفاكم فرعيا، و الملائكة الأعوان بفريقيهم يتوفونكم كأعوان لوكيل الأموات:

و

«هل يحس به أحد إذا دخل منزلا أم هل تراه إذا توفى أحدا، بل كيف يتوفى الجنين في بطن أمه، أيلج عليه من بعض جوارحها، أم الروح أجابته بإذن ربها، أم هو ساكن معه في أحشائها، كيف يصف إليه من يعجز عن صنعة مخلوق مثله»؟ «1»

و لقد

يروى عن رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله) قوله‏ «الأمراض و الأوجاع كلها بريد الموت و رسل الموت، فإذا حان الأجل أتى ملك الموت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 284

بنفسه فقال: يا أيها العبد كم خبر بعد خبر، و كم رسول بعد رسول، و كم بريد بعد بريد؟ أنا الخبر الذي ليس بعدي خبر، و أنا الرسول أجب ربك طائعا أو مكرها، فإذا قبض روحه و تصارخوا عليه قال: على من تصرخون و على من تبكون، فو الله ما ظلمت له أجلا و لا أكلت له رزقا، بل دعاه ربه، فليبك الباكي على نفسه، و إن لي فيكم عودات و عودات حتى لا أبقي منكم أحدا» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 4: 225 عن المجمع روى عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله): و

فيه عن الفقيه‏ سئل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله) كيف يتوفى ملك الموت المؤمن؟ فقال: إن ملك الموت ليقف من المؤمن عند موته موقف العبد الذليل من المولى فيقوم هو و أصحابه لا يدنو منه حتى يبدأ بالتسليم و يبشره بالجنة»

و

فيه عن عوالي اللآلى- في الحديث‏ ان ابراهيم (عليه السلام) لقى ملكا فقال له من أنت؟ قال:

أنا ملك الموت، فقال: أ تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن؟ قال:

نعم أعرض عني فأعرض عنه فإذا شاب حسن الصورة حسن الثياب حسن الشمائل طيب الرائحة فقال: يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن إلّا حسن صورتك لكان حسبه ثم قال:

هل تستطيع ان تريني الصورة التي تقبض فيها روح الفاجر؟ فقال: لا تطيق فقال:

بلى، قال: أعرض عني فأعرض عنه ثم التفت اليه فإذا هو رجل أسود قائم الشعر منتن الرائحة اسود الثياب يخرج من فيه و من مناخره النيران و الدخان فغشي على إبراهيم ثم أفاق و قد عاد ملك الموت إلى حالته الأولى فقال: يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر إلّا صورتك هذه لكفته.

و

في الدر المنثور 5: 173- أخرج الطبراني و أبو نعيم و ابن منده كلاهما في الصحابة عن الخزرج سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله) يقول: و نظر إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال يا ملك الموت أرفق بصاحبي فإنه مؤمن، فقال ملك الموت طب نفسا و قر عينا و اعلم بأني بكل مؤمن رفيق، و اعلم يا محمد إني لأقبض روح ابن آدم فإذا صرخ صارخ قمت في الدار و معي روحه فقلت ما هذا الصارخ و اللّه ما ظلمناه و لا سبقنا أجله و لا استعجلنا قدره و ما لنا في قبضته من ذنب فإن ترضوا بما صنع اللّه تؤجروا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 285

و من النفوس ما لا يقبضها إلّا اللّه و منها ما يقبضها ملك الموت نفسه، و منها ما يقبضها الملائكة الأعوان و إذا كان اللّه هو الذي يقبض أرواح بعض الشهداء فالرسول (صلّى اللّه عليه و آله) و ذووه أحرى بذلك و أولى‏ «1».

«قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ» هكذا فلا مفلت- إذا- عن حيطته، و لا مغلط في علمه و قدرته، و لا ضلة أو زلة في توفيه، «ثم» بعد اكتمال النشأة البرزخية «إلى ربكم» الذي رباكم و توفاكم «ترجعون» في خلق جديد كما الأوّل «بل‏ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» لو كان عنده هين و أهون.

و الرجوع إلى الرب هنا رجوعان، رجوع الحياة، و رجوع للحساب فالثواب أو العقاب، و «ربكم» تعني هنا ربوبيته الجزاء الحساب قضية عدله، كماله ربوبية النشأة الأولى قضية فضله.

ليست هناك مشكلة شائكة تحول دون الحشر إلى اللّه‏ «بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ» فإنما الدافع الأصيل لاختلاق هذه الشبهات و الاستبعادات هو الكفر بلقاء ربهم، حيث يلقي على أنفسهم ظلّ الشك و الاعتراض على الأمر الواضح الذي وقع مرة في خلقهم، و يقع ما هو قريب منه في كل لحظة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و ان تسخطوا تأثموا و تؤزروا و أن لنا عندكم عودة بعد عودة فالحذر الحذر و ما من اهل بيت شعر و لا مدر بر و لا فاجر سهل و لا جبل إلا أنا أتصفحهم في كل يوم و ليلة حتى أنا اعرف بصغيرهم و كبيرهم منهم بأنفسهم و اللّه لو أردت ان اقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون اللّه هو يأذن بقبضها.

(1).

الدر المنثور 5: 173- أخرج ابن ماجة عن أبي أمامة سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله) يقول: إن اللّه و كل ملك الموت يقبض الأرواح إلّا شهداء البحر فإنه يتولى قبض أرواحهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 286

و من ضرورة العدل و الحكمة الربانية وقوعه مرة أخرى هي أحرى من كل ما وقع.

ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ‏؟! و في رجعة أخرى إلى هذه الشبهة و بصورة أوسع، قد يتصور الضلال في الأرض، الذي يستبعد معه أو يستحيل‏ «خَلْقٍ جَدِيدٍ» كالتالية:

1- ضلال الانعدام؟ و إعادة المعدوم ممتنعة! و لكن الموت ليس انعداما، إنما هو انفصال الروح عن البدن الدنيوي باستمرار اتصاله بالبدن البرزخي، ثم تحول الأكثرية الساحقة من أبدانها رفاتا و رمادا، و ليس المعاد إلّا الروح حيث يعاد إلى البدن بعد خلقه جديدا مرة أخرى.

2- ضلال الأبدان في أبدان أخرى تحولا إلى نباتات و حيوانات و أطعمة لأناسي آخرين، ثم ضلال الأرواح في أبدان أخرى تناسخا، كعملية مستمرة في الأموات و الأحياء؟

لكن الأرواح لن تضل في أبدان اخرى بل تظل أرواحا لأبدانها التي انفصلت عنها قضية الحكمة العادلة الربانية، ثم الأبدان لها مختلف الأجزاء، الجزء الجرثومي الأم و هي النطفة التي خلقت منها، ثم الأجزاء المكتملة له العائشة معه طول العمر و لا سيما في دور التكليف، ثم الأجزاء غير الأصيلة التي لها دور التغذية و التنمية، سواء أ كانت من أجزاء الأموات، أصلية أو فرعية، أماهيه من أجزاء غير إنسانية.

فالأجزاء التي لا بد أن تخلق في المعاد مرة أخرى لتجزى بالأرواح جزاءها الأوفى، هي التي تعيش مع الأرواح في دور التكليف، لتذوق الأرواح و بال تخلفاتها، و تنال منال تعبداتها، سواء في أفعالها بواسطة الأعضاء أم سواها كالنيات و الاعتقادات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 287

فهذه الأجزاء الأصلية مهما ضلّت عندنا في أبدان و سواها، لن تصبح أجزاء أصيلة لأبدان آخرين، و لن تضل عن علم اللّه و قدرته، فهي تخلق مرة أخرى فتعاد الأرواح فيها «لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏ ..» «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ..» أخذا وافيا لما يعاد من أرواح و أجساد دونما تفلّت لها و لا تلفّت عنها، فالمعاد في المعاد اثنان: عود الصورة الماثلة للأجزاء الأصلية البدنية ثم عود الأرواح بأبدانها البرزخية إليها.

ثم لا ضرورة في إعادة سائر الأجزاء غير الأصيلة، بل هي مستحيلة في هذه التي كانت أصيلة لآخرين حيث يظل أصحابها بلا أبدان إذا ضلت في أبدان آخرين.

فالمعاد حسب ما يرسمه القرآن و تقبله الفطرة و العقلية الانسانية و الإيمانية، ليس فيه ضلال للأجزاء الأصيلة للإنسان أرواحا و أبدانا، و لا ترد الشبهات حول هذا المعاد عن بكرتها، و ليست الأقاويل المشركة، أو الفلسفية الطائلة إلّا حول معاد خيّل إليهم فاضطروا إما إلى نكرانه أم تأويله، أم تورطا في قاله و قيله، و معاد القرآن في غنى عن كل قال فيه و قيله، إذ لا تروّي غليلا و لا تشفي عليلا!.

وَ لَوْ تَرى‏ إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ‏ 12.

«لو» هنا في موقف الترجّي أن يرى رسول الهدي (صلّى اللّه عليه و آله) «إِذِ الْمُجْرِمُونَ» و هم الناكرون ليوم الحساب‏ «ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ» إطراقة و طأطأة في ذلّ و انكسار «عِنْدَ رَبِّهِمْ» في يوم الرب و موقف حسابه بهول المطّلع، قائلين‏ «رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا» آياتك في الآفاق و في أنفسنا بعد إذ عمينا و صممنا يوم الدنيا، فلم يبق لنا بعد صالح الإيمان إلّا صالح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 288

أعمال الإيمان «فارجعنا» الى الحياة الدنيا «نَعْمَلْ صالِحاً» لما أبصرنا و سمعنا «إِنَّا مُوقِنُونَ» لا نحتاج بعد إلى تحصيل اليقين، و لكن لات حين مناص و قد فات يوم خلاص‏ «وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» (6: 28) ف‏ «إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها» (23: 100) و حتى إذا صدقوا في وعدهم فلا رجوع بعد تمام الحجة و وضوح المحجة: «وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَ وَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» (35: 37).

و يا له من مشهد خزي، إقرارا بالحق الذي جحدوه، و إعلان اليقين بالذي أنكروه، فطلبا للعودة حتى يجبروه، و لكنه كلّه بعد فوات الأوان حيث لا يفيد إيقان بإعلان و غير إعلان! و قد تعذر موقفهم المخزي يوم الدين‏ «إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» إذ تمت عليهم الحجة فتركوا المحجة، و هم أولاء ليسوا إلّا أنفسهم لو رجعوا «1».

و ذلك من خلفيات الإختيار، و الدنيا على ضوءه هي دار الإختيار و ليس الإجبار بمشية الملك الجبار:

وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ‏ 13.

«لو» تحيل هذه المشية المسيّرة إلى الهدى قضية الحكمة في الاختبار

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 174- أخرج الحكيم الترمذي عن أبي هريرة قال سمعت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله) يقول- إن اللّه يعتذر إلى آدم يوم القيامة بثلاثة معاذير يقول ...

و يقول: يا آدم إني لا أدخل أحدا من ذريتك النار و لا اعذب أحدا بالنار إلّا من قد علمت في سابق علمي إني لو رددته إلى الدنيا لعاد إلى شر ما كان فيه لم يراجع و لم يعتب ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 289

و بالاختيار، و «لآتينا ..» تبيين لمشيئته الطليقة بالنسبة لكل ممكن ذاتي، و لكن في ذلك الإيتاء خلاف الحكمة اللائقة بشأن الربوبية للمربوبين، و «هداها» هي الهدى المطلوبة لكل نفس، فحين تؤتى هداها دون سعي منها بطل التكليف و الإختيار، مهما ظل الاختيار باقيا على الهدى المؤتاة لكل نفس أم لم يظل: «وَ لَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً» (10: 99) و ليس في ترك هذه المشية المسيّرة ترك لبالغ الحجة «فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ» (6: 149).

و ترى أنه تعالى لم يؤت كل نفس هداها؟ و قد هداها بمثلث الفطرة و العقل و الشرعة! إنها ليست إلّا دلالات الهدى دون واقعها الحاصل بالاستدلال بها و اقتفاء آثارها، فالهدى الدلالية شاملة كاملة، و واقع الهدى ليس إلّا لمن اهتدى، و «هداها» إنما هي واقعها الذي لا يضل عنها مهديها.

«و لكن» لم نشاء و لن، بل‏ «هَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ»- «فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ» و لأن الأكثرية الساحقة من المكلفين كافرون، لذلك‏ «حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ».

و تراه قولا يستغرق كل الجنة و الناس؟ و منهم مؤمنون! أم يخص الكافرين؟ فلما ذا «أجمعين»! قد يعني «أجمعين» ملأ ورودها «إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى‏ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا، ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا» (19: 71).

ام يعني ملأهم ورد العذاب كما وعد «قالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» (38: 85) و ذلك بعد ما هددهم الشيطان إذ: «قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» (83).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 290

صحيح أن اللّه آتى غير النفوس المكلفة من حيوان و سواها هداها، التي تهتدي إليها، و لكن المختار لهذا الكائن المختار أن يختار طريقه هدى أو ضلالة، و هو مهدي بالفطرة و العقل و هدي الشرعة، ليؤدي دوره الكامل الكافل لكل أدوار الكمال بين الخليقة، حيث الوصول الى الكمال في عرقلة السبل آصل و أوصل إلى المآل و كما أصبح رسول الهدى‏ «أَوَّلُ الْعابِدِينَ» و أفضل العارفين، و حتى من الملائكة الكروبيين:

فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ‏ 14.

«فذوقوا» عذاب الخزي «بما نسيتم» نسيان التغافل التجاهل التناسي‏ «لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا» الذي كنتم به تكذبون‏ «إِنَّا نَسِيناكُمْ» كما نسيتمونا:

«الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَ لَعِباً وَ غَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ نَنْساهُمْ كَما نَسُوا لِقاءَ يَوْمِهِمْ هذا وَ ما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ» (7: 51) «لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ» (38: 26).

نسيان بنسيان جزاء وفاقا و أين نسيان من نسيان، فكما أن هذا النسيان تناس عامد دون المرفوع من النسيان، كذلك اللّه يتناساهم في عالم رحمته، و إذ لا رحمة فهو العذاب‏ «وَ ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» إخلادا إلى الحياة الدنيا و اطمئنانا بها.

[سورة السجده (32): الآيات 15 الى 30]

إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (15) تَتَجافى‏ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (16) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (17) أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ (18) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى‏ نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (19)

وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (20) وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى‏ دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (22) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (23) وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (24)

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (25) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَ فَلا يَسْمَعُونَ (26) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَ فَلا يُبْصِرُونَ (27) وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (28) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (29)

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (30)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 292

إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ‏ 15.

«خروا سجدوا» لها مرحلتان، عامة «إِذا ذُكِّرُوا بِها» كلكل سماعا أو استماعا للقرآن، و السجود هنا هو غاية الخضوع تذكرا بالقرآن، و أدناه الاستماع له و الإنصات إليه كما في آية (7: 204) و آية الأسرى: «.. إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً» (107).

و مرحلة خاصة هي السجود بالأركان إضافة إلى الجنان حين استماع أو سماع القرآن، و هذه من آياته كآية الحج و العلق و النمل إجماعا، و آيات أخرى دلالة كما الأسرى و أضرابها، بل و لا فرق دلاليا بينها و بين آية الأسرى، فكل الآيات الآمرة بالسجود هي في الحق من العزائم الواجبة السجود لاستماعها أو سماعها على الأقوى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 293

«إنما» هنا حصر بصادق الإيمان، أن التفكير بآيات اللّه يخرّرهم سجدا للّه مسبحين بحمد ربهم دونما استكبار، مما يدل- لأقل تقدير- على وجوب استماع القرآن ككلّ، فإنه أقل سجود له و خضوع، و تركه- إذا- خلاف واجب الإيمان.

و إنها صورة و وضيئة للأرواح المؤمنة الشفيفة الحساسة اللطيفة المرتجفة من خشية اللّه و تقواه حين تذكّر بآيات اللّه، حيث تتلقاها بتوفّز الحس و استيقاظ القلب و استنارة الضمير.

و «سجدا» عرض لحالتهم الخاضعة: الخاشعة في سمع و عقل و قلب أمام ذكريات القرآن، بل هم بكل جوارحهم و جوانحهم يسجدون له صاغين إليه، حاصرين حواسهم و إحساساتهم و إدراكاتهم فيه.

تَتَجافى‏ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ‏ 16.

«المضاجع» هنا هي فراشات و مكانات النوم، و تجافي الجنوب عنها هو تنحّي الشقق عن مضاجعهم، لا أنهم يأخذون مضاجعهم متجافين فيها، و إنما «عن مضاجعهم» كيلا يأخذهم النوم عن الصلاة الأخرى عشاء أو عصرا، أم و بعد العشاء عن صلاة الليل‏ «1» حيطة على فرض الأوليين و نفل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 226 عن تفسير القمي حدثني أبي عن عبد الرحمن بن أبي نجران عن عاصم بن حميد عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ما من عمل يعمله العبد إلا و له ثواب في القرآن إلا صلاة الليل فإن اللّه عز و جل لم يبين ثوابها لعظيم خطره عنده فقال جل ذكره: «تَتَجافى‏ جُنُوبُهُمْ‏- إلى قوله- نُزُلًا بِما كانُوا يَعْمَلُونَ».

و

فيه عن العلل بأسناده إلى أبي عبيدة الحذاء عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال‏ في الآية: لعلك ترى ان القوم لم يكونوا ينامون، قال قلت: اللّه و رسوله و ابن رسوله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 294

الأخرى كيلا تفوت أو تتأخر عن أوقاتها.

فعن بعض الأصحاب قال: ما رأيت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله) راقدا قبل العشاء و لا متحدثا بعدها فإن هذه الآية نزلت في ذلك‏ «1»

و كما

يروى عنه (صلّى اللّه عليه و آله) فيها قال: هم الذين لا ينامون قبل العشاء فأثنى عليهم ..» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اعلم، قال فقال: لا بد لهذا البدن ان تريحه حتى يخرج نفسه فإذا خرج النفس استراح البدن و رجع الروح قوة على العمل فإنما ذكرهم‏ «تَتَجافى‏ جُنُوبُهُمْ ..» أنزلت في أمير المؤمنين (عليه السلام) و أتباعه من شيعتنا ينامون في أوّل الليل فإذا ذهب ثلثا الليل أو ما شاء اللّه فزعوا إلى ربهم راغبين مرهبين طامعين فيما عنده فذكر اللّه في كتابه فأخبرك بما أعطاهم أنه أسكنهم في جواره و أدخلهم جنته و آمنهم خوفه و أذهب رعبهم، قال قلت:

جعلت فداك إن أنا قمت في آخر الليل أي شي‏ء أقول إذا قمت؟ قال: قل الحمد للّه رب العالمين و إله المرسلين و الحمد للّه الذي يحيي الموتى و يبعث من في القبور فإنك إذا قلته ذهب عنك رجز الشيطان و وسواسه إنشاء اللّه تعالى‏

أقول: و رواية أهل البيت متظافرة في تفسير الآية بصلاة الليل و هذا من باب التفسير بالمصداق الخفي، و إلا فكيف ينحصر الإيمان الصحيح بصلاة الليل و ليست إلّا مندوبة؟.

و

قد يروى في تفسير الآية عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

(1). الدر المنثور 5: 174- أخرج عبد الرزاق في المصنف و ابن مردويه عن أنس قال: ... و

فيه عن أنس قال: نزلت فينا معاشر الأنصار كنا نصلي المغرب فلا نرجع إلى رحالنا حتى نصلي العشاء مع النبي (صلّى اللّه عليه و آله) فنزلت فينا: تتجافى جنوبهم عن المضاجع ..

(2)

المصدر- أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي (صلّى اللّه عليه و آله) قال: تتجافى ... فلما ذكر ذلك جعل الرجل يعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عينه فوقتها قبل أن ينام الصغير و يكسل الكبير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 295

و قد تعني‏ «تَتَجافى‏ جُنُوبُهُمْ» إضافة إلى ترك النوم تداوم الصلاة و ذكر اللّه بين الصلاتين، كما تلمح له‏ «يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً» و كذلك خدمة خلق اللّه: «وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ».

و على أية حال فهي من آيات الفصل بين العشائين، أم و الظهرين كما دلت عليه آية النور.

فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ‏ 17.

هذا! و

في حديث قدسي قال‏ اللّه تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر .. «1».

و «نفس» هنا هي النفس المؤمنة المراعية حق اللّه غير المرائية في جاهرة الأعمال للّه، كما

«هو العبد يعمل سرا أسره إلى الله لم يعلم به الناس فأسر الله له يوم القيامة قرة أعين» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 5: 176- أخرج جماعة عن أبي هريرة عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله) قال‏ قال اللّه تعالى: ... و روى مثله عنه (صلّى اللّه عليه و آله) سهل بن سعد و أضاف: ثم قرأ «تتجافى جنوبهم- الآيتين.

و

فيه عنه عن رسول الله (صلى الله عليه و آله) قال: و الذي نفسي بيده لو أن آخر أهل الجنة رجلا أضاف آدم فمن دونه و وضع لهم طعاما و شرابا حتى يخرجوا من عنده لا ينقص ذلك مما أعطاه الله.

(2)

المصدر أخرج جماعة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه و آله) عن الروح الأمين قال: يؤتى بحسنات العبد و سيئاته .. فقلت: أ فرأيت قوله:

فلا تعلم نفس ..» قال: هو العبد ...

و

فيه أخرج جماعة عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى النبي (صلّى اللّه عليه و آله) أن موسى (عليه السلام) سأل ربه فقال: رب أي أهل الجنة أدنى منزلة؟ فقال: رجل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 296

ثم «نفس» نكرة في سوق النفي تستغرق كل نفس، و «أخفي» ماضيا دليل صارم أن «قرة أعين» لهم كائنة معهم في ملكوت أعمالهم يوم الدنيا، و إلّا فكيف «أخفي» غير الموجود؟ و ذلك من براهين أن الجزاء هو نفس العمل بملكوته، إن خيرا فبفضل اللّه مزيد، و إن شرا فبعدل اللّه على قدره و لا يزيد.

و «ما» المجهول لكل نفس تعم كلا الكيف و الكم‏ «مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ» و «أعين» دون «عينيها» تقرر أن المخفي لكل نفس هو قرة أعين كلّ نفس‏ «جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ» أن زاد اللّه في ملكوت أعمالهم الصالحة مزيدات و مزيدات.

و إنه تعبير عجيب يشي بمدى الحفاوة الربانية لهؤلاء الأكارم حيث يتولى اللّه ما يخفيه لهم بنفسه المقدسة إعداد المذخور لهم عنده، الذي لا مطلع لأحد فيه إلّا له، فيظل مستورا لهم عنده حتى يوم القيامة، ثم يكشف عنه عند لقاءه هناك.

أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ‏ 18.

استفهام إنكاري عن هذه التسوية الظالمة بين من كان مؤمنا، و من كان فاسقا عن الإيمان، لا كل فاسق إذ يجتمع الفسق العملي مع الايمان، أم في‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

يجي‏ء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة فيقال له ادخل فيقول كيف ادخل و قد نزلوا منازلهم و أخذوا اخذاتهم فيقال له: أ ترضى أن يكون لك مثل ما كان لملك من ملوك الدنيا فيقول: نعم أي رب قد رضيت، فيقال له: فإن لك هذا و عشرة أمثاله معه، فيقول:

أي رب رضيت فيقال له: فإن لك مع هذا ما اشتهت نفسك و لذت عينك، فقال موسى (عليه السلام) أي رب فأي اهل الجنة أرفع منزلة؟ قال: أياها أردت و سأحدثك عنهم إني غرست كرامتهم بيدي و ختمت عليها فلا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 297

تسوية الجزاء عند البعث‏ «1»، بل «لا يستوون» فليكن هناك بعث فيه يحاسبون‏ «2» «لِتُجْزى‏ كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى‏»:

أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى‏ نُزُلًا بِما كانُوا يَعْمَلُونَ‏ 19.

«النزل» ما يعدّ للنازل، و هو يوم الحساب بين ثواب و عذاب، فنزل الثواب هو للذين آمنوا و عملوا الصالحات‏ «كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا» (8: 107) و نزل العذاب للذين كفروا و عملوا الطالحات: «إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قلب بشر قال و مصداق ذلك في كتاب اللّه تعالى: «فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ.

(1). الدر المنثور 5: 178 عن قتادة في الآية قال: «لا في الدنيا و لا عند الموت و لا في الآخرة.

(2)

المصدر أخرج أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني و الواحدي و ابن عدي و ابن مردويه و الخطيب و ابن عساكر من طرق عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عتبة لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) أنا أحدّ منك سنانا و ابسط منك لسانا و أملأ للكتيبة منك فقال علي (عليه السلام): أسكت فإنما أنت فاسق فنزلت‏ «أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً ...» يعني بالمؤمن عليا و بالفاسق الوليد بن عقبة بن أبي معيط.

و أخرج مثله ابن إسحاق و ابن جرير عن عطاء بن يسار، و ابن أبي حاتم عن السدي و عن عبد الرحمن ابن أبي ليلي»

أقول: اتفقت كلمة المخرجين حول هذه الآية على ما نقلناه عنهم قولا واحدا، كما اتفقت روايات أصحابنا في ذلك قولا واحدا، و قد أنشأ حسان في ذلك شعره:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| انزل اللّه و الكتاب عزيز |  | في علي و في الوليد قرآنا |
| فتبوء الوليد من ذاك فسقا |  | و على مبوّء إيمانا |
| ليس من كان مؤمنا عرف اللّه‏ |  | كمن كان فاسقا خوانا |
| سوف يجزى الوليد خزيا و نارا |  | و علي لا شك يجزى جنانا |

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 298

لِلْكافِرِينَ نُزُلًا» (18: 102) «أَ ذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ» (37: 62).

وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ‏ 20.

«فسقوا» هنا فسق عن كلا الإيمان و عمل الصالحات، فلا تشمل فساق المؤمنين إذ ليسوا من الخالدين أبدا مهما دخلو النار.

و «كلما ..» هنا بيان لأمد الخلود في مأوى النار أنه ما دامت النار:

«.. فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيابٌ مِنْ نارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ وَ لَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ. كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيها وَ ذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ» (22: 22).

صحيح أن المؤمن العادل لا يسوّى بالمؤمن الفاسق في أية نشأة من النشآت و لكن الفاسق هنا يقابل المؤمن ككلّ، فهو الفاسق عن الإيمان، و كما يؤكده‏ «وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ ..» و ليست النار مأوى فساق المسلمين خلودا فيها مهما دخلها من يستحقها.

أفهم يستوون هنا و يوم الدين في ميزان الحق و العدل المطلق، كلا «لا يستوون» سواء في عدم البعث لو لم يكن، أم في شرعة الحق يوم الدنيا.

و لا تعني «كلما» هنا و هناك الكل الأبدي اللانهائي، و إنما هو ما دامت النار، فإذا فنت النار بمن فيها فلا دور للآية في نفي الخروج و إيجاب الإعادة لمكان نفي الموضوع نارا و أهل نار.

نعم لو دلت دلالة قاطعة على الأبدية اللانهائية للنار، لصدق الخلود اللانهائي بهذه الصيغة، و لكنما الأدلة عقلية و نقلية تثبت فناء النار بمن فيها، و تصدق على غرارها هذه الشرطية «كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 299

و هي بطبيعة الحال ما دام الموضوع.

وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى‏ دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ‏ 21.

«هم» هنا الفاسقون، أوعدهم اللّه أن يذيقهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، فالعذاب الأكبر هو عذاب القيامة دون ريب، فما هو العذاب الأدنى؟

هل هو عذاب القبر «1»؟ و رجاء الرجوع عن فسقهم فيه غير وارد! أم عذاب في الرجعة؟ «2» و المعذبون فيها هم من محض الكفر محضا و لا رجاء لرجوعه، إلّا اشتداد كفره! و عديد من الآيات تحيل الرجوع إلى الحياة الدنيا «لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ»! أم هو عذاب الاستئصال لمن يستحقه؟ و لا مجال للرجوع- إذا- إلى الإيمان فإنه الموت بالعذاب فكيف يرجعون؟! إنه‏

«هي المصائب و الأسقام و الأنصاب عذاب للمسرف في الدنيا» «3»

و

«هي لنا زكاة و طهور» «4»

و قد يكون من العذاب الأدنى الدابة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المجمع و قيل هو عذاب القبر عن مجاهد و روي أيضا عن أبي عبد اللّه (عليه السلام).

(2)

نور الثقلين 4: 231 عن تفسير القمي قال‏ في الآية العذاب الأدنى عذاب الرجعة بالسيف، معنى قوله: لعلهم يرجعون- يعني فإنهم يرجعون في الرجعة حتى يعذبوا- أقول‏ «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» هي نتيجة ذوق العذاب المترجاة دون العكس المختلق هنا.

(3، 4)

الدر المنثور 5: 178- أخرج ابن مردوية عن أبي إدريس الخولاني قال‏ سألت عبادة بن الصامت عن هذه الآية فقال سألت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله) عنها فقال:

هي .. قلت: يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله) فما هي لنا؟ قال: زكاة و طهور.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 300

و الدجال. «1».

فكل عذاب يبقى بعده المعذّب و يرجى رجوعه عن فسقه فهو العذاب الأدنى، و نفس ذلك العذاب حين يشمل المؤمن هو له زكاة و طهور، فأما عذاب الرجعة و عذاب الاستئصال فهما عوان بين العذاب الأدنى و الأكبر.

و في الحق إن العذاب الأدنى رحمة لمن يرجعون عن فسقهم، و للمؤمنين ترفيعا لدرجاتهم، و زحمة على من لا يرجعون.

و هكذا يتراءى ظلال الرحمة من وراء العذاب الأدنى، قارعة توقظهم و تستيقظ فطرهم و فكرهم حيث يردهم من أكبر العذاب إلى الصواب و الثواب.

كما و يتراءى ذل العذاب الأكبر من وراء العذاب الأدنى لمن ظلم و أعرض:

وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ‏ 22.

ذلك المجرم اللّدود الذي لا ينفعه التبشير، و لا ينذره التنذير، و لا يوقظه العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، بل و يعرض عن آيات ربه إذا ذكّر بها، «إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ» قد نجمع له العذاب الأدنى هنا، إلى الأوسط كعذاب الاستئصال في الرجعة أو قبلها، و في البرزخ، و الأكبر في الأخرى، لأنه بالغ في الظلم بآيات اللّه أسفل دركاته.

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ‏ 23.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المجمع في الآية: و الأكثر

في الرواية عن أبي جعفر و أبي عبد اللّه (عليهما السلام) أن العذاب الأدنى الدابة و الدجال.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 301

هنا عرض إيتاء الكتاب لموسى تسلية لخاطر النبي (صلّى اللّه عليه و آله) الجريح من تكذيب قومه، فلأنه أشبه النبيين به في كتابه و شرعته و رسالته و وحيه، و أنه يصدقه أهل الكتاب كلهم، يأتي هنا بذكره و إيتاءه الكتاب كما آتاه، و جعله هدى لبني إسرائيل كما جعله هدى للعالمين.

و في التقاء الرسولين و الرسالتين تزول كل مرية من لقاء اللّه هنا و في يوم اللّه، و التفريع في‏ «فَلا تَكُنْ ..» على‏ «لَقَدْ آتَيْنا ..» يقرّب هذا المعنى بين ما قد يعنى، فكما الرسالة نفس الرسالة و الرسول موسى نفس الرسول محمد (صلّى اللّه عليه و آله)، و الكتاب الرسالي نفس الكتاب مهما كانا درجات، فاللقاء.- إذا- نفس اللقاء، كل يلاقي ربه بما تأذى في سبيله، و تصبّر على عبأه و حمله في حملها.

و أما لقاءه موسى ليلة المعراج أم بعد الموت، و لقاء موسى إياه كذلك، فلا صلة له بإيتاء موسى الكتاب، إذ ليس لزامه ذلك اللقاء، بل هو لقاء اللّه المذكور في كل كتابات السماء، و كتاب موسى نموذج بارز منها قبل القرآن، فليقرن بالقرآن كما قرن نبيه بنبيّ القرآن، و التشابه بينهما في القضايا الرسولية و الرسالية اكثر من كافة المرسلين.

وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ‏ 24.

«وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ» بني إسرائيل «أئمة» رسلا «يَهْدُونَ بِأَمْرِنا» تكوينا و تشريعا، فإنهم حملة أمر اللّه، و يهدون دلالة و إيصالا إلى الهدى بأمر اللّه‏ «لَمَّا صَبَرُوا» فالصبر في قضايا الإيمان على رزاياه هو من معدّات الإمامة و الهداية بأمر اللّه كما «وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ».

فالإيقان بآيات اللّه، و الصبر في مسير الإيقان و مصيره، هما جناحان يطير بهما صاحبه إلى سماء الرحمة الربانية حتى يصير إماما للناس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 302

و كلما ازداد الابتلاء في اللّه، و النجاح فيه تجاه أمر اللّه، اتسمت دائرة الإمامة و ازدادت قوة و بهورا و كما في إبراهيم: «وَ إِذِ ابْتَلى‏ إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قالَ إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً ..» و كذلك من ذرية إبراهيم حسب درجاتهم‏ «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَ أَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَ إِقامَ الصَّلاةِ وَ إِيتاءَ الزَّكاةِ وَ كانُوا لَنا عابِدِينَ» (21: 73) و أفضل الأئمة في ذريته هو الرسول محمد (صلّى اللّه عليه و آله) و قد جعله اللّه إماما عليه و على كافة الأئمة رسلا و نبيين و سواهم من المعصومين‏ «1».

«جَعَلْنا مِنْهُمْ‏ .. بِأَمْرِنا» دليل صارم لا مرد له أن الإمامة ليست إلّا بجعل اللّه، كما الهداية من الإمام ليست إلّا بأمر اللّه‏

«لا بأمر الناس يقدمون‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 232 في أصول الكافي بسند متصل عن حفص بن غياث قال قال أبو عبد اللّه (عليه السلام) في حفص أن من صبر صبرا قليلا و أن من جزع جزعا قليلا ثم قال: عليك بالصبر في جميع أمورك فإن اللّه عز و جل بعث محمدا (صلّى اللّه عليه و آله) فأمره بالصبر و الرفق- إلى قوله- فصبر حتى نالوه العظائم فضاق صدره فأنزل اللّه عز و جل‏ «وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ كُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ» ثم كذبوه و رموه فحزن لذلك فأنزل اللّه عز و جل‏ «قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَ لكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآياتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ. وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلى‏ ما كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا» فألزم النبي (صلّى اللّه عليه و آله) نفسه الصبر فتعدوا و ذكر اللّه تبارك و تعالى و كذبوه فقال: قد صبرت في نفسي و أهلى و عرضي و لا صبر لي على ذكر إلهي فأنزل اللّه عز و جل: «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ فَاصْبِرْ عَلى‏ ما يَقُولُونَ» فصبر النبي (صلّى اللّه عليه و آله) في جميع أحواله ثم بشر في عترته بالأئمة و وصفوا بالصبر فقال جل ثناءه‏ «وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ» فعند ذلك قال (صلّى اللّه عليه و آله): الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 303

أمر الله قبل أمرهم و حكم الله قبل حكمهم» «1»

و تأويل هذه الآية يأتي في أئمة المسلمين بعد الرسول (صلّى اللّه عليه و آله) بأحرى و أولى لأنهم أعلى منهم و أقوى.

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ‏ 25.

طمأنة أخرى لقلبه المترجرج الجريح من بأس قومه الألداء، «إِنَّ رَبَّكَ» الذي رباك بهذه التربية الفائقة الرسالية «يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ» أولاء المختلفين في الحق الذي آتيناك‏ «يَوْمَ الْقِيامَةِ» فصلا واضحا ناصعا لا ريب فيه و لا شك يعتريه، واقعا لا قبل له، مهما فصل هنا بينهم بآياته البينات، و لكنهم‏ «كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» و أما هناك ففيه فصل القضاء الحاسم حيث يزيل كل الخلافات و الاختلافات فيعلمون أن اللّه هو الحق المبين.

أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَ فَلا يَسْمَعُونَ‏ 26.

إذا لم يهد لهم إنذار المنذرين‏ «أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ» ذلك الواقع المبين: «كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ» الماضية المكذبة بآياتنا، و هم الآن‏ «يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ»- «فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا» (28: 58) حيث‏ «وَ سَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَ تَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَ ضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ» (14: 45).

«إِنَّ فِي ذلِكَ» السير الماشي و المشي الساير المبصر «لآيات» لقوم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 233 عن تفسير القمي بسند عن جعفر محمد عن أبيه عن آبائه (عليهم السلام) قال: الأئمة في كتاب اللّه إمامان: قال اللّه تعالى: «وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا» لا بأمر الناس ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 304

يبصرون‏ «أَ فَلا يَسْمَعُونَ» إلى هذه الذكريات:

سمع الاتعاظ الإيقاظ؟. أم لا يسمعون إلى أخبار الهلكى في القرون التي مضت؟ و إذا لم يروا إلى الموتى كيف تحيى يوم الأخرى فجولة في الأرض الميتة حين تدب فيها الحياة:

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَ فَلا يُبْصِرُونَ‏ 27.

«الْأَرْضِ الْجُرُزِ» هي الخاوية عن الإنبات الخالية عن النبات لعدم الماء، ثم‏ «أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ» سوقا جويا، أم بريا من ظاهر الأرض أم باطنها «إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ» فلما اجتمع الماء الميت مع الأرض الميتة «فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً» حيّا من جمع هذين الميتين‏ «تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَ فَلا يُبْصِرُونَ» ذلك الإحياء المتواتر ليل نهار.

فهذه الأرض الميتة الجافة البور، هم يرونها يسوق اللّه إليها الماء المندي المحيي، فإذا هي ممرعة بالزرع ممتّعة بالحياة، مما يفتح نوافذ القلب المغلقة لاستجلاء الحياة بعد الممات، و تجيش مشاعر الإنسان تقبّل تلك الحياة و استقبالها بعد الممات!:

كذلك اللّه يسوق ماء الحياة إلى أرض الأبدان البالية الجرز فيحييها و يخرج بذلك زرع الأعمال صالحة و طالحة يوم يقوم الحساب، و هو يوم الفتح للذين آمنوا و انهزام الذين كفروا.

وَ يَقُولُونَ مَتى‏ هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ‏ 28.

و ما أحمقهم حجة لتكذيب يوم الفتح أن يخبرهم المؤمنون به بمتاه، بعد ما ثبت أصله و مداه! فهل يصح في قياسهم نكران الولادة للمواليد الذين لا يعلمون متى ولدوا، أم نكران موتهم إذ لا يعلمون متى يموتون؟ و أيّة صلة بين العلم بمتى يوم الفتح و تصديقه!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 305

و قد يعم‏ «يَوْمَ الْفَتْحِ» يوم عذاب الاستئصال قبل الرجعة «1» أم فيها، حيث الإيمان عند رؤية البأس لم يكن ينفعهم: «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ» (40: 85).

و لقد سمي انتصار الحق بالفتح أيا كان و أيان: «فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشى‏ أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلى‏ ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ» (5: 52)- «قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ. فَافْتَحْ بَيْنِي وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ. ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ» (26: 12) فقد نسمي غرق الباقين الباغين فتحا كنجاة المؤمنين.

ثم الفتح ككل يعم الفتح العرفي و الواقعي، أنهم سوف يعلمون حق اللّه، و يبتلون بنكرانه حقه من ذي قبل، حيث الفتح هو فصل القضاء الحاسم بين المتخاصمين.

قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ‏ 29.

«قل» ما ذا ينفعهم متاه و هم ليسوا ليؤمنوا به حتى متاه، ثم‏ «يَوْمَ الْفَتْحِ» إذا وقع، عرفوا متاه من ذي قبل أم لم يعرفوا «لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ» هناك‏ «وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ» أن يقولوا آمنا، و إذا أنظروا فلا ينظرون عن عذابه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 4: 233 عن تفسير القمي قال قال في الآية: هو مثل ضربه اللّه عز و جل في الرجعة و القائم (عليه السلام) فلما أخبرهم رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بخبر الرجعة قالوا متى هذا الفتح إن كنتم صادقين، فقال اللّه عز و جل‏ «قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏23، ص: 306

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ‏ 30.

«فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ» أن تواجههم بعد في حجاج ما دام كله لجاج بعد ان نفضت يدك من أمرهم و إمرهم، فدعهم لمصيرهم المنتظر، يوم الفتح‏ «إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ» و أين انتظار من انتظار، أنت تنتظر رحمة ربك و هم منتظرون عذابه!.